1954

مكتبة نوبل

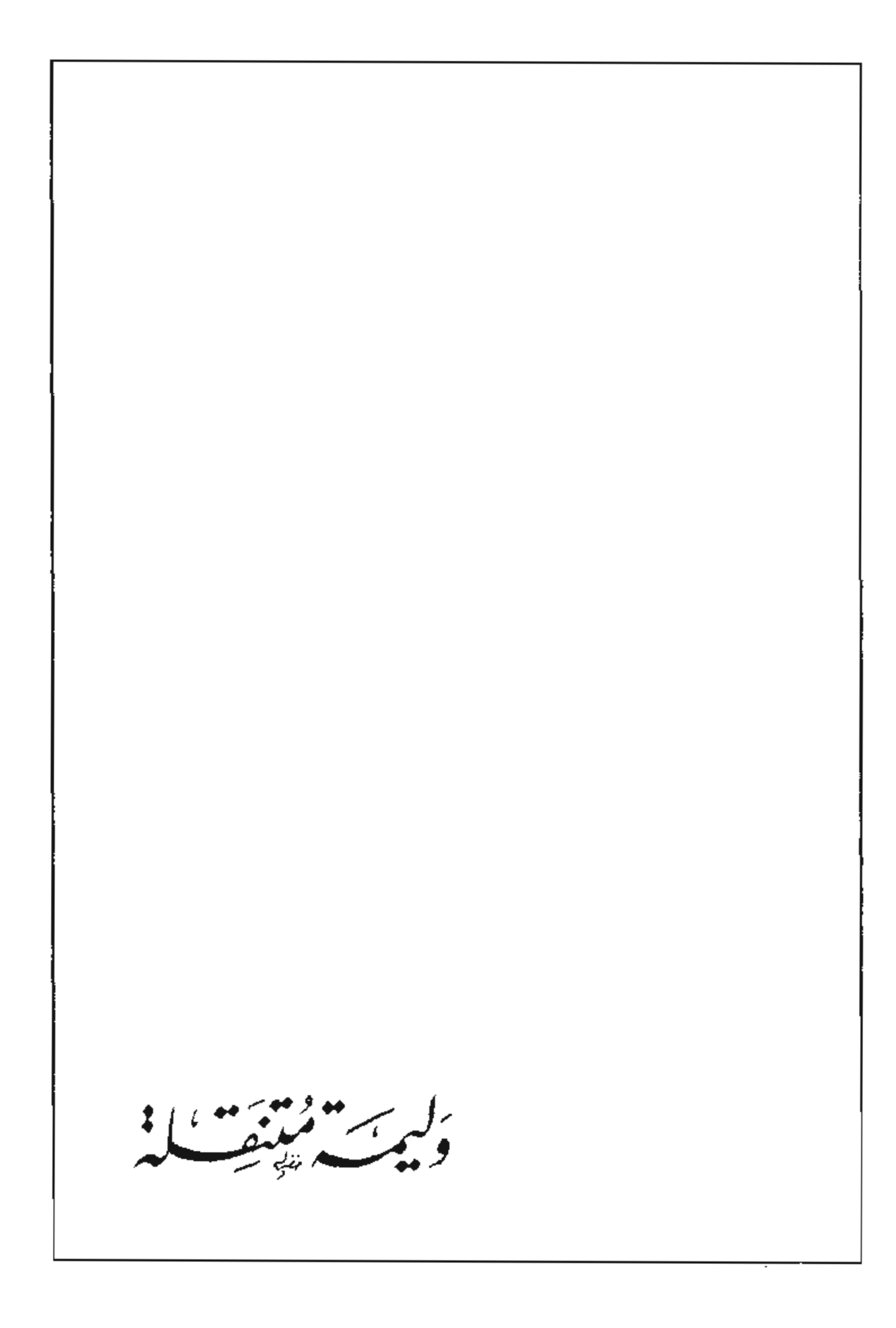
ارنست همنغواي

الوليمة المتنقلة





ترجمة : علي القاسمي


وليمة متنقلة



٢٠٠٩

برعاية السيدة

سوزان مبارك

المشرف العام

د . ناصر الأنصاري

الجهات المشاركة

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة التنمية المحلية

المجلس القومي للشباب

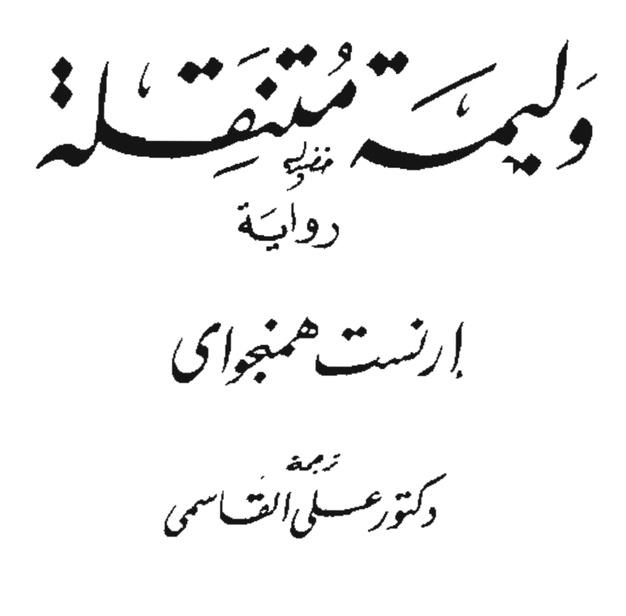
وزارة التنمية الاقتصادية

تصميم الغلاف

د . مدحت متولي

التنفيذ

الهيئة المصرية العامة للكتاب



وليمة متنقلة

رواية

ارنست همنجواى

ترجمة

دكتور على القاسمى



وليمة متنقلة

لوحة الغلاف من أعمال الفنان : مصطفى عبد الوهاب

همنجواي ، أرنست، ١٨٩٩ - ١٩٦١ .

وليمة متنقلة : رواية/ أرنست همنجواي .-

القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٩ .

٢٦٠ ص ؛ ٢٤سم.

تدمك: ٣ - ١٣٨ - ٤٢١ - ٩٧٧ - ٩٧٨.

١ - القصص الإنجليزية .

أ - العنوان .

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٣٧٢ / ٢٠٠٩

I.S.B.N 978-977-421-138-3

ديوى ٨٢٣

توطئة

انطلقت فعاليات الحملة القومية **للقراءة للجميع** فى دورتها التاسعة عشرة هذا العام تحت شعار «**مصر السلام**». هذا الشعار الذى ظلت السيدة الفاضلة **سوزان مبارك** تطرحه منذ بداية تنفيذ حلمها ليصير الكتاب زادًا متاحًا للجميع، وتصبح القراءة عادة لدى الأجيال الجديدة. لقد ظلت الدعوة للسلام تحلق فى فلك دورات المهرجان السابقة. فهى جزء من تاريخ مصر العريقة، التى بدأت الحضارة على أرضها، منذ وقّع رمسيس الثانى أول معاهدة سلام. لم يكن هناك حينئذ من يضاهيه تقدمًا أو قوة، ولكنه كان يُعلِّم العالم أن من شيم الأقوياء التوق إلى السلام.

لقد جرت فى النهر مياه كثيرة منذ حازت السيدة الفاضلة **سوزان مبارك** جائزة التسامح الدولى لعام ١٩٨٨ من الأكاديمية الأوروبية للعلوم والفنون التى جاء فى تقريرها «إن الأكاديمية منحت الجائزة للسيدة **سوزان مبارك** عرفانًا بدورها الكبير فى إذكاء روح التسامح وطنيًا وإقليميًا وعالميًا، وتقديرًا لجهودها الجادة»، وأصبحت **القراءة للجميع** من أهم المشروعات الثقافية

العملاقة فى العالم العربى، وتم اتخاذه نموذجًا يحتذى به فى بلاد أخرى.

ومازالت مكتبة الأسرة، كرافد رئيسى من روافد القراءة للجميع، تقوم بدورها فى إعادة الروح إلى الكتاب كمصدر مهم وخالد للمعرفة فى زمن تزحف فيه مصادر الميديا المختلفة. فالكتاب هو الجسر الراسخ الذى يربط ذاكرة الأمة وتاريخها وإنجازاتها بأبنائها، وهو الفضاء الساحر الذى يلتقى به المثقفون والمفكرون والمبدعون بالأجيال المختلفة.

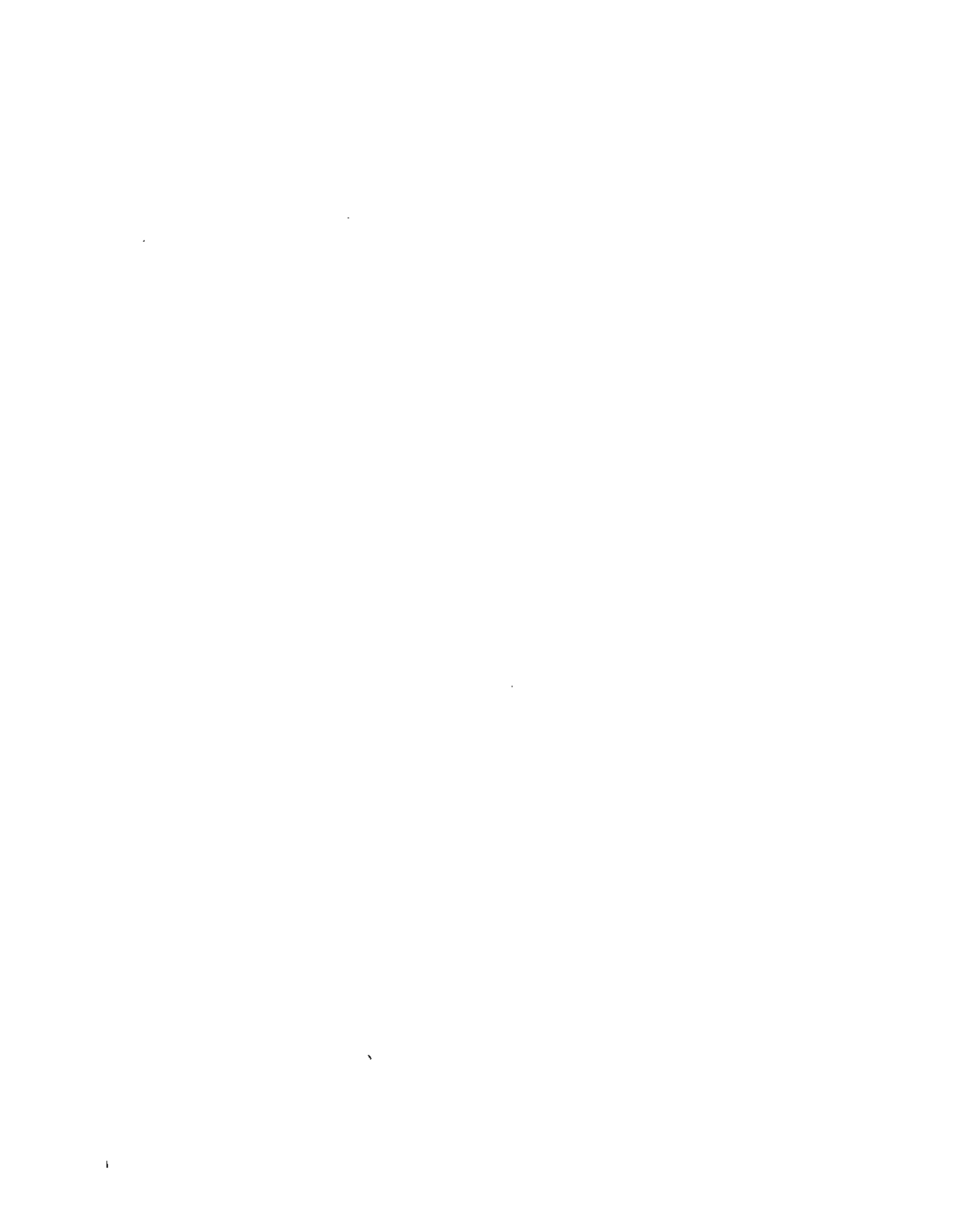
وتواصل مكتبة الأسرة هذا العام نشر أمهات الكتب، وستستكمل نشر تراث الأمة الإبداعى، وستعمل على ربط الكتاب بمصادر المعرفة الحديثة كالإنترنت، وعلى التوسع فى إصدار كتب الفنون المختلفة كالمسرح والموسيقى إيمانًا منها برسالة الفنون الرفيعة لتنمية وتطوير وتهذيب روح المجتمع، وحمايته من ضروب التعصب والكراهية والعنف الدخيلة عليه.

وتصدر مكتبة الأسرة هذا العام من خلال سلاسلها المختلفة.. الأدب والفكر العلوم الاجتماعية والعلوم والتكنولوجيا والفنون والمئويات والتراث وسلسلة الطفل، وستشكل هذه السلاسل بانوراما معرفية وتاريخية وعلمية وإبداعية وفكرية، وتمثل مرآة لاجتهادات الفلاسفة والشعراء والعلماء والمفكرين عبر قرون لتحقيق السلام للبشرية من خلال حلمهم الدائم بتحقيق الخير والعدل والجمال.

مكتبة الأسرة

٢٠٠٩

قائمة المحتويات



مقدمة المترجم

خفايا الترجمة وفخاخها:

متى يرتدي همنجواى الكوفية والعقال؟

بقلم: الدكتور علي القاسمي

همنجواى كاتب الطلاب المفضل:

كنت طالباً في الجامعة الأمريكية في بيروت عندما أهدى إليّ أحد الأصدقاء هو الكاتب الأمريكي جون مكلنك فريزير، الذي كان يشاركني إعداد كتاب باللغة الإنجليزية عن القصة الحديثة في العراق ــ أهدى إليّ كتاباً من أعمال إرنست همنجواى عنوانه (الوليمة المتنقلة) كان قد صدر في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٦٣ بعد وفاة مؤلفه منتحراً عام ١٩٦١.

وكنت قد قرأت عدداً من مؤلفات همنجواى الأخرى منها مجموعة قصصه القصيرة، وروايته (وما تزال الشمس تشرق) ، وروايته (لمن تُقرع الأجراس ؟) ، وقصته الطويلة (ثلوج كليمنجارو)، وقصته الطويلة (الشيخ والبحر) التي نال على إثرها جائزة نوبل للآداب عام ١٩٥٤. كما كنت قد قرأت كتاباً عن حياته بعنوان (بابا همنجواى) للصحفي الأمريكي هتشنر الذي حرص على رفقته خلال السنوات العشر الأخيرة من حياته كان يحتفظ خلالها بسجل مفصّل عن تنقلات همنجواى وعلاقاته

وأنشطته المختلفة . وكنت أعتبر همنجــواى ، آنــذاك ، كـــاتبي المفضّل باللغة الإنجليزية، بل يمكنني القول إن همنجــواى هـــو كاتب الطلاب المفضل لسهولة لغته، وسلاسة أسلوبه، وللتــشويق الناتج من موضوعاته الرومانسية، وروح المغامرة التي تتجلى في قصصه. ولا يضارعه في سهولة لغته من الكتاب الفرنسيين مـــن مجايليه إلا مارسل بانيول.

باريس وليمة متنقلة:

قرأت كتاب (الوليمة المتنقّلة) فأعجبني أيما إعجـــاب، لأنـــه كان يتحدّث عن مدينة باريس التي عاش فيها في أوائل العشرينات من القرن العشرين، من سنة ١٩٢١-١٩٢٦، وهي سنوات تقـــع في تلك الفترة التي يسميها الفرنسيون بالحقبة الجميلة La belle époque أو بسنوات الجنون Les années folles . كما يتحدّث عن الأدباء والفنانين الذين كانوا يعيشون في باريس في تلك الأيام والذين ربطته معهم صلات مودة وصداقة، خاصة أولئـــك الـــذين قدموا من بريطانيا وأمريكا واتخذوا باريس مربعا لمزاولة أدبهـــم وفنهم. وفي مقدمة أولئك الأدباء الشاعر الأمريكي عـــزرا باونـــد والشاعر الأمريكي البريطـــاني تـــي. أس. إليـــوت، والروائـــي البريطاني جيمس جويس، والكاتبة الأمريكية غيرتيتيـــود شـــتاين، والروائي الأمريكي سكوت فتزجيرالد، وغيرهم.

وفي ميسور القارئ الكريم أن يتصوّر المتعة التـــي تتيحهـــا قراءة هذا الكتاب، الذي يرسم، بريشة أديـــب كبيـــر، شخـــصيات

. أولئك الأدباء الكبار ويفضح بعض أسرارهم. وكان همنجواي قد سجّل ذكرياته تلك في السنوات الثلاث الأخيرة من حياته، بعد أن اكتملت أدواته الفنية والفكرية، وتعامل مع شخصياته وموضوعاته بأسلوب روائيّ ساخر أخّاذ. أضف إلى ذلك أن هذا الكتاب يشكّل جنساً أدبيّاً جديداً يختلف عن الأجناس الأدبيّة التي مارسها همنجواي من قصة ومقالة ورواية. فالكتاب عبارة عن ذكريات سيرة ذاتية صيغت بشكل روائيّ.

وتبادر إلى ذهني آنذاك ضرورة ترجمة الكتاب إلى اللغة العربية لأتقاسم المتعة مع قرائها، ولأوفّر للمكتبة العربية معلومات دسمة عن أولئك المشاهير من الأدباء والفنّانين، لا يجدها الباحثون عادة في المراجع المختصة بالأعلام والسير والتراجم.

صعوبات الترجمة:

ولكنني عندما أعملت الفكر في الأمر، تبيّن لي أنني لم أكن قادرا على ترجمة الكتاب يومذاك على الرغم من سهولة لغة همنجواي وبساطه تراكيبها؛ لأن الترجمة عمليّة إبحار من مرفأ إلى آخر عبر بحر التواصل الإنساني في رحلة محفوفة بالمخاطر. فلا يكفي معرفة المرفأين وامتلاك باخرة، للوصول إلى الشاطئ الآخر. فقد تعترض البحّار أمواج عاتية أو عواصف هوجاء أو أمطار طوفانيّة. وإذ ذاك لا بد له من معرفة معمّقة بأصول الملاحة البحرية، وخبرة بخفايا البحر الذي يقطعه، ودراية بالأنواء الجويّة أيام السفر.

والترجمة ليست مجرد توليد المقابلات المعجمية لمفردات النص الأصلي. وإنما هي نقلة تجري في إطار عملية التواصل. بيد أنها أكثر تعقيدا من تواصل بين ناطقين بلغة واحدة. فالمترجم يجتاز حدود لغتين عبر رموز لغوية، وأخرى ثقافية اجتماعية، وثالثة أسلوبية أدبية. فلا يكفي نقل النص مجردا من حمولته الثقافية وعاريا من كسوته الأسلوبية المتميزة. وإنما يتحتم على المترجم أن يموقع النصّ في سياقه الثقافي ومقامه الاجتماعي، وأن يصوغه بأسلوب يتناسب مع أسلوب الكاتب الأصليّ. وإذا فشل المترجم في واحد من هذه الميادين الثلاثة فإنه يخلّ بأمانة النقل التي تعدّ عماد الترجمة الناجحة.

خيانة المترجمين:

كنت أخشى أن أشارك في ما يسميه الإيطاليون بخيانة الترجمة، أو أن تنطبق عليّ مقولة الأديب الإسباني الأستاذ جوليو– سيزار سانتويو ، الأستاذ بجامعة ليون بإسبانيا، الذي أعرب عن دهشته لعدم زج كثير من المترجمين في السجون والمعتقلات لأن ترجماتهم مليئة بجرائم الكذب والتزوير وإخفاء الحقيقة وغير ذلك من الجرائم التي يعاقب عليها القانون. فالترجمة لا تتطلب الكفاية اللغوية، أي التمكن من اللغتين المنقول منها والمنقول إليها، فحسب، وإنما تتطلب كذلك الكفاية الأدبية والكفاية الثقافية–الاجتماعية. وتتمثل الكفاية الأدبية في قدرة المترجم على معرفة الأساليب الأدبية التي دُوّن فيها النص الأصلي وتمكنه من

مضاهاتها في اللغة الهدف. أما الكفاية الثقافية-الاجتماعية فتعني إلمام المترجم بالسياق الاجتماعي والثقافي للخطاب وظروف إرساله وتلقيه. ولا يمكن عزل لغة النص عن الأسلوب الذي صيغت فيه والموضوع الذي تناوله.

مثبطات الترجمة

جهل الموضوع:

وقد صرفت النظر عن ترجمة (الوليمة المتنقّلة) للأسباب الآتية:

أولا، يتحدّث همنجواي عن مدينة باريس التي أمضى فيها أزهى سنوات شبابه بعشق وهيام كما لو كانت امرأة جميلة أغرم بمفاتنها وحفظ عن ظهر قلب خريطة جسدها وتضاريسه. فهو يتحدّث بشغف عن أحياء باريس ومعالمها وساحاتها وشوارعها ومطاعمها ومقاهيها. كان يخرج من شقّته الكائنة في شارع الكاردنال لوموان في الحيّ اللاتينيّ، فيتمشّى على رصيف نهر السين، ويتصفّح الكتب المعروضة في أكشاك باعة الكتب القديمة المنتشرة على الرصيف، ثم يخترق الحيّ ليصل إلى مقهاه المفضّل الواقع في ميدان سان ميشيل، ويجلس في المقهى، ويُخرج من جيبه دفتراً وقلماً، ويشرع في كتابة أقاصيصه. وعندما كان يعود وقت الظهر إلى شقّته لتناول طعام الغداء مع زوجته الشابة الجميلة هادلي كان يعرّج على مكتبة شكسبير الواقعة في ساحة الأوديون آنذاك. وكان في أثناء سرده لذكرياته،

يسمّي الشوارع والساحات بأسمائها، ويصف المطاعم والمخازن وما تعرضه من أطعمة ومأكولات في واجهاتها.

وشعرت آنذاك أنه ليس بميسوري أن أترجم بأمانة وإحساس صادق نصاً أدبياً يصف مدينة لم أزرها من قبل، ولم تربطني بها وشيجة محبّة كما هو حال المؤلف. كنت أخاف أن أتيه، وأنا أترجم الكتاب، في زقاق من أزقتها حتى لو استعنت بخريطة مفصّلة لتلك المدينة.

ثانيا، كان همنجواي رجلاً يحبّ الحياة حتى الموت. كان يريد أن يحيا بجميع مشاعره وأحاسيسه وعواطفه وانفعالاته، في الواقع والخيال، في الممكن والمستحيل، فكان يتوخى تجريب الحبّ والكره، والفرح والترح، والرضا والغضب، والأمل واليأس، والطمأنينة والخوف، وجميع الانفعالات الإنسانية مهما كانت هويتها، ومهما كان لونها: أحمر قانياً بلون الدم المُراق، أم وردياً فاتحاً بلون الزهر في الربيع. ولهذا فقد تقدّم إلى مركز التجنيد للتطوّع في الحرب العالمية الأولى ولمّا يبلغ الثامنة عشرة من العمر، وعندما رُفض بسبب باطن قدمه المسطح، ألحّ كثيراً على المسؤولين حتى قبلوه سائق سيّارة إسعاف وأرسلوه إلى الجبهة الإيطاليّة، وجُرح هناك جرحا بليغاً، وتبلورت خبرته تلك في روايته (وما تزال الشمس تشرق). وعندما اندلعت الحرب الأهلية الإسبانية تطوّع فيها مراسلاً صحفياً مناصراً للجمهوريين وخاض غمارها في كلّ الجبهات ما مكّنه من كتابة روايته (لمن

تُقرع الأجراس؟). ومارس اصطياد الأسود في أفريقيا وكتب عنها رائعته (ثلوج كليمنجارو).

وفي باريس، كان همنجواي مولعاً بالرهان على سباقات الخيل في حلبات الجري والقفز، ومفتوناً بألعاب الدرّاجات الناريّة والهوائيّة. وكان يذهب بصورة منتظمة إلى النمسا وسويسرا للتزلّج على الجليد في الجبال الشاهقة ويغامر في التزلّج تحت جبال جليديّة على وشك الانهيار. ولم يكتفِ بالقمار في ميادين سباق الخيل بل كان يقامر في لعب الورق وجيبه خاوٍ أحياناً. وكان همنجواي يمارس الملاكمة وقام بتعليم الشاعر عزرا باوند هذه الرياضة الخطرة.

أما أنا فلم تكن لي خبرة في الحياة وكانت تجاربي فيها محدودة وليست هوايات همنجواي من هواياتي. وكنت أتساءل هل كان باستطاعتي أن أترجم نصاً لا خبرة لي في أحداثه ولا أشارك مؤلفه أحاسيسه وانفعالاته حول موضوعه؟ إضافة إلى أن همنجواي كان يستعمل في حديثه عن هواياته تلك بعض المصطلحات التقنية أحياناً، وهي مصطلحات مفهومة لدى من يزاول القمار أو الرهان على الخيل أو سباقات الدراجات أو التزلّج أو الملاكمة، مثلاً ، ولكنها تشكّل صعوبة ، إبستمولوجية أكثر منها لغوية، لمن لا يلّم بتلك الهوايات. وإذا لم تتسلّل ذاتية المترجم إلى عمله، فقدت ترجمته الدفء والحياة.

صعوبة السهل الممتنع من الأساليب:

ثالثا، على الرغم من أن لغة همنجواي العامة في منتهى السهولة وأن تراكيبه النحوية في غاية البساطة، فإن أسلوبه يضع عقبات متعددة في طريق من يريد أن يترجمه إلى العربية. وتتعاظم هذه الصعوبات في جبهتين على الأقل:

الأولى، يعدّ نقاد الأدب الإنجليزي همنجواي معلمة في تاريخ الكتابة باللغة الإنجليزيّة، لأنه انتقل بها من مرحلة التعبير المنمق الرفيع إلى التعبير البسيط المتواضع. لقد تحول همنجواي بالقصة من كلام الأدباء إلى كلام الناس البسطاء، ولم يتردد في استعمال تعبيراتهم العاميّة أحياناً. المهم عنده أن تكون جُمله جُملاً حقيقية تفوّه بها أو سمع أحدهم ينطقها. وفي هذا يقول همنجواي في الفصل الثاني من كتاب *الوليمة المتنقلة*:

" ولكن يحدث أحياناً أن أشرع في كتابة قصة ما ولا أتمكن من التقدّم فيها، فكنت أجلس أمام النار وأعصر قشور البرتقالات الصغيرة على أطراف اللهب وأشاهد الرذاذ الأزرق الذي تخلّفه. وأنهض وأحدّق في سطوح باريس وأقول لنفسي: " لا تقلق، لقد كنتَ تكتب دوماً من قبل وستكتب الآن. كلّ ما عليك أن تفعله هو أن تكتب جملة حقيقية واحدة. أكتب أصدق جملة تعرفها." وهكذا أتمكن أخيراً من كتابة جملة حقيقيّة واحدة، ثم أواصل من هناك. لقد كان ذلك أمراً ميسوراً، لأن هنالك دائما جملة حقيقيّة أعرفها أو رأيتها أو سمعت شخصاً ما يقولها. وإذا بدأت الكتابة بتكلف أو كمن يمهّد لتقديم شيء ما، شعرت بأن عليّ أن أحذف المُحسّنات

والمقدّمات والإلتواءات اللفظية، وأرمي بها بعيداً لأبداً بأول جملة خبرية حقيقية بسيطة كتبتها. "

إذن لا تشكّل نصوص همنجواى العامة صعوبة تذكر للمترجم على مستوى الفهم لأن مفرداتها بسيطة شائعة وبنياتها النحوية سهلة بعيدة عن التعقيد. ومع ذلك يظلّ همنجواى عصيّاً على الترجمة على الرغم من سهولته الظاهريه وإغرائه الشديد. فصعوبته تكمن في سهله الممتنع. وبساطته البادية للعيان هي ذاتها التي تسبّب للمترجم صعوبة على مستوى التعبير. هل يستطيع المترجم العربي الذي فهم العبارة أو الفقرة أن يصوغها بنفس البساطة باللغة العربية، لفظياً ونحوياً كما تقتضي أمانة الترجمة، خاصة أن العربية تعرف ازدواجية بين اللغة العامية التي يتحدثها الناس، واللغة الفصيحة التي يستعملها الأدباء؟

فالمترجم العربي، مثلاً، يقف حائراً عندما يستخدم همنجواى كلمة واحدة عدّة مرات في الفقرة الواحدة بل في الجملة الواحدة، كأن يقول: " كان المطعم جيّداً والطعام جيّداً والشراب جيّداً وكانت شهيتنا جيّدة." لأنه لا يعبأ بتنويع المترادفات التي تثري النصّ وتغنيه لفظياً، وإنما يهتمّ بالأثر الذي يتركه النصّ في نفس القارئ. بيد أن المرء يتساءل ما إذا كانت البلاغة العربية وأساليبها الفصيحة تتقبّل ذلك.

وهنا يُثار سؤال مشروع هو: ماذا إذا حسّن المترجمُ أسلوبَ النص في اللغة المنقول إليها وجعله أكثر تقبلا من قبل قرائها وأكثر انسجاما مع ذائقتهم الفنية؟ هل يتهم المترجم آنذاك بخيانة

الكاتب الأصلي ومقاصده. ومن الأمثلة الشهيرة التي تضرب في هذا المجال اضطلاع الشاعر الفرنسي الرومانسي بودلير بترجمة قصص الكاتب الأمريكي إدغار ألن بو. فنحن نعرف أن إدغار ألن بو يعدّ من رواد القصة القصيرة في العالم كما يعتبر أبا القصة البوليسية. ولكن الذي قد لا نعرفه هو أن الأمريكيين أنفسهم لا يُقبلون على قراءة أعماله لأنهم لا يستسيغون أسلوبه المعقد المرتبك كعقله. ولهذا فإن أعماله تتمتع بشهرة أكبر وإقبال أوسع عليها في فرنسا بفضل ترجمة بودلير الذي صاغها بأسلوب شاعري سلس محبّب.

تقنية جبل الجليد القصصية:

والثانية، يُعدّ همنجواي صاحب تقنية خاصة في كتابة القصة القصيرة والرواية تتلخص في أن الكاتب لا يزوّد القارئ بالمعلومات المطلوبة مباشرة، وإنما يدعه يكتشف تلك المعلومات بنفسه ويستنبط كثيرها الغائب من قليلها الحاضر، أي أن يقرأ ما بين السطور وما وراء الفواصل والنقط. ويُطلق على تلك التقنية اسم جبل الجليد. فأنت ترى جزءاً من جبل الجليد بارزاً فوق سطح الماء في المحيط ، وقياساً عليه تستطيع أن تقدّر حجم وصلادة الجزء المغمور منه تحت سطح الماء، وهو عادة أكبر وأصلد.

فعندما يريد همنجواي أن يتهم أحد شخصيات كتابه *الوليمة المتنقّلة* ــ ولنقل سكوت فتزجيرالد ــ بالكذب أو عدم الدقة في

الكلام، فإنه لا يقول ذلك مباشرة وإنما يسوق حواراً بريئاً ــ على ما يبدو ــ بينه وبين فتزجيرالد يستشف منه القارئ أن فتزجيرالد قد أخطأ أو كذب. وعندما يبتغي همنجواي أن ينوّه بإلمامه بالأمور الطبيّة لأن والده كان طبيباً ولأنه هو نفسه كثيرا ما كان يطالع المجلات الطبيّة المتخصّصة، فإنه لا يصرّح بذلك مباشرة وإنما يسرد أحداثاً يستنبط منها القارئ أن لهمنجواي ثقافة طبيّة جيّدة.

فهمنجواي الروائي لا يطرح أسئلة مباشرة ولا يسرد جميع الأحداث ، وإنما يستخدم التلميح بدلاً من التصريح، والتضمين بدلاً من التقنين. إنه يلجأ إلى تقنية " جبل الجليد " ليتيح للقارئ متعة الاكتشاف والمشاركة في العمل الإبداعيّ. يقول همنجواي إنه عندما التقى الروائي الأمريكي سكوت فتزجيرالد، صاحب رواية (غاتسبي العظيم)، التي يعدّها بعض النقاد أروع الروايات التي كتبت باللغة الإنجليزية في القرن العشرين، تحدّث سكوت فتزجيرالد عن الأدب كما لو كان يُلقي خطاباً. ويضيف:

"ولكن أعقبت الخطاب حصةُ الأسئلة. وفهمتُ منها أن سكوت يعتقد أن بوسع الروائيّ أن يعثر على ضالته بتوجيه الأسئلة المباشرة إلى أصدقائه ومعارفه. ولهذا كان التحقيق مباشراً..."

فهمنجواي يستخدم التلميح بدلاً من التصريح، ويستعمل الإيحاء عوضاً عن التوضيح. وفي هذا يقول الشيخ أمين الخولي في تعليق له على قصة قصيرة مترجمة لهمنجواي:

" ليست القصة القصيرة ديباجة مرصّعة، ولا ألفاظاً منمقــة، ولا أحداثاً لافتة، ولا حركة عنيفة، ولا هي عقدة دقيقة، ولا حبكة متينة، بل هي همسة، أو لمسة، أو خفقة، أو مسقط ظل، أو شعاع ضوء، أو فتنة لون، أو ما إلى ذلك من إيحاء الفن... ومن هنا لا تكون كما يبدو عملاً هيناً."

ويكمن خطر ترجمة همنجواي في أن المترجم قد يــستخدم، من غير قصد، مفردات وصيغاً تصرّح بالمضمون وتكشف عــن مرامي همنجواي بصورة مباشرة في حين أن قصد المؤلف هو أن يترك مهمة الاكتشاف للقارئ لا للمترجم. ويذكرني هذا الوضــع بالترجمة العربية لرواية (الغريب) لألبير كــامي. ففــي الــنصّ الفرنسيّ كانت جميع الأفعال التي أدّت إلى مقتل العربيّ الجزائريّ أفعالاً انعكاسية أو أفعالاً بصيغة المبني للمجهول، بحيــث تعطــي الانطباع للقارئ بأن القاتل كان مسلوب الإرادة ولم يقــصد قتــل الشاب الجزائري ولا يعرف لماذا قتله، وفي ذلك إشارة إلى فلسفة المؤلف في عبثية الوجود ولا معقولية تصرفات الإنسان المسيّر لا المخيّر، في حين أن المترجم العربي وضع جميع تلــك الأفعــال بصيغة المبني للمعلوم وهي الصيغة الأكثــر شــيوعاً والأيــسر استعمالاً باللغة العربية. وهكذا أفسد المترجم مقاصــد المؤلــف. ولنضرب مثلاً في هاتين الجملتين:

(١) امتدّت يده إلى المسدس، فانطلقت منه رصاصة.

(٢) مدّ يده إلى المسدس، وأطلق منه رصاصة.

يتحدّث همنجواي في كتاب (الوليمة المتنقّلة) عن باريس في العشرينات من القرن العشرين وعن الأدباء الذين التقى بهم هناك وربطته معهم صداقة ومودة. ولكنّه، في حقيقة الأمر وبصورة غير مباشرة، يتحدّث عن نفسه من خلالهم ومن خلال باريس. فنحن نرى أحياء باريس التي ارتادها، وشققها التي سكنها، ومطاعمها التي أكل فيها، ومقاهيها التي كتب قصصه على طاولاتها، وحلبات سباق الخيول التي قامر فيها، وهكذا. ونحن نتعرّف كذلك على الأدباء البريطانيين والأمريكيين من خلال المحادثات التي تجري بينه وبينهم.

يمكننا أن نعدّ هذا الكتاب من كتب السيرة الذاتية ولكنه دُوّن بطريقة مبتكرة وأسلوب روائي يختلف عن أساليب الكتب التي سبقته من هذا الصنف الأدبي.

صعوبة ترجمة السخرية والتهكم:

ثالثاً، لقد كتب همنجواي عدداً من فصول كتابه هذا (*الوليمة المتنقّلة*) بأسلوب ساخر. ونحن نعرف أن الفكاهة أصعب أجناس الكلام، وإن السخرية هي النوع الأصعب من أنواع هذا الجنس. فهي تتطلّب قبل كل شيء تمكناً من الموضوع، وروحاً مرحة، وعينين ترتديان نظارتين تحيلان الذوات والأجسام إلى أشكال كاريكاتورية، وتبحّراً في اللغة وثروتها اللفظية بحيث يختار الكاتب تلك المفردات والأوزان الصرفيّة التي تتوفّر، بالإضافة إلى معناها المركزي، على معنى هامشي مضحك.

فلو نظرنا إلى العبارات التالية: *تفصّح في كلامه، تعمّق في كلامه، تفنّن في كلامه، تقعّر في كلامه، تنطّع في كلامه؛* نجد أنه على الرغم من أنها جميعا شبه مترادفات وأن الفعل فيها التزم بصيغة واحدة هي (تفعّل) فإن العبارتين الأخيرتين هما أقرب إلى السخرية من ذلك المتكلم. وتستمدان تلك السخرية من صيغة الفعل، ومن معناه المركزي، ومن معناه الهامشي الذي اكتسبه بالاستعمال في مثل هذا المقام.

ولكن السخرية في هاتين العبارتين سخرية مباشرة أشبه ما تكون بالفكاهة الناتجة من انزلاق أحدهم على قشرة بنان الموز وتكرفسه أرضاً. أما السخرية التي استخدمها همنجواى في كتابه (*الوليمة المتنقلة*) فكانت أعمق وأبعد مرمى وتتأتى من قراءة نصّ كامل وليس من كلمة أو عبارة.

ومن الأمثلة على ذلك سخريته المُرّة من صديقه الكاتب سكوت فتزجيرالد ، الذي أُرجّح أن همنجواى كان يغار منه أو يحسده بسبب تألّقه روائياً ولأنه كان غنياً في حين كان همنجواى يومذاك يقاسي الفاقة والعوز. وكان فتزجيرالد آنذاك متزوجاً بالشابة الحسناء زيلدة، وكان مغرماً بها جداً على الرغم من تفنّنها في تعذيبه ، ولم يعلم أحد آنذاك أنها في طريق الجنون التي ستقودها إلى مستشفى الأمراض العقلية. وذات يوم دعا فتزجيرالد صديقه همنجواى لتناول طعام الغداء في مطعم فاخر ليتشاور معه في أمر خطير. فلبى همنجواى الدعوة مسروراً، حباً في الطعام أساساً. وبعد أن تناولا ما لذّ من طعام وشراب، أخذ فتزجيرالد

يمهّد للموضوع بأحاديث متنوعة. وعندما أخذا في تناول الحلــوى فتح فتزجيرالد الموضوع وجرى الحوار التــالي، كمــا صــاغه همنجواى:

" وأخيرا وفيما كنا نأكل كعكة الكرز ونشرب آخــر غرّافــة نبيذ، قال لي:

ــ أنت تعلم أنني لم أضاجع امرأة أخرى سوى زيلدة.

ــ لا، لا أعرف ذلك.

ــ ظننتُ أنني أخبرتك بذلك.

ــ لا، لقد أخبرتني بأشياء كثيرة، ولكن ليس ذلك.

ــ هذا ما يتعين عليّ أن أسألك عنه.

ــ طيب، استمر.

ــ تقول زيلدة إن تكويني البدني لا يساعدني أبدا على إسعاد أية امرأة، وهذا الذي يكدّرها في الأساس. وتقــول إنهــا مــسألة مقاييس. ولم استعد مشاعري الطبيعية منــذ أن أخبرتنــي بــذلك. ويجب أن أعرف الحقيقة.

قلتُ له: تعال معي إلى المكتب ؟

ــ أين المكتب؟

قلتُ : في المرحاض.

ورجعنا وجلسنا إلى الطاولة، وقلت له:

ــ إنك طبيعي تماما. أنت على ما يرام وليس من عيب فيك. انظر إلى نفسك من الأعلى وستبدو قصيراً. اذهب إلــى متحــف

اللوفر وألقِ نظرة على تماثيل الرجال ثم اذهب إلى منزلك وانظر إلى نفسك في المرآة.

ـــ قد لا تكون تلك التماثيل مضبوطة.

ـــ بلى، إنها جيدة. ومعظم الناس تتّفق عليها..."

ويخرج القارئ من هذا الحوار بانطباع مفاده أن سكوت فتزجيرالد كان أقرب إلى أبله أو مغفّل وليس بذلك الروائيّ العبقريّ الذي كانت شركات هوليوود الأمريكية تتهافت على تحويل رواياته إلى أشرطة سينمائية رائعة.

ويستطيع همنجواي أن يسترسل صفحة بعد صفحة بسخرية وتهكّمٍ مضحكين وفي الوقت نفسه يصنع فكراً وفناً وتاريخاً. وقد لا يوفق المترجم في استخدام المفردات والتراكيب المناسبة للأسلوب الساخر والقادرة على إثارة الضحك.

ولجميع تلك الأسباب صرفتُ النظر عن ترجمة (الوليمة المتنقلة).

نجاح الترجمة نسبي:

ثم ذهبتُ إلى الولايات المتحدة الأمريكية للدراسة. وتعمّقت في دراسة أعمال الأدباء الذين تحدّث عنهم همنجواي في كتابه الوليمة المتنقّلة: عزرا باوند وتي أس إليوت وسكوت فتزجيرالد وغيرتيتيود شتاين وجيمس جويس وفورد مادوكس فورد ووندهام لويس وغيرهم. كما درست نظريات الترجمة والمعجميّة. وبعد سنوات ذهبت إلى باريس لدراسة اللغة الفرنسية في السوربون.

واطلعت على الترجمة الفرنسية لكتاب (الوليمة المتنقلة) التي اختار لها المترجم الفرنسي (أو ربما الناشر) عنواناً يختلف قليلاً عن العنوان الأصليّ ولكنه يتفق مع مضمون الكتاب، ومعنى العنوان الفرنسي (باريس عيد).

وفي باريس سكنت في شقة تقع في شارع كاردنال لوموان الذي سكن فيه همنجواي، وكنت أتنزه على رصيف نهر السين الذي تحدث عنه همنجواي وأشتري الكتب من الأكشاك ذاتها، وارتاد المقاهي التي تطل على ساحة سان ميشيل التي كان يرتادها همنجواي. وقمت بزيارات منظّمة لمعالم باريس ومتاحفها ومسارحها ومعارضها ودور أزيائها ومؤسساتها الثقافيّة، فنميت شغفاً خاصاً بباريس الثقافة والفن. وعاودني الحنين لترجمة كتاب همنجواي.

ومما ساعدني على اتخاذ قراري بترجمة الكتاب تطوّر نظرتي لعملية الترجمة. فقد اقتنعت بأنه لا يشترط في المترجم أن يمارس فعلاً الخبرات التي مرّت بالمؤلف لتكون ترجمته صادقة، فالصدق صدقان صدق واقعي وصدق فني. وحتى المؤلف نفسه قد يتحدّث عن أمور من المتخيل وليس من الواقعي، فيصوّر أحداثا لم تقع وتجارب لم يخبرها وأحاسيس لم تخالجه، ومع ذلك يحقق نجاحا إذا توفرت له مخيلة مبدعة وتحلّى بالصدق الفني. أما إدراك مفاهيم المصطلحات التقنية المتعلّقة بهوايات المؤلف كسباقات الخيول والدراجات النارية والتزلج والقمار، فبإمكان المترجم أن يرجع إلى المعاجم المختصة والموسوعات والكتب

المتخصصة في تلك الهوايات ليفهم الكيفية التي تجري بها ما يعينه على فهم أعمق للنصوص التي تدور حولها.

وتطوّرَ مفهوم الأمانة في الترجمة لديّ بحيث لم تعد المطابقة التامة بين النص الأصلي والنص المترجم، لأنه لا توجد مطلقاً مطابقة تامة بين أي لغتين من اللغات مهما كانت درجة القرابة بينهما ومهما بلغ التشابه بين بنيتيهما وأساليبهما. ولهذا فالترجمة الكاملة غير موجودة بتاتاً، فكل ترجمة يشوبها القصور، ونجاح أي ترجمة هو نجاح نسبي. وطبعاً يتفاوت المترجمون في قدراتهم وخبراتهم فتتفاوت ترجماتهم من حيث النجاح. أما الأمانة في الترجمة فتعني أن المترجم لا يقفز على العبارات الصعبة فيبترها ولا يضيف كلاما لم يرد في النص الأصلي إلا ما يقتضيه التوضيح.

ومع ذلك، وقبل أن أشرع في ترجمة كتاب *(الوليمة المتنقلة)*، أمضيت أنا وابنتي علياء عطلتنا ذلك الصيف في باريس وأقمنا في شقة في شارع الكاردينال لوموان وأخذنا نتنزه في باريس متتبعين مسار همنجواى نفسه، ومسترشدين بكتابه بنسختيه الإنجليزية والفرنسية، مارين بكل الأماكن والمقاهي والمطاعم التي كان يرتادها همنجواى والتي ما زالت تحتفظ بأسمائها. ولكننا عندما وصلنا إلى البناية رقم ١٢ في شارع الأوديون لم نجد مكتبة شركة شكسبير وهي مكتبة لبيع الكتب الإنجليزية وإعارتها أو مطالعتها فيها، وكان همنجواى يستعير الكتب منها كما كان يقترض بعض النقود من صاحبتها الحسناء سلفيا بيتش عندما يتأخر وصول حقوق التأليف إليه. وقيل لنا أن المكتبة تلك قد

أغلقت وأن شركة أخرى قد أنشئت في الحي اللاتيني علـــى رصـــيف السين واتخذت الاسم نفسه تكريماً للشركة الأولى، فذهبنا إلـــى هنـــاك للاطلاع على الطبعات المختلفة لكتاب (*الوليمة المتنقّلة*).(*)

(*) الأسماء التي توضع عليها هذه العلامة (*) توجــد كتابتهـــا بـــالحروف اللاتينية في آخر الكتاب. (المترجم)

ملاحظة

بدأ إرنست همنجواى في تأليف هذا الكتاب في كوبا في خريف سنة ١٩٥٧، وواصل العمل فيه ببلدة كيتشوم في ولاية إداهو الأمريكية من شتاء ١٩٥٨ إلى سنة ١٩٥٩، وأخذه معه إلى إسبانيا عندما ذهب إلى هناك في أبريل عام ١٩٥٩، وأعاده معه إلى كوبا ثم إلى كيتشوم في أواخر خريف ذلك العام. وأنهى الكتاب في ربيع سنة ١٩٦٠ في كوبا، بعد أن وضعه جانباً مدة من الزمن ليكتب كتاباً آخر بعنوان: " الصيف الخطير " يدور على المنافسة العنيفة بين أنطونيو أودونز ولويس ميجيل دومنجين في حلقات مصارعة الثيران في إسبانيا عام ١٩٥٩. وأجرى بعض التعديلات على كتاب " الوليمة المتنقلة " في خريف عام ١٩٦٠ في كيتشوم. ويتناول هذا الكتاب حياة همنجواى في باريس من سنة ١٩٢١ إلى سنة ١٩٢٦

م. هـ.

مقدمة المؤلِّف

لأسباب خاصة بالمؤلِّف، أُغفل كثير من الأماكن، والأشخاص، والملاحظات، والانطباعات في هذا الكتاب. بعضها كان من الأسرار، وبعضها الآخر كان معروفاً للجميع، وكتب وسيكتب عنه كثيرون.

لم يُذكر في هذا الكتاب ملعب أنستاسي حيث كان الملاكمون يعملون نُدُلاً كذلك، وحيث كانت الطاولات توضع تحت الأشجار، وحلقة الملاكمة في الحديقة. ولم يُذكر فيه التدريب مع لاري غينز، ولا جولات الملاكمة الرهيبة في سيرك الشتاء، ولا الأصدقاء الطيبون مثل شارلي سويني، وبيل بيرد، ومايك ستراتر؛ ولا أندري ماسن وميرو. ولم تُذكر سفراتنا إلى الغابة السوداء، ولا نزهاتنا الاستكشافية للغابة القريبة من باريس التي استغرقت يوماً كاملاً والتي أحببناها كثيراً. كان من الممتع لو ضمَّ هذا الكتاب جميع تلك الذكريات، ولكن اضطررنا للتخلي عنها في الوقت الحاضر.

وللقارئ أن يعدّ هذا الكتاب من باب السرد الخيالي، إذا أراد ذلك. ولكن، ثمة احتمال دائم أن هذا الكتاب السردي قد يلقي ضوءاً كاشفاً على الحقيقة والواقع.

إرنست همنجواى

سان فرانسيسكو دي بلولا، كوبا ١٩٦٠

وليمة متنقلة

إذا واتاك الحظ بما فيه الكفاية لتعيش في باريس وأنت شاب، فإن ذكراها ستبقى معك أينما ذهبت طوال حياتك، لأن باريس وليمة متنقلة.

إرنست همنجواى

من رسالة إلى صديق عام ١٩٥٠

١

مقهى جيد في ساحة سان ميشيل

صار الطقس رديئاً آنذاك. حدث التغيّر في يوم واحد فقط بعد انصرام فصل الخريف. وكان علينا أن نوصد النوافذ ليلاً في وجه المطر، وأخذت ريح صرصر تعرّي الأشجار من أوراقها في ساحة كونتراسكارب*. وتبعثرت أوراق الأشجار المخضلة بالمطر، وساقت الريح المطر صوب الحافلة الخضراء الجاثمة في المحطة، وغصّ مقهى الهواة* بروّاده، وغُطّيت شبابيكه بالضباب نتيجة الحرارة والدخان في داخله. وهو مقهى كئيب سيئ السمعة كان يتجمع فيه سكّيرو الحي، وكنت أتحاشاه بسبب رائحة الأجساد القذرة ورائحة السكر الكريهة. ويظل الرجال والنساء الذين يرتادون مقهى الهواة مخمورين طوال الوقت، أو طوال الوقت الذي يستطيعون، وفي الغالب بخمر يشترونه باللتر أو نصف اللتر. وتضم قائمة مشروبات المقهى أسماء مشروبات غريبة غالية لا يتمكن من شرائها إلا قليل من الناس ليجعلوا منها أساساً لمشروبات أخرى. وتدعى النساء المخمورات باللغة الفرنسية poivrottes.

كان مقهى الهواة بالوعة شارع موفتار*، ذلك السوق الضيق المزدحم الرائع الذي يقود إلى ساحة كونتراإسكارب. وكان لبنايات الشقق القديمة مراحيض، مرحاض واحد لكل طابق بجانب السلّم الذي ينتهي بحافة مرتفعة على شكل حذاء عند مدخل الطابق لئلا ينزلق النزلاء. وكانت تلك المراحيض تصب في البالوعات التي تفرّغ بضخ محتوياتها في عربات صهريج تجرها الخيول في الليل. وفي فصل الصيف، عندما تكون النوافذ مفتوحة، كنا نسمع الضخ وتزكم أنوفنا رائحة نفّاذه. وكانت عربات الصهريج تلك مطلية بلون بنيّ وزعفراني. وعندما كانت تلك العربات تمر في شارع الكاردنال لوموان* تبدو أسطواناتها التي تجرّها الخيول مثل لوحات الرسام براك.* أما مقهى الهواة* فلم يتولّ أحد تفريغه، وأمسى ملصقه المصفرّ، الذي يبين الشروط والعقوبات بحق السكر العلني، باطلاً ملغياً؛ لأن رواده مستقرون فيه دائماً وتفوح منهم رائحة كريهة.

فجأة حلّ كل حزن المدينة مع أول أمطار الشتاء الباردة، ولم نعد نرى سطوح البنايات العالية البيضاء عندما كنا نسير، ولم يبق سوى سواد الشوارع المبتلّ، وأبواب الحوانيت الصغيرة الموصدة، وحوانيت العشابين، والقرطاسية، والجرائد، ودكان قابلة ـ من الدرجة الثانية ـ، والفندق الذي لفظ فيه الشاعر فرلين* أنفاسه الأخيرة والذي استأجرت فيه غرفة في الطابق العلوي لعملي.

كان عليّ أن أرتقي ستة أو ثمانية طوابق لبلوغ غرفتي في الطابق العلوي من الفندق، وكان الجو بارداً جداً، وكنت أعرف كم

يكلفني شراء حزمة من خشب الوقيد، وثلاث حزم من أصابع خشب الصنوبر القصيرة التي لا يزيد طولها على نصف قلم لتقبس النار من الوقيد، ثم حزمة من الخشب الصلب الطويل نصف الجاف اللازم لإشعال نار بمقدورها تدفئة الغرفة. ولهذا فقد سرتُ إلى الجانب الأقصى من الشارع لأصوّب نظري إلى السقوف وأرى إذا كانت ثمة مداخن موقدة، وكيف يرتفع دخانها. لم يكن هناك دخان، وفكّرت في برودة المدخنة في غرفتي، واحتمال عدم نفثها الدخان، وامتلاء الغرفة به، وضياع الخشب، وذهاب النقود معه؛ فواصلت سيري تحت المطر. وانحدرتُ ماراً بمدرسة هنري كواتريه الثانوية وكنيسة سان إتيان دو مون العتيقة، وساحة البانثيون* التي كانت تعصف بها الريح العاتية، واتجهت إلى الجهة اليمنى اتقاء العاصفة، وأخيرا تحولتُ إلى الجانب المحجوب عن الريح من شارع سان ميشيل، وواصلت سيري ماراً بكلوني وشارع سان جرمان، حتى بلغت مقهى جيّداً أعرفه يقع على ميدان سان ميشيل.

كان مقهى لطيفاً، دافئاً ونظيفاً؛ وعلقت معطفي المطري القديم على المشجب ليجف، ووضعت قبعتي المبلّلة المهترئة على الرف فوق المصطبة، وطلبت قهوة بالحليب. جلبها النادل، وأخرجت دفتراً من جيب سترتي وقلماً وشرعت بالكتابة. كنت أكتب قصة تجري أحداثها في ميشغان*، ولما كان ذلك اليوم بارداً عاصفاً عنيفاً، فقد كان الطقس في القصة مماثلاً له. كنت قد شهدت نهاية فصل الخريف في طفولتي وفتوتي وشبابي، ولكن بإمكان المرء

أن يكتب بشكل أفضل في مكان دون غيره. وهذا ما يسمى بالازدراع ــ على ما أظن ــ فأنت تنقل نفسك من مكان إلى آخر، ويمكن أن يكون هذا الانتقال ضرورياً للناس كما هو الشأن بالنسبة للكائنات الحية الأخرى. كان الفتيان في القصة يشربون وهذا ما جعلني أشعر بالعطش أنا الآخر، فطلبت شراب الرّم سانت جيمس. فكان له مذاق رائع في ذلك البرد، وواصلت الكتابة، وداخلني إحساس لذيذ وشعرت بشراب الرَّم المارتيني يدفئ جسمي كله وروحي.

دخلتْ فتاة المقهى وجلست وحدها إلى طاولة قرب النافذة. كانت جميلة جداً ولها وجه عذب طري يتألق مثل قطعة نقد ضُربت حديثاً، إذا كانوا يضربون النقود من بشرة ناعمة نضّرها المطر؛ وكان شعرها أسود مثل جناح غراب، ومقصوصاً بشكل مائل حاد على خدّها.

نظرتُ إليها فشوشتني وأثارتني كثيراً. وتمنيت لو أستطيع أن أضعها في القصة، أو في أي مكان آخر، ولكنها وضعت نفسها حيث يمكنها أن تراقب الشارع والمدخل، فعرفتُ أنها في انتظار شخص ما. ولهذا فقد واصلتُ الكتابة.

كانت القصة تكتب نفسها، وكنت أجد صعوبة في مجاراتها. فطلبتُ شراب رمّ سان جيمس آخر، وأخذت أراقب الفتاة كلما رفعتُ رأسي، أو عندما كنت أبري القلم الذي كانت تتجمّع رقاقاته الملتوية في الصحن تحت كأسي.

ثم عدت إلى الكتابة، وأوغلت بعيداً في القصة وتهت فيهـــا. وصرت أكتبها وما عادت تكتب نفسها، ولم أرفع رأســـي ، ولـــم أعرف شيئا عن الوقت، ولم أدرِ أين كنت، ولم أطلـــب رمّ ســـان جيمس آخر. فقد مللت رمّ سان جيمس دون أن أفكر في ذلك. ثـــم انتهت القصة وشعرت بتعب شديد. قرأت الفقـــرة الأخيـــرة، ثـــم رفعت رأسي وجالت عيناي بحثا عن الفتاة فلم تكن هناك. وقلـــت في نفسي آمل أنها ذهبت مع رجل كريم. ولكنني شعرت بالحزن.

أغلقت الدفتر على القصة ووضعته فـــي جيبـــي الـــداخلي، وطلبت من النادل أن يجلب لي اثنتي عشرة محارة من المحارات البرتغالية ونصف غرافة من النبيذ الأبيض الموجود لديهم. فبعـــد كتابة كل قصة كنت أشعر بالجوع، ويداخلني إحـــساس بـــالحزن والسعادة في آن واحد، كما لو كنت قد مارست الجـــنس، وكنـــت متأكداً من أن تلك القصة جيدة جداً على الرغم من أنني لـــم أكـــن أعرف حقاً مدى جودتها حتى أقرأها مرة أخرى في اليوم التالي.

وبعد أن أكلت المحارات المفعمة بمذاق البحر القويّ وبطعمها المعدنيّ الخفيف الذي أتى عليه النبيذ الأبيض البـــارد، وبعـــد أن شربت السائل البارد من كل محارة وأزلت أثـــره بمـــذاق النبيـــذ المنعش، زال عني الشعور بالجوع، وأخـــذت أحـــس بالـــسعادة، فرحت أخطّط للغد.

الآن وقد حلّ الطقس الرديء، يمكننا أن نغادر باريس لفتـــرة قصيرة إلى مكان يتحول فيه هذا المطر إلى ثلج يتساقط مخترقـــاً أشجار الصنوبر فيغطي الطرقات والتلال، وعلى ارتفـــاع نـــسمع

معه الجليد وهو يتكسر تحت وقع أقدامنا ونحن عائدون إلى المنزل ليلاً؛ فَتحْتَ قمة لزأفان* يوجد فندق عائلي رائع في شاليه، وسنكون معاً برفقة كتبنا، وفي الليل سنتدفأ في الفراش معاً، والشبابيك مشرعة والنجوم لامعة. هذا هو المكان الذي يمكن أن نذهب إليه. والسفر في الدرجة الثانية بالقطار ليس غالياً. ولا تكلف الإقامة في الفندق العائلي إلا أكثر بقليل مما ننفقه في باريس.

سأتخلى عن الغرفة التي أستأجرها في الفندق بباريس لمزاولة الكتابة، وسيبقى عليّ فقط كراء الشقة الواقعة في البناية رقم ٧٤ في شارع كاردينال لوموان*، وهو كراء ضئيل. ولقد كتبت تحقيقات صحفيّة لتورنتو، والشيكات لقاء ذلك مستحقة الأداء. وأستطيع أن أكتب في أي ظرف آخر ولدينا من المال ما يكفي للقيام بالرحلة.

وقد أستطيع وأنا بعيد عن باريس أن أكتب عن باريس، كما استطعت في باريس أن أكتب عن مشيغان*. ولم أدرك آنذاك أن الوقت مبكر للكتابة عن باريس؛ لأنني لم أكن أعرفها بما فيه الكفاية. ولكن ذلك ما حدث في نهاية المطاف. وعلى كل حال، سنذهب إذا أرادت زوجتي الذهاب، وأتيت على المحارات والنبيذ، ودفعت الحساب في المقهى، وعدت إلى الشقّة الواقعة في أعلى التل، سالكاً أقصر الطرق ماراً على مونتين سانت جنفييف* تحت المطر الذي أصبح الآن مجرد طقس محلي وليس شيئاً يغيّر حياتك.

قالت زوجتي: « أعتقد أن ذلك سيكون رائعاً حقاً، يا ناتي. ». وكان لها وجه لطيف، وتزداد عيناها وابتسامتها بريقاً لدى اتخـاذ قرارات ما كما لو كانت تلك القرارات هدايا غالية.

ــ " متى سنغادر؟ " ــ « متى ما شئتِ. »

ــ " آه أريد السفر حالاً. ألا تعرف ذلك؟"

ــ " ربما سيكون الطقس رائقاً وصحواً عندما نعود، فـالجو يغدو جميلاً جداً عندما يكون صحواً وبارداً. »

قالت: " إني متأكدة من ذلك. أليس جميلاً منك أن تفكر فـي السفر كذلك."

٢

توجيهات الآنسة شتاين

عندما عدنا إلى باريس، كان الجوّ صحواً وبارداً ورائقاً. فالمدينة تكيّفت مع فصل الشتاء، وتوفّرَ خشب جيّد للبيع في محل الفحم والأخشاب الكائن عبر شارعنا، وثمة مجمرات خارج العديد من المقاهي الجيدة كيما يتمتّع الروّاد بالدفء في شرفاتها. وكانت شقتنا دافئة وبهيجة. وكنا نلقي في نار الخشب كرات من تراب الفحم رُصّت في كتل شبيهة بالبيض. وكان ضوء الشتاء الساقط على الشوارع جميلاً وأخّاذاً. ولقد تعوّدت الآن على رؤية الأشجار العارية تحت السماء، ، وأنت تمشي في حدائق لكسمبورغ* على ممرات مرصوفة بالحصى غسلها المطر وسط ريح حادة صافية. وعندما تعتاد على رؤية الأشجار تبدو لك مثل منحوتات بلا أوراق، وتهب رياح الشتاء على سطوح البرك والنافورات تحت الضوء اللامع. وصارت جميع المسافات قصيرة منذ أن ذهبنا إلى الجبال.

وبسبب التغيّر في الارتفاع لم يعد صعود التلال في باريس يضايقني، بل أصبح متعة، وصار ارتقاء السلّم إلى الطابق العلويّ في الفندق، حيث أعمل في غرفة تَطلّ على سطوح ومداخن الحيّ

الواقع على التل، ممتعاً كذلك. وكانت المدفأة تنفث الدخان بصورة جيّدة، والغرفة دافئة، والعمل سارّ. وكنت أجلب معـــي المنــدرين والكستناء المحمصة إلى الغرفة في أكياس ورقية، وأقشّر وآكـل برتقالات صغيرة شبيهة بالمندرين، وأرمي قشورها وبذورها فـــي النار، وأشوي الكستناء عندما أجوع. فأنا أشعر دائما بالجوع بعدما أمشي أو أعمل أو عندما يكون الطقس بارداً. وكنت أحـتفظ فـــي غرفتي بقنينة من ماء الكرز جلبناها معنا من الجبـــال، وأتنـــاول كأساً منه عندما أقارب نهاية قصة أو قبيل آخر عمل ذلك اليـــوم. وحين أنتهي من العمل أضع دفتري، أو الورق، في مجرّ المنضدة وأضع ما تبقى من المندرين في جيبي، وإلا فإنه سيتجمد إن تركته في الغرفة ليلاً.

كان يخالجني إحساس رائع وأنا أمشي نازلاً الـــسلّم بعـــد أن يحالفني الحظّ في العمل. كنت دائماً أواصل العمل حتى أتمّ شـــيئاً ما وكنت أتوقّف عندما أعرف ما الذي سيجري بعـــد ذلـــك فـــي القصّة. وبتلك الطريقة أتأكد من استمراري في العمل فـــي اليـــوم التالي. ولكن يحدث أحياناً أن أشرع في كتابة قصة ما ولا أتمكـــن من التقدم فيها، فكنت أجلس أمام النار وأعصر قشور البرتقـــالات الصغيرة على أطراف اللهب وأشاهد الرذاذ الأزرق الذي تخلّفـــه. وأنتصب وأحدق في سطوح باريس، وأقول لنفسي: " لا تقلق، لقد كنت تكتب دوماً من قبل وستكتب الآن، كل ما عليك أن تفعله هو أن تكتب جملة حقيقية واحدة. اكتب أصدق جملة تعرفها." وهكـــذا أتمكن أخيراً من كتابة جملة حقيقية واحدة، ثم أواصل من هنـــاك.

لقد كان ذلك أمراً ميسوراً؛ لأن هنالك دائماً جملة حقيقية أعرفها أو رأيتها أو سمعت شخصاً ما يقولها. وإذا بدأتُ الكتابة بتكلّف أو كمن يمهّد لتقديم شيء ما، شعرت بأن عليّ أن أحذف الزخرفات والمقدمات والالتواءات اللفظية، وأرمي بها بعيدا لأبدأ بأول جملة خبرية حقيقية بسيطة كتبتها. وفي تلك الغرفة في الطابق العلوي من الفندق، عقدت العزم على أن أكتب قصة عن كل شيء أعرفه. وكنت أحاول أن أفعل ذلك طوال الوقت الذي مارست فيه الكتابة. وهو تدريب جيد وقاس في الوقت نفسه.

وفي تلك الغرفة أيضا تعلّمتُ ألا أفكر في أي شيء أكتب عنه ابتداء من اللحظة التي أتوقّف فيها عن الكتابة إلى الوقت الذي أستأنفها فيه في اليوم التالي. وبتلك الطريقة يُتاح لشعوري الباطني أن يعمل عليه، وفي الوقت ذاته أستطيع أن أستمع إلى الآخرين وأراقب كل شيء. كنت آمل أن أتعلّم، فأخذت أقرأ حتى لا أظل أفكر في عملي، وأجعل من نفسي عاجزاً عن القيام به. كان يخالجني إحساس رائع عند نزول السلّم بعد أن أنجز عملاً جيّداً، وهذا يتطلّب الحظّ والانضباط كذلك، فأشعر بأنني طليق أستطيع أن أمشي حينئذ أينما شئت في باريس.

كنت أسلك في كل مرّة طريقاً مختلفاً للوصول إلى حديقة لكسمبورغ، فأتمشى فيها قليلاً ثم أذهب إلى متحف لكسمبورغ الذي يضم لوحات فنية عظيمة، نُقل معظمها الآن إلى متحفي اللوفر* وجي دي بوم*. ذهبت إلى ذلك المتحف يومياً تقريباً لأرى لوحات سيزان* وماني* ومونيه* وبقية الانطباعيين الذين

تعرّفت عليهم لأول مرة في معهد الفن في شيكاغو. تعلّمت من رسم سيزان أشياء عديدة مكنتني من الاكتفاء بكتابة عبارات بسيطة حقيقية لتضمين قصصي الأبعاد التي أتوخاها. تعلّمت منه كثيراً، ولكنني لم أكن بليغاً بالقدر الذي يتيح لي تبيان ذلك للآخرين. إضافة إلى أن ذلك سرّ لم أرد البوح به. وعندما يختفي الضوء في لكسمبورغ ، فإنني أسير مخترقاً الحديقة وأتوقّف عند الشقّة التي كانت تقطنها غرترود شتاين في العمارة رقم ٢٧ في شارع فليروس*.

زرت وزوجتي الآنسة شتاين، واستقبلتنا هي وصديقتها التي تعيش معها بكثير من الترحيب والمودّة، وراقت لنا الشقّة الواسعة بلوحاتها العظيمة. كانت أشبه ما تكون بواحدة من أفخر الصالات في أفخم متحف وتمتاز عليها بموقد كبير وبكونها دافئة ومريحة؛ وأعطتانا طعاماً شهيّاً لنأكل وشاياً ومشروبات مقطّرة بصورة طبيعية من البرقوق الأرجواني والبرقوق الأصفر، أو من الفراولة البرية. وكانت هذه المشروبات الكحولية تدار علينا من أباريق زجاجية في كؤوس صغيرة؛ وسواء أكانت هذه المشروبات من الإجّاص، أو الجانرك، أو التوت، فإن لها جميعاً طعم الفاكهة التي صُنعت منها، وتتحول على لسانك إلى نار منضبطة فتدفئك وتجعلك مسترخياً.

كانت الآنسة شتاين ضخمة ولكنها ليست طويلة، وممتلئة الجسم كامرأة فلاح. ولها عينان جميلتان ووجهٌ يهودي ــ ألماني قويّ ويمكن أن يكون كذلك وجه امرأة من فريولانو*، وذكّرتني

هيئتها بامرأة قروية من شمال إيطاليا، بملابسها ووجهها الحيوي وشعرها الغزير الأسود الذي تصففه بالطريقة نفسها منذ أن كانت في المدرسة. وكانت تتكلم طوال الوقت، وتبدأ بالحديث عن الناس والأماكن.

وكانت رفيقتها صغيرة الجسم وغامقة السمرة، وصوتها سار جداً، وشعرها مقصوص على غرار شعر جان دارك*، كما تظهر في رسوم بوته دي مونفل*، ولها أنف معقوف. وكانت منهمكة في تطريز قطعة قماش بين يديها عندما زرناهما أول مرة. وعند زيارتنا الأولى كانت تطرز شيئاً وتهتّم بتقديم الأكل والشراب وتتحدّث إلى زوجتي. تشارك في محادثة وتنصت إلى أخرى، وغالباً ما تقاطع المحادثة التي لا تشارك فيها. وأخبرتني فيما بعد أنها تتحدث دائما مع الزوجات. وشعرت أنا وزوجتي أن الزوجات يمكن احتمالهن. غير أننا أحببنا الآنسة شتاين وصديقتها، على الرغم من أن صديقتها كانت مخيفة الطلعة. وكانت اللوحات والكعك والنبيذ جميعاً فاخرة بحق. وبدا على شتاين وصديقتها أنهما أحبتانا كذلك وعاملتانا كما لو كنا طفلين طيّبين مؤدّبين واعدين، وشعرت أنهما سامحتانا على حبنا وزواجنا ــ والزمن كفيل بذلك ــ وقبلنا دعوة زوجتي لهما لتناول الشاي معنا.

وعندما جاءتا إلى شقتنا بدا عليهما أنهما أحبتانا أكثر، وربما يعود ذلك إلى أن المكان صغير ونحن أقرب إلى بعضنا البعض. جلست الآنسة شتاين على الفراش المبسوط على الأرض، وطلبت

أن ترى القصص التي كتبتُها وقالت إنها أعجبتها ما عدا واحدة بعنوان (هنالك في مشيغان*).

وقالت: " إنها جيدة. ليست هذه هي المسألة على الإطلاق، ولكن لا يمكن تعليقها inaccrochable. وهذا يعني أنها مثل لوحة يرسمها الفنان بَيد أنه لا يستطيع تعليقها عندما يقيم معرضاً، ولا يشتريها أحد لأنه لا يمكنه تعليقها هو الآخر."

ـ " ولكن ماذا لو لم تكن قذرة، وإنما كنت أحاول فقط أن أستعمل فيها الكلمات التي يستعملها الناس فعلاً؟ إنها الكلمات الوحيدة التي تستطيع أن تجعل من القصة حقيقية وينبغي استعمالها؟ بل يجب استعمالها."

ـ " إنك لم تفهم المقصود بتاتاً." أجابت " يجب أن لا تكتب أي شيء لا يمكن تعليقه. إنه خطأ، وإنه لأمر سخيف."

وأخبرتني أنها تريد أن تنشر بعض نتاجها في مجلة (أتلنتيك الشهرية)*، وستنشره المجلة. وأعلمتني أنني لم أكن كاتباً جيدا بما فيه الكفاية لينشر إنتاجي في تلك المجلة أو في جريدة (ذي سَتردي إيفننغ بوست)* ولكن ربما كنت كاتباً جديداً نوعا ما على طريقتي الخاصة، غير أن أول شيء ينبغي أن أتذكّره هو ألا أكتب قصصاً لا يمكن تعليقها. ولم أجادلها في ذلك، ولم أحاول أن أشرح لها ما الذي كنت أحاول أن أفعله بشأن الحوار في قصصي. لقد كان ذلك من شأني، والإنصات إليها أكثر إمتاعاً. وأخبرتنا عصر ذلك اليوم كذلك كيف نشتري اللوحات الفنية.

قالت: " بإمكانك أن تشتري إما الملابس وإما اللوحـــات. إن الأمر بهذه البساطة. وليس هنالك رجل ليس غنيـــاً بمقـــدوره أن يشتريِ الاثنين معاً. لا تهتما بثيابكما، ولا توجهـــا عنايـــة إلـــى الموضة مطلقاً، واشتريا ملابسكما للراحة والديمومة، وســـتوفران مال الملابس لشراء الصور."

وقلت " حتى لو لم أشترِ ملابس أخرى بـــالمرة، فـــإنني لا أتمكن من شراء لوحات بيكاسو * التي أريد."

ـــ " لا، إنه خارج نطاق إمكاناتك. يتحتم عليـــك أن تـــشتري لوحات الرسامين الذين هم في مثل سنك ـــ من دفعتك في الخدمة العسكريةـــ وستعرفهم. ستقابلهم في الحي. هنالك دائماً رســـامون جدد جيدون. ولكن لا تشترِ كثيراً من الملابس. إنها زوجتك دائماً. فملابس النساء هي الغالية."

ولمحت زوجتي وهي تحاول أن لا تنظـــر إلـــى الملابـــس الغريبة الرخيصة التي كانت ترتديها الآنسة شتاين، وقـــد نجحـــت في محاولتها. وعندما غادرنا شعرت أننا ما زلنا مـــن المفـــضَّلين لديهما، إذ طلبتا منا أن نأتي ثانية إلى ٢٧ شارع فليروس.

أما دعوتها لي لزيارتها في شقتها بعد الساعة الخامسة فـــي وقت الشتاء في أي يوم أشاء فقد جاءت بعد ذلك اللقـــاء بفتـــرة. حدث ذلك حين التقيت الآنسة شتاين في حديقـــة لكـــسمبورغ، ولا أستطيع أن أتذكر إذا كانت تُمشّي كلبها أو لا، ولا أذكر إذا كـــان لها كلب آنذاك. وما أذكره على وجه التأكيد، أنني كنـــت أُمـــشّي نفسي، ما دمنا لا نستطيع في ذلك الوقت شراء كلـــب ولا حتـــى

قطّة؛ والقطط الوحيدة التي كنت أعرفها هي قطط المقاهي والمطاعم الصغيرة، أو القطط الكبيرة التي كنت أنظر إليها بإعجاب وهي في شبابيك حارس العمارة. وبعد ذلك كنت غالباً ما ألتقي بالآنسة شتاين مع كلبها في حدائق لكسمبورغ؛ ولكن أظن أن لقائي معها هذه المرة كان قبل أن تقتني كلباً.

بيد أني قبلت دعوتها، مع كلب كانت أو بدون كلب؛ وأخذتُ أمرّ عليها في شقتها، وكانت تعطيني دائماً نبيذ ماء الحياة، وتلّح في إعادة ملء كأسي، وكنت أنظر إلى لوحاتها ونتحدث. كانت اللوحات مثيرة، والحديث شيّقاً جداً. كانت هي التي تتكلم في الغالب، وحدّثتني عن الفن الحديث وعن الرسامين ـ بوصفهم بشراً أكثر من كونهم رسامين ـ وتحدثتْ عن عملها. وأطلعتني على المجلدات العديدة لمخطوطة كتبتْها وتقوم رفيقتها بطباعتها كل يوم. وقالت إن الكتابة يومياً تجعلها سعيدة، ولكن عندما عرفتها بشكل أفضل تبيّن لي أن ما يسعدها حقاً هو نشر نتاجها الذي يتباين من يوم لآخر تبعاً لنشاطها، وحصولها على اعتراف الآخرين بها.

لم يتفاقم الأمر بعد عندما عرفتها أول مرة، ما دامت قد نشرت ثلاثاً من قصصها وكانت مفهومة لجميع القراء. وإحدى هذه القصص وعنوانها (ملانكثا)* كانت جيّدة جداً؛ ونشرت نماذج جيدة من كتاباتها التجريبية في كتاب، وأثنى عليها النقاد الذين التقوا بها أو عرفوها. كانت لها شخصية لا تقاوم بحيث يمكنها إذا شاءت أن تكسب أيّ شخص إلى صفّها. وكان النقّاد الذين التقوا

بها ورأوا لوحاتها قد وثقوا بكتاباتهـــا وإن لـــم يفهموهـــا بـــسبب حماستهم لها كشخص، وبسبب ثقتهم في حصافتها. وكانـــت قـــد اكتشفت عدة حقائق عن الإيقـــاع واســـتعمال الكلمـــات بـــصورة متكررة، وهي اكتشافات قيّمة، وكانت تحسن الحديث عنها.

ولكنها كانت تكره بذل الجهد في مراجعة ما تكتـــب وجعلـــه مفهوماً، على الرغم من حاجتها لنشر نتاجهـــا والإقبـــال عليـــه، خاصّة كتابها الطويل بصورة لا تُصدّق والموســـوم بـــــ (صـــنع الأمريكان)*.

بدأ هذا الكتاب بصورة فاخرة، واستمر بشكل جيـــد لمـــسافة طويلة، مُرصّعاً بمقطوعات عظيمة من النثر المتألّق الجميل، ثـــم سقط في تكرار ممل لا نهاية له، كان أحرى بكاتب آخـــر أكثـــر إحساساً أن يلقي به في سلة المهملات. وتعرّفت على الكتاب جيداً عندما دعوت ــ أو بالأحرى دُفعت إلى دعوة ــ فورد مـــادوكس فورد* إلى نشره مسلسلاً في مجلة (ذي ترانس أتلانتيك رفيو)*، وكنت أعلم أنه سيتعدّى حياة المجلة. ولكي ينشر هذا الكتاب فـــي المجلة، كان عليّ أن أقرأ مسوداته وأصحّحها، لأن هذا النوع من العمل لا يبعث السرور في نفس الآنسة شتاين.

وفي هذا المساء البارد وبعد أن مـــررت بمـــسكن حـــارس العمارة وفنائها البارد في طريقي إلى الشقة الدافئة، أخذت الآنـــسة شتاين تثقفني في الجنس، فقد أصبحنا في ذلك الوقت نودّ بعـــضنا كثيراً؛ وكنت قد تعلمت أن لكل شيء لم أفهمـــه ســـبباً ذا صـــلة محتملة بالجنس. كانت الآنسة شتاين تظن أن ثقافتي الجنسية ليست

كافية، وعليّ أن أعترف بأنني متحيز ضد المثلية الجنسية (اللواط) ما دمت لا أعرف عنها إلا جوانبها الأكثر بدائيــة. كنــت أدرك آنذاك لماذا يحمل الفتي سكيناً وهو عازم على اســتعمالها عنــدما يكون في صحبة غانيات في تلك الأيام التي لم تكن فيهــا كلمــة (ذئاب) مستعملة في اللغة الدارجة لتدل على الرجال المهووســين بملاحقة النساء. وكنت أعرف عدة مصطلحات وتعبيــرات غيــر قابلة للتعليق منذ أيام إقامتي في مدينة كنساس*، كمــا اكتــسبت أشياء إضافية من أحياء مختلفة من تلك المدينة، ومــن شــيكاغو وقوارب البحيرة. وفي أثناء استجواب الآنسة شتاين لي حاولت أن أخبرها أنه عندما تكون فتى بصحبة الرجال يتوجــب عليــك أن تكون مستعداً لقتل رجل ما، وأن تعرف كيف تفعــل ذلــك، وأن تعرف أنك ستفعل ذلك من أجل أن لا يعبثوا بك. وهذا مــصطلح يمكن تعليقه. وإذا كنت تعرف أنك ستقتل، فإن الآخرين سيشعرون بذلك حالاً ويتركونك وشأنك؛ ولكن هناك مواقف معيّنة لا يمكنــك أن تدع نفسك تُجبَر على فعل شيء أو توضع في الفخ. وبإمكــاني أن أعبّر عن أفكاري بصورة أكثر حيوية ووضــوحاً باســتعمال تعبيرات لا يمكن تعليقها كان يستعملها "الــذئاب" علــى قــوارب البحيرة، مثل " هذا لا يكفي ولا بد من مرأب له".بيد أننــي كنــت دائماً حذراً في استعمال لغتي مع الآنسة شتاين، حتى إن اقتــضى الحال استخدام بضعة عبارات حقيقية قادرة على توضيح قــصدي والإعراب بصورة أفضل عن موقفي.

ــ " نعم، نعم، همنجواى،" قالت الانسة شتاين " ولكنك كنــت تعيش في وسط من المجرمين والمنحرفين جنسيا."

لم أرد أن أجادلها في ذلك، على الرغم من اعتقــادي أننــي عشت في العالم كما هو، وفيه جميع أنواع الناس، وبذلت جهــدي لتفهّمهم، مع أني لم استطع أن أحبَّ بعضهم، وما زلت أكره بعضاً منهم.

وسألتها: " ولكن ماذا تقولين عن ذلك الــشيخ ذي الــشمائل اللطيفة والاسم العظيم الذي عادني في المستشفى في إيطاليا وجلب إليّ قنينة مارسالا* أو كمباري*، وتصرّف بشكل لائق، ثم فــي أحد الأيام كان عليّ أن أطلب من الممرضة أن لا تدع ذلك الرجل يدخل غرفتي مرة ثانية بتاتاً؟"

ــ " إن هؤلاء الناس مرضى، وليس في مقدورهم مــساعدة أنفسهم، وينبغي عليك أن تشعر بالشفقة نحوهم."

وسألتها: " وهل عليّ أن أشعر بالشفقة تجاه فلان؟" وذكــرت اسمه، ويسره أن يذكر اسمه بنفسه، بحيث أشعر أنني لست بحاجة لذكره نيابة عنه.

ــ " لا، إنه شرير. إنه مفسد، وهو شرير حقاً."

ــ " ولكن من المفروض أنه كاتب جيد."

قالت: "إنه ليس كذلك." وأضافت: " إنه مجرد استعراضــي، ويفسد الآخرين لمجرد متعة الإفساد، ويدفع الناس إلى ممارســات شريرة كذلك. المخدرات، مثلاً."

ــ "وفي ميلانو*، ألم يحاول الرجل الذي ينبغي عليّ أن أشعر نحوه بالشفقة إفسادي؟"

ــ "لا تكن سخيفاً. كيف يمكنه أن يأمل في إفسادك؟ هل تُفسد فتى مثلك معتاداً على الشراب، بقنينة مارسالا؟ لا، إنه عجوز يُرثى له ولا يستطيع نبذ ما يفعل. لقد كان مريضاً، ولا خيار له في ذلك، وينبغي لك أن تشفق عليه."

قلت: " لقد رثيت له في ذلك الوقت، ولكنني أُصبت بخيبة أمل لأنه كان يتحلى بشمائل لطيفة."

واحتسيت جرعة أخرى من نبيذ ماء الحياة، ورثيت للرجل العجوز، وألقيت نظرة على لوحة بيكاسو للفتاة العارية التي تحمل سلة زهور. لم أكن أنا الذي بدأت المحادثة وشعرت أنها غدت خطيرةَ نوعاً ما. وفي العادة لا تتخلّل المحادثات مع الآنسة شتاين أي فترات استراحة بتاتا، ولكننا هذه المرة توقفنا، وكانت تريد أن تخبرني بأمر ما، فملأتُ كأسي.

ــ " إنك لا تعرف شيئا عن ذلك في الحقيقة ، يا همنجواي. التقيتَ مجرمين معروفين وأناساً مرضى ورجالاً شريرين. المهم في الموضوع هو أن اللواطة الذكورية أمر قبيح وكريه، وبعد اقترافها يشعر الرجال بالاشمئزاز من أنفسهم. فيشربون ويتناولون المخدرات لتسكين آلامهم، ولكنهم يشمئزون من الفعل فيغيّرون دائما شريكهم ولا يمكنهم أن يشعروا بالسعادة حقاً."

ــ " مفهوم."

ـ " بالنسبة للنساء، الأمر على عكس ذلك. لا يفعلن شيئاً يتقززن منه، ولا شيء منفّر، وبعد ذلك يشعرن بالسعادة، ويمكنهن أن يعشن حياة سعيدة معاً."

قلت : " مفهوم. ولكن ماذا عن فلانة؟"

ـ " إنها شريرة حقاً، ولهذا لا يمكنها أبداً أن تكون سعيدة إلا مع رفيقة جديدة كل مرة. إنها تفسد الناس."

ـ " فهمت."

ـ " هل أنت متأكد من أنك تفهم ما أقول؟"

هناك أشياء كثيرة كان عليّ أن أفهمها في تلك الأيام، وسررت عندما أخذنا نتحدث عن موضوع آخر. ولدى عودتي وجدت المنتزه مغلقاً، ولهذا كان عليّ أن أسير محاذاته إلى شارع فوجيرار*، وأستدير حول نهايته السفلى. إنه لمن المحزن أن يكون المنتزه مغلقاً ومقفلاً. وشعرت بالحزن وأنا أسير حوله بدلاً من التمشّي في داخله، وأنا أحثّ الخطى في طريق العودة إلى منزلي الكائن في شارع الكاردنال لوموان*. وكان النهار قد بدأ رائعاً أيضاً، وعليّ أن أعمل بجد غداً. فالعمل يستطيع أن يشفي كل شيء تقريباً. وهذا ما كنت أعتقده آنذاك وما أعتقده الآن. وانتهيت إلى أن الآنسة شتاين تشعر بأن ما يجب عليّ أن أُشفى منه هو الشباب وحبي لزوجتي. وفارقني الشعور بالحزن عندما وصلت إلى منزلي في شارع الكاردنال لوموان وأخبرت زوجتي عن المعرفة الجديدة التي اكتسبتها مؤخراً. وفي الليل كنا سعيدين بمعرفتنا القديمة، وبالمعرفة الجديدة الأخرى التي حصلنا عليها في الجبال.

٣

الجيل الضائع

كان من السهل التعوّد على التوقّف عند ٢٧ شارع فليـــريس عصراً للتمتّع بالدفء ومشاهدة اللوحات العظيمة وتجاذب أطراف الحديث. وغالباً ما كانت الآنسة شتاين بدون ضيوف، وترحّب بي دوماً، وظلّت ودودة معي وقتاً طويلاً. وعندما كنت أعــود مــن السفرات التي أقوم بها لحضور المؤتمرات السياسيّة المتنوعـــة أو لزيارة الشرق الأدنى أو ألمانيا لفائدة الجريدة الكندية، ووكـــالات الأنباء التي كنت أعمل لحسابها، كانت الآنسة شتاين تريـــدني أن أخبرها بجميع التفاصيل المسلّية، فهناك دائماً أمور مضحكة تحبّها وقصص من نوع ما يسمّيه الألمان بـــ "سخرية المشانق". وكانت ترغب في الاطلاع على الوجه الضاحك من العالم، وليس الوجـــه الحقيقيّ، ولا الوجه السيّئ أبداً.

كنت شاباً، ولم أكن كئيباً، وكانت تحدث دائماً أشياء غريبـــة وفكاهية في أسوأ الأوقات وتحب الآنسة شـــتاين ســـماعها. أمـــا الأشياء الأخرى فلم أتحدث عنها إليها بل كنت أكتبها بنفسي.

وعندما لم أكن قد رجعت من رحلة ما، وأتوقف في شـــارع فليريس بعد العمل، أحاول أن أحمل الآنسة شتاين على الكلام عن

الكتب. وحين أكتب فإن من الضروري أن أقرأ بعد الكتابة؛ لأنــك إذا واصلت التفكير في ما تكتب فإنك ستفقد الشيء الــذي تكتــب عنه قبل أن تستطيع الاستمرار فيه في اليوم التالي. ومن الــلازم أن تتريّض بدنياً، وأن ينال التعب من جسدك، وأن تمارس الحــبّ مع من تحب. فذلك أفضل من أي شيء آخر. ولكن بعــد ذلــك ، عندما تكون فارغاً، يجب أن تقرأ لئلا تفكّر في عملــك أو تقلــق عليه، حتى تستطيع القيام به مرة أخرى. كنت قــد تعلّمــت أن لا أنزح بئر كتابتي برمته، بل أتوقف دائماً وفي قعر البئر شيء ما، وأدعه يمتلئ في الليل من الينابيع التي ترفده.

ولكي أنأى بفكري عن الكتابة بعد العمل، كنت أقــرأ أحيانــاً للأدباء الذين يكتبون آنذاك، من أمثال الدوس هكسلي*و د.هــــ. لورنس*، أو أي أديب آخر له كتب منشورة أستطيع اقتناءها مــن مكتبة سلفيا بيتش* أو أعثر عليها على رصــيف شــاطئ نهــر السين.

ــ " هكسلي رجل ميت." قالت الآنسة شتاين " لماذا تريــد أن تقرأ لرجل ميت؟ ألا تستطيع أن ترى أنه ميت؟"

لم أستطع آنذاك أن أعدّه رجلاً ميتاً، وقلــت لهــا إن كتبــه أمتعتني وأبعدتني عن التفكير.

ــ " يجب أن تقرأ ما هو جيّد حقاً، أو ما هو سيّئ صراحة."

ــ " إنني أقرأ كتباً جيدة حقاً طوال هذا الشتاء، وخلال الشتاء الماضي، وسأقرأها في الشتاء القادم، ولا أحــب الكتــب الــسيئة صراحة."

ـ " لماذا تقرأ، يا همنجواى، هذا الكلام الفارغ؟ كلام فـارغ مبالغ فيه كتبه رجل ميت."

ـ " أودّ أن أطلع على ما يكتبون، وهذا يجعل فكري يبتعـد عن تكرار ما يفعلون."

ـ " ولأي كاتب آخر تقرأ الآن؟"

ـ " د. هـ. لورنس، لقد كتب بعـض القـصص القـصيرة الجيدة، وإحداها بعنوان "الضابط البروسي."

ـ " حاولت أن أقرأ رواياته، ولكنه لا يُطاق. إنـه مُحـزن ومناف للطبيعة. يكتب مثل رجل مريض."

قلتُ: " أعجبتني روايته (أبناء وعشاق) وكـذلك (الطـاووس الأبيض) التي قد لاتكون بنفس جودة الرواية الأولى. ولم أسـتطع قراءة روايته (نساء عاشقات)."

ـ " إذا كنت لا تريد أن تقرأ ما هو سيّئ، وتريـد أن تقـرأ شيئا يستولي على اهتمامك، شيئاً رائعاً في حد ذاته، فعليك أن تقرأ ماري بيلوك لاوندس*"

لم أكن قد سمعت بها، فأعارتني الآنسة شتاين (النزيل)، تلـك القصة الرائعة عن جاك* السفاح، وكتاباً آخر عـن جريمـة قتـل وقعت في مكان خارج باريس لا يمكن أن يكون إلا (إنغاين لـي بان)*. ويوفر كلا الكتابين قراءة ممتعة بعد العمـل، فالـشخوص واقعيون والرعب ليس زائفاً أبداً. والكتابان ملائمان تماماً لتمضية الوقت بعد أن تكون قد انتهيت من العمل، ولهـذا قـرأت جميـع مؤلفات السيدة بيلوك لاوندس* التي وقعت تحت يدي. ولكن عدد

كتبها محدود وليس فيها ما هو بمثل جودة الكتابين الأولين. ولم أجد شيئاً مناسباً لأوقات فراغي في النهار أو الليل حتى ظهر أول كتب سيمنون* القيمة.

أظن أن الآنسة شتاين كانت ستحب كتب سيمنون الجيدة ــ وأول كتاب قرأته له إما (هويس القناة رقم ١) أو (منزل القناة) ــ ولكني لست متأكداً؛ لأنني عندما تعرفت على الآنسة شتاين لم تكن تميل إلى القراءة بالفرنسية على الرغم من أنها كانت تحب التحدث بها. وجانيت فلانر* هي التي أعارتني أول كتابين قرأتهما لسيمنون عندما كان مراسلاً صحفياً يتولى تغطية أخبار الجرائم.

وخلال السنوات الثلاث أو الأربع التي ربطتني فيها صداقة حميمة مع غيرترود شتاين، لا أذكر أنها تحدثت بالخير عن أي كاتب لم يكتب بإطراء عن أعمالها الأدبية أو يفعل شيئاً ما لازدهار عملها فيما عدا رونالد فيربانك*، وفيما بعد سكوت فيتزجيرالد*. وحين التقيتها أول مرة لم تتحدث عن شيروود أندرسون* بوصفه كاتباً وإنما أثنت عليه باعتباره رجلاً، وأطرت عينيه الإيطاليتين الواسعتين الجميلتين الدافئتين، ولطفه وسحره كذلك. وأنا لا تهمني عيناه الإيطاليتان الواسعتان الجميلتان الدافئتان بقدر ما أعجبتني بعض قصصه القصيرة. فقد كُتبت ببساطة، وأحياناً بصورة أخّاذة، وكان يعرف الأناس الذين يكتب عنهم ويعنى بهم من أعماقه. والآنسة شتاين لم تكن تريد أن تتحدث عن قصصه وإنما كانت تتحدث دوماً عن شخصه.

وسألتها : " وماذا عن رواياته؟" ولكنها لم تشأ أن تتحدث عن أعمال أندرسن بأكثر مما تتحدث عن جويس. فإذا ذكرت جـويس مرتين في حضرتها فإنك لن تُدعى مرة أخرى إلى منزلها؛ لأنـك بذلك كمن يثني على جنرال عسكري أمام جنرال آخر. وقد تعلمتَ أن لا تفعل ذلك بعد أن وقعتَ في المحذور أول مرة. والجنـرال الذي تتحدث إليه سيثني كثيراً على الجنرال الذي انهـزم أمامـه ويسعده أن يتكلم بالتفصيل عن كيفية انتصاره عليه.

كانت قصص أندرسون جيّدة جداً بحيث لا يمكـن أن تكـون موضوعاً لمحادثة سارة. كنت مستعداً لأخبر الآنسة شتاين كم هي غثّة رواياته، ولكن ذلك أمر سيّئ كذلك؛ لأنه يتضمن نقداً موجهاً لواحد من أكثر أنصارها إخلاصاً. وعندما كتـب آخـر رواياتـه وتدعى (ضحكة معتمة) ألفيتها رديئة وسخيفة ومفتعلـة بـصورة فظيعة لدرجة أنه لم يسعني إلا أن أنقدها بتهكم وسخرية. وغـدت الآنسة شتاين في غاية الغضب؛ لأنني هاجمـت شخـصاً يـشكّل جزءا من جهاز دعايتها. غير أنها لم تكن غاضبة قبل ذلك ولوقت طويل. وهي، نفسها، أخذت تكيل المديح بسخاء لشيروود* بعد أن انهار ككاتب.

كانت غاضبة على عزرا باوند*؛ لأنه جلس بـسرعة علـى مقعد صغير هزيل لا يُركن إليه وغير مريح، ومن الممكن جداً أنه أُعطي له لغاية ما، وقد خلخله أو كسره. أما كونه شاعراً عظيمـاً ورجلا لطيفاً كريماً وأنه وضع نفسه فـي مكـان يليـق بحجمـه الطبيعي فليس لذلك أي اعتبار لديها. وقد اخترعت بصورة حاذقة وخبيثة أسباب كرهها لعزرا باوند بعد سنوات عديدة.

كان ذلك بعدما عدنا من كندا وكنا نعيش في شارع نــوتردام دي شامب*، وكنت والآنسة شتاين ما زلنا صديقين حميمين، فــي ذلك الوقت أدلت الآنسة شتاين بمقولتها عن الجيل الضائع. كــان لديها بعض المشاكل في نظام التشغيل بالسيارة التي كانت تقودها وهي من نوع فورد تي* القــديم، ولــم يكــن الــشاب المكلــف بإصلاحها في الكراج، والذي كان قد اشترك في الحــرب خــلال السنة الأخيرة، بارعاً في المهنة، أو ربمــا لــم يخــرق أولويــة السيارات الأخرى ويباشر إصلاح سيارة الآنسة شــتاين الفــورد. وعلى أي حال، فإن الآنسة شتاين لم تعدّه *جاداً* وشكته لــصاحب الكراج الذي أنّبه بقسوة قائلاً له: " إنكم جميعا *جيل ضائع*."

ـــ " هذا هو شأنكم. هكذا أنتم جميعاً." قالت الآنسة شــتاين " جميعكم أنتم الشباب الذين شاركتم في الحرب . إنكم جيل ضائع."

قلت لها : "حقاً؟"

ـــ " نعم." أصرّت قائلــة " إنكــم لا تحترمــون أي شــيء، وتهلكون أنفسكم بالشراب..."

فسألتها: " هل كان الميكانيكي الشاب سكران؟"

ـــ " طبعا لا."

ـــ " هل رأيتني أنا سكران؟

ـــ " لا، ولكن أصدقاءك يسكرون."

قلت: " لقد حدث أن سكرت، ولكنني لا آتي إلى هنــا وأنــا سكران."

ـــ " طبعاً لا. لم أقل ذلك."

قلت: " من المحتمل أن يكون صاحب الكــراج ثمــلاً قبــل الساعة الحادية عشرة صباحاً؛ ولهذا استطاع أن ينطق بمثل تلــك العبارات البديعة."

ــ " لا تجادلني، يا همنجواى، فذلك لا ينفع أبداً." وأضــافت قائلة: " أنتم جميعاً جيل ضائع، كما قال صاحب الكراج بالضبط."

وبعد ذلك، عندما كتبت روايتي الأولى حاولت أن أوازن اقتباس الآنسة شتاين من صاحب الكراج باستشهاد من الطقوس الكنسية. ولكن تلك الليلة وأثناء عودتي إلى المنزل ماشياً، أخذت أفكر في ذلك الفتى في الكراج وفيما إذا كان قد حدث له في الحرب أن نُقل في إحدى تلك العربات التي حُولت إلى سيارات إسعاف. وتذكرت كيف كانوا يحرقون مكابحها أثناء الهبوط بها على جانب الجبل وهي محملة تماما بالجرحى، ثم ينتهي بهم الأمر إلى وضع ناقل السرعة على موضع السير إلى الوراء للتقليل من سرعة انحدارها، وكيف أن العربات الأخيرة قيدت فارغة على جانب الجبل لتستبدل بها سيارات فيات كبيرة لها تروس متينة وصنعت مكابحها برمتها من المعدن الخالص. وفكّرت في الآنسة شتاين وشيروود أندرسون والغرور والكسل الذهني في مقابل التواضع والانضباط. وتساءلت مَن الذي يسمي مَن بالجيل الضائع؟ ثم، وبينما كنت متجهاً إلى مقهى بستان الليلك والضوء مُسلَّطاً على صديقي القديم، تمثال المارشال نيي* وهو مستل سيفه، وظلال الأشجار على التمثال البرونزي، وهو ينتصب وحيداً هناك ولا أحد خلفه، والفشل الذريع الذي مُني به في معركة

واترلو، فكرت أن الأجيال جميعها كانت أجيالاً ضائعة بسبب أو بآخر، وهي ضائعة اليوم، وستكون ضائعة في المستقبل؛ وتوقفت عند المقهى لأمنح رفقتي للتمثال وأشرب بيرة باردة قبل الذهاب إلى المنزل عبر المنشرة (معمل نشر الخشب). وبينما كنت جالساً وبيدي البيرة، وأنا أراقب التمثال وأتذكر كم يوماً حارب نيي شخصياً، وهو في مؤخرة الجيش أثناء الانسحاب من موسكو بعد أن عاد نابليون بعربة برفقة الجنرال كولنكور*، فكرت أية صديقة دافئة وودودٍ كانت الآنسة شتاين، وما أجمل ما قالته عن الشاعر أبولينير*وعن موته يوم الهدنة عام ١٩١٨ وكانت الجماهير تهتف (فليسقط غيوم)، وحسب أبولينير وهو في سكرات الموت أنهم يهتفون ضده، وعقدتُ العزم على أن أخدمها، وأن أتأكد أنها تنال ما تستحق على العمل الجيد الذي أنجزَته ما دام ذلك في ميسوري، ولهذا ساعدني يا ربي وساعد مايك نيي. ولكن فليذهب حديثها عن (الجيل الضائع) وكل الشعارات الرخيصة القذرة إلى الجحيم. وعندما وصلت إلى العمارة حيث أقطن وولجت في ساحتها وارتقيت السلم إلى بيتي ورأيت زوجتي وابني وقطته (ف بوس)، وكلهم سعداء والنار في الموقد، قلت لزوجتي: " أتدرين أن غيرترود امرأة لطيفة، على كل حال؟"

ــ " طبعاً، يا تاتي."

ــ " ولكنها تقول كثيراً من الكلام الفارغ أحياناً."

ــ " لا أسمعها بتاتاً." قالت زوجتي "فأنا زوجة، وصديقتها هي التي تتحدث معي."

٤

شركة شكسبير

لم تكن لدي، في تلك الأيام، نقود لشراء الكتب. فكنت أكتري الكتب من مكتبة (شركة شكسبير)*، التي كانت مكتبة لمطالعة الكتب أو شرائها أو كرائها، وتملكها سلفيا بيتش*، وتقع في ١٢ شارع الأوديون*. ففي شارع تجتاحه ريح باردة، كانت تلك المكتبة مكاناً دافئاً بهيجاً يتوفر على موقد كبير في الشتاء، وعلى مناضد ورفوف كتب، والمطبوعات الجديدة معروضة في الواجهة، وصور مشاهير الأدباء من الأحياء والأموات معلّقة على الجدران. كانت جميع الصور تبدو كأنها لقطات فوتوغرافية طبيعية، وحتى الكتّاب الأموات ظهروا كما لو كانوا أحياء حقاً. وكان لسلفيا وجه مفعم بالحياة وذو تقاطيع حادة، ولها عينان بنيّتان تفيضان حيوية مثل عينيّ حيوان صغير، وفرحتين مثل عينيّ صبية، ولها شعر بني متموّج منسدل إلى الخلف ابتداء من جبهتها الجميلة، ومقطوع تحت أذنيها وعند ياقة السترة البنيّة التي ترتديها. ولها ساقان جميلتان، وكانت حنون ومرحة وتبدي اهتماماً بالآخرين، وتحب المزاح والقيل والقال. وليس هناك من الذين عرفتهم مَن كان أكثر عطفاً عليّ منها.

كنت في غاية الخجل عندما ذهبت أول مرة إلى المكتبة، ولم يكن معي المال الكافي للاشتراك في مكتبة كراء الكتب. فأخبرتني سلفيا أنني أستطيع أن أدفع مبلغ التأمين في أي وقت يتوفر فيه لدي المال، وأعدّت لي بطاقة مشارك وقالت إنه يمكنني أن أستعير كتبا بالعدد الذي أرغب فيه.

لم يكن لديها سبب لتثق بي. فلم تكن تعرفني، والعنوان الذي ذكرته لها ـ ٧٤ شارع الكاردنال لوموان ـ لم يكن هناك عنوان أهزل منه. ولكنها كانت سيّدة بهيجة وجذّابة وكريمة. وخلفها رفوف ورفوف من ثروة المكتبة مرصوفة على جميع الجدران حتى السقف وممتدّة إلى الغرفة الخلفية.

بدأتُ بترجنيف* وأخذت مجلدي (تخطيطات رجل رياضي) وأحد كتب د.هـ. لورنس الأولى، وأظنه (أبناء وعشاق)، وأخبرتني سلفيا أنني أستطيع أن أستعير كتباً أخرى إن شئت. فاخترت طبعة كنستاس غارنيت* لكتاب (الحرب والسلم)*، و(المقامر وقصص أخرى) لدستيوفسكي*.

وقالت سلفيا: "إنك لن تعود قريباً إذا قرأت كل ذلك."

قلت : " سأعود لأسدّد ما عليّ، فلدي بعض المال في الشقة."

قالت :" لم أقصد ذلك، فلك أن تدفع متى ما يناسبك."

وسألتها: " متى يأتي جويس* إلى هنا؟"

ـ " إذا كان سيأتي فإنه يأتي عادة عصراً." وأضافت : " ألم تره من قبل؟"

قلت: " لمحناه مرة في مطعم (ميشود)* وهو يتناول الطعـام مع عائلته، ولكن لم يكن من اللائق أن ننظر إلـى النـاس وهـم يأكلون، و(ميشود) مطعم غالٍ."

ـ " هل تأكلون في المنزل؟"

قلت: " معظم الوجبات حالياً، فلدينا طاهية ماهرة."

ـ " لا توجد مطاعم قريبة منكم في الحارة، أليس كذلك؟

ـ " لا، وكيف تعرفين ذلك؟"

قالت: "لقد سكن لاربود* هناك، وأحبَّ تلك الحارة كثيراً فيما عدا خلوّها من المطاعم."

ـ " إن أقرب مطعم رخيص جيّد يقع في البانتيون*."

ـ " لا أعرف ذلك الحيّ. ونحن نأكل في البيـت. يجـب أن تأتي أنت وزوجتك لزيارتنا."

قلت: " انتظري حتى تري إذا كنت سأدفع، ولكن شكراً كثيراً لدعوتك."

قالت : " لا تقرأ حتى الصيام."

كان بيتنا في شارع الكاردنال لوموان عبارة عن شـقّة ذات غرفتين لا تتوفر على ماء ساخن ولا يوجد في داخلها مرحـاض خاص بها وإنما تشتمل على وعاء صحّي، لا يمكن وصفها بأنهـا غير مريحة من قبل شخص كان معتاداً على المرحاض الخارجي في مشيغان. وكانت شقتنا بهيجة ومرحة فهي تطل علـى منظـر لطيف؛ ولفراشنا على الأرض حشية جيدة، وعلى جدرانها لوحات

نحبها. وعندما وصلتُ إلى البيت ومعي الكتب، أخبرت زوجتي عن المكتبة الرائعة التي اهتديت إليها.

قالت: " ولكن، تاتي، يجب أن تعود إليها بعد الظهر لتسدّد ما عليك."

قلت: " سأذهب بالتأكيد، سنذهب معاً، ثم نعود سيراً على الرصيف بمحاذاة النهر."

ـ " لنتمشى عائدين في شارع السين* وننظر إلى المعارض وواجهات المخازن فيه."

ـ " طبعاً، في وسعنا أن نتمشى أينما نريد، ويمكننا أن نتوقف في أحد المقاهي الجديدة حيث لا نعرف أحداً ولا يعرفنا أحد ونتناول مشروباً."

ـ " يمكننا أن نتناول مشروبين."

ـ " ثم نأكل في مكان آخر."

ـ " لا. لا تنس أن علينا أن ندفع للمكتبة."

ـ " سنعود إلى المنزل ونأكل هنا، فنتناول وجبة شهيّة ونشرب نبيذ (البون)* من مخزن التعاونية الذي تراه من هنا عبر الشباك وبالسعر المعلن في واجهة المحل. وبعد ذلك سنقرأ ونأوي إلى فراشنا ونمارس الحب."

ـ " ولن نحب أحداً آخر أبداً، بل يحب أحدنا الآخر."

ـ " لا، أبداً."

ـ " ما أروعها من أمسية. أما الآن فيحسن بنا أن نتناول طعام الغداء."

قلت: " إنني جائع جداً، لقد عملت في المقهى ولم أتناول سوى فنجان قهوة بالحليب."

ـ " وكيف سار عملك، يا تاتي؟"

ـ " أظن أنه على ما يرام. آمل ذلك. ماذا عندنا للغداء؟"

ـ " قليل من الفجل وكبد العجل مع البطاطا المطحونة وسلاطة الهندباء، ثم كعكة التفاح."

ـ " وستكون لنا جميع الكتب في العالم لقراءتها، وعندما نسافر في رحلات سنأخذها معنا."

ـ " وهل تسمح بذلك المكتبة؟"

ـ " بالتأكيد."

قالت: " نحن محظوظون لأنك وجدت ذلك المكان."

ـ " نحن دائماً محظوظون." رددت مثل أبله ولم أدقّ على الخشب. وكان هنالك خشب في كل مكان بالشقة أيضاً.

٥

أهل السين

توجد عدة طرق للنزول إلى النهر من أعلى شارع الكاردنال لوموان، أقصرها الهبوط مباشرة في الشارع ذاتـــه، ولكــن هــذا الطريق شديد الانحدار، ويوصلك بعد أن تقطـــع جــزأه الحافــل بالشقق وبداية شارع سان جرمان المليء بالحركة إلى جزء كئيب حيث توجد قطعة معزولة من ضفة النهر تعبث بها الريح، ويقـــع مخزن النبيذ على يمينك. وهذا المخزن لا يشبه أياً مــن أســـواق باريس الأخرى، فقد كان محتجزاً للجمارك تخزن فيــه الخمــور لحين دفع الضرائب عليها، ويبدو كئيباً من الخارج مثل مــستودع عسكري أو معسكر اعتقال.

وفي الناحية الثانية من فرع السين تقع جزيرة ســان لـــوي، بشوارعها الضيقة ومنازلها العتيقة العالية الجميلــة، ويمكنـــك أن تعبر إلى هناك أو تستدير إلى اليسار لتمشي بمحاذاة ضفة النهـــر، بحيث تكون جزيرة سان لوي*وكاتدرائيـــة نـــوتردام* وجزيـــرة المدينة * في الجانب المقابل.

وفي أكشاك الكتب المنتشرة على رصيف النهر، يمكنـــك أن تجد أحياناً كتباً أمريكية حديثة الصدور تباع بأسعار رخيصة جداً.

ففي تلك الأيام كان لمطعم البرج الفضّي (تور دارجـان) بـضعة غرف في الطابق العلوي للإيجار، يُعطى نزلاؤها تخفيضاً على ما يأكلون في المطعم؛ وإذا ترك النزلاء أي كتب خلفهم، فإن الخـدم يبيعونها إلى كشك الكتب الكائن على الرصيف غير بعيد عـنهم، ولك أن تشتريها من صاحبة الكشك لقاء فرنكات قليلـة، فهـي لا تثق بالكتب المدوَّنة بالإنجليزية، ولأنها لا تدفع شيئاً تقريباً لقاءها، وتكتفي بربح قليل وسريع.

وسألتني بعد أن أصبحنا أصدقاء: " هل هذه الكتب ذات نفع"؟

ـــ "أحياناً واحد منها."

ـــ " كيف يستطيع المرء أن يعرف ذلك"؟

ـــ " أستطيع أن أعرف عندما أقرأها."

ـــ " ولكن سيبقى الأمر نوعاً من المقامرة. وكم مـن النـاس يستطيع قراءة اللغة الإنجليزية"؟

ـــ " احتفظي بها لي ودعيني ألقي نظرة عليها."

ـــ " لا، لا أستطيع ادخارها، فأنت لا تمرّ بصورة منتظمـة، وتتغيب لفترة طويلة في كل مرة. عليّ أن أبيعها بأسرع ما يمكن. ولا أحد يستطيع أن يعرف إذا كانت لا قيمة لها. فإذا تبـين أنهـا ليست ذات فائدة، فلن أستطيع بيعها أبداً ".

ـــ " وكيف تعرفين الكتاب الفرنسي القيّم"؟

ـــ " أولاً هناك الصور. ثم مسألة نوعية الصور. ثـم هنـاك التجليد. فإذا كان الكتاب جيداً، فإن صاحبه سيجلده بشكل لائـق.

كل الكتب الإنجليزية مجلدة ولكنه تجليد سيئ، ولا سبيل للحكم على جودتها."

وبعد ذلك الكشك القريب من مطعم البرج الفضي لا توجد أكشاك أخرى تبيع الكتب الأمريكية أو الإنجليزية حتى تصل رصيف غراند أوغستان*. ومن هناك وإلى ما بعد رصيف فولتير*، توجد عدة أكشاك تبيع تلك الكتب التي تشترى من مستخدمي الفنادق القائمة على الضفة اليسرى من النهر، وخاصة فندق فولتير* الذي يؤمّه الزبائن الأغنى. وفي يوم من الأيام سألت صاحبة كشك أخرى كانت صديقتي كذلك عمّا إذا كان أصحاب الكتب هم الذين يبيعونها:

قالت: " لا، إنهم يرمونها. ولهذا يمكن للمرء أن يعرف أنها لا قيمة لها."

ـ" ربما يعطيها لهم أصدقاؤهم لقراءتها في البواخر".

قالت: " لا شك في ذلك. ولا بدّ أنهم يتركون الكثير منها في البواخر".

ـ " وهو كذلك. وتحتفظ شركة النقل بهذه الكتب وتجلّدها لتكوّن مكتبات البواخر".

قالت: " هذا عمل ذكيّ، على الأقل يجلّدونها بشكل لائق، وهكذا تغدو لذلك الكتاب قيمة".

اعتدت على التمشّي على رصيف النهر بعد أن أنتهي من العمل أو عندما أفكر في موضوع ما. فمن الأيسر عليّ أن أفكر وأنا أمشي أو أفعل شيئاً ما أو أتطلّع إلى الناس وهم يفعلون شيئاً

يفهمونه. وفي رأس جزيرة المدينة* وتحت الجسر الجديد* حيث ينتصب تمثال هنري كواتريه* تنتهي الجزيرة في نقطـــة شـــبيهة بانحناء سفينة حادّ؛ ويوجد منتزه صغير على جرف النهـــر وفيـــه أشجار كستناء ضخمة ومنتشرة الأغصان، وفي مجرى الماء وفي البرك المحاذية لنهر السين، توجد أماكن ممتازة لـــصيد الـــسمك. فأنت تهبط السلّم إلى المنتزه وتراقب الـــصيادين هنـــاك وتحـــت الجسر. وتتغيّر البقع الجيّدة لصيد السمك بتغيّـــر منـــسوب ميـــاه النهر. ويستعمل الصيّادون عصا طويلـــة مـــن الخيـــزران ذات مفاصل ولها سلك دقيق يلتف على مكوك خفيف؛ ويقومون بنـــشر الطعم بمهارةٍ في بقعة الماء التي يصطادون فيها. وكـــانوا دائمـــاً يصيدون شيئاً من السمك المسمى بـــ (الغجوم)*، وهو نوع مـــن السمك النهري مكتنز الجسم وأطيب مذاقاً من السردين الطـــري، ويغدو لذيذ الطعم عندما يـــُقلى كاملاً، وأستطيع أن آكل منه ملء الصحن، ويؤكل عادة بأكمله مع عظامه الناعمة.

ومن أفضل الأماكن لتناول هذا السمك مطعم مُقام في الهواء الطلق على ضفة النهر في منطقة (با مودون)*، ونذهب إليه عادة عندما يتوفّر لدينا المال ونرغب في القيام بنزهة بعيداً عن حارتنا. ويُسمى هذا المطعم بـــالصيد العجيب*، ويقدم نبيذاً أبيض رائعـــاً هو نوع من (الموسكادت)*. واسم المطعم مقتـــبس مـــن قـــصة لموباسان* ويطل على منظر نهريّ يشبه لوحـــة مـــن لوحـــات سيسلي*. ولا يتحتّم عليك أن تذهب بعيداً لتأكل ســـمك الغجـــوم،

فبمقدورك أن تحصل على هذا السمك مقلياً بصورة جيدة في جزيرة سان لوي.

تعرّفت على كثير من الرجال الذين كانوا يمارسون صيد السمك في الأماكن المثمرة من نهر السين بين جزيرة سان لوي وساحة فيرت غالانت*، وأحيانا، عندما يكون الجو صحوا، كنت أشتري لتراً من النبيذ ورغيف خبز وبعض النقانق، وأجلس في الشمس وأقرأ أحد الكتب التي حملتها معي وأشاهد الصيّادين.

لقد وصف مؤلفو كتب الرحلات الرجالَ الذين يصطادون السمك في نهر السين وكأنهم حمقى لا يصيدون شيئاً، ولكن الصيد هناك عمل جدّي ومنتج. فمعظم الصيادين متقاعدون ذوو رواتب تقاعدية محدودة، لم يعرَفوا آنذاك أنها ستمسي لا قيمة لها مع التضخم، أو رجال يمارسون الصيد طوال النهار أو لنصف نهار بعد العمل. وثمة صيد أفضل في تشارنتون*، حيث يصبّ نهر المارن* في نهر السين، وعلى جانبي باريس، ولكنْ هناك صيد جيّد كذلك في باريس نفسها. ولم أقم بالصيد في باريس لأنني لم أتوفّر على عدة الصيد وأفضّل أن أدّخر نقودي لأتمكن من صيد السمك في إسبانيا. وكذلك لأني لم أعرف أبدا في ذلك الوقت متى سأنتهي من عملي، ولا متى يمكنني مغادرة مكتبي، ولم أُرد أن أتقيد بصيد السمك الذي له أوقاته الجيّدة وأوقاته الرديئة. ولكنني كنت أتابعه عن كثب، فمن الممتع والمفيد أن أعرف عنه، ويسعدني دائماً وجود رجال يصيدون السمك في المدينة ذاتها. وله مردود جدّي ويعودون منه إلى أسرهم بشيء من السمك الصغير.

لم يكن بوسعي أن أشعر بالوحدة على شاطئ النهر مطلقاً وأنا محاط بصيّادي السمك، وأشاهد الحركة في النهر، ومراكب الشحن الجميلة والحياة الخاصة على متنها، وسفن القطر ومداخنها العالية التي تُطوى إلى الخلف للمرور تحت الجسور، وهي تجر المراكب خلفها، وأشجار الدرداء على ضفاف النهر الصخرية، وأشجار الدلب، وأشجار الحور المنتشرة في أماكن متفرقة. وبسبب وجود أشجار كثيرة في المدينة، يمكنك أن ترى الربيع وهو يقترب كل يوم حتى تهب ريح دافئة ذات ليلة وتجلبه معها فجأة في صباح واحد. وأحياناً يتراجع الربيع أمام الأمطار الباردة الغزيرة حتى ليخيل إليك أنه لن يأتي أبداً وأنك ستخسر فصلاً من حياتك. وذلك هو الوقت الحزين الوحيد في باريس لأنه ليس طبيعياً. توقّعتَ أن تكون حزيناً في الخريف، حيث يموت جزء منك كل عام عندما تتساقط الأوراق من الأشجار التي تتعرّى أغصانها بفعل الرياح والضوء الشتائي البارد. بيد أنك تدرك أن الربيع سيحلّ دائماً، كما تعرف أن النهر سيجري مرة أخرى بعد أن يتجمّد. وعندما يتواصل هطول الأمطار الباردة وتقضي على الربيع ، تشعر كأن فتى يافعاً مات بلا سبب.

في تلك الأيام، وعلى الرغم من أن الربيع كان يأتي آخر الأمر فأن من المريع أن يشرف على الفشل في محاولته الوصول إلينا.

٦

ربيع زائف

عندما يأتي الربيع، وإن كان ربيعاً زائفاً، فإنه لا توجد مشاكل ما عدا اختيار المكان الذي نسعد فيه أكثر من غيره. والشيء الوحيد الذي يمكن أن يفسد عليك يومك هو الناس، وإذا كان بمقدورك أن تتحاشى الالتزام بمقابلتهم فإن كل يوم من أيامك يغدو بلا حدود. فالناس هم الذين يضعون دائماً حدوداً للسعادة باستثناء القليل منهم الذين لهم طيبة الربيع نفسه.

وفي أيام الربيع كنت أعمل في الصباح الباكر وزوجتي ما تزال نائمة؛ والنوافذ مشرعة، وأرصفة الشوارع لمّا تجف بعد من أثر المطر، وكانت الشمس تنشف وجوه المنازل المواجهة لنافذتنا، والدكاكين ما فتئت مغلقة. ووصل راعي المعز إلى شارعنا وهو ينفخ مزماره، وخرجت امرأة كانت تقطن في الطابق الذي فوقنا إلى الرصيف وهي تحمل قدْراً كبيراً. واختار راعي المعز معزة سوداء لها ضرع كبير وحلبها في القدر، في حين كان كلبه يدفع بقية المعزات إلى الرصيف. وأخذت المعزات في النظر إلى ما حولها وهي تدير رقابها مثل أولئك الذين يشاهدون المناظر الطبيعية. وتناول الراعي النقود من السيدة وشكرها ثم واصل

سيره في الشارع وهو يعزف مزماره، والكلب يسوق المعزات أمامه، وقرونها تهتزّ. واستأنفتُ الكتابة، وصعدت السيدة السلّم ومعها حليب المعز. وكانت تلبس حذاء ذا نعل ناعم ولم أسمع سوى تنفسها عندما توقّفت على السلّم عند بابنا ثم سمعت انغلاق بابها. وكانت هي الزبونة الوحيدةَ لراعي حليب المعز في عمارتنا.

قرّرتُ أن أنزل لشراء صحيفة سباق الخيل الصباحيّة. ولا توجد حارة، مهما كانت فقيرة، لا تباع فيها نسخة على الأقل من صحيفة سباق الخيل. ولكن عليك أن تشتريها مبكراً في يوم كهذا. ووجدت نسخة من تلك الصحيفة في شارع ديكارت* عند زاوية ساحة (كونتراسكارب)*. والتقيت المعزات وهي تسير في شارع ديكارت. واستنشقت الهواء وعدت بسرعة لأرتقي السلّم وأنجز عملي. وراودتني رغبة البقاء في الخارج ومتابعة المعزات في الشارع في ذلك الصباح الباكر. ولكن قبل أن أستأنف عملي ألقيت نظرة على الصحيفة. كان السباق سيجري في (انغهاين)*، وهي حلبة صغيرة جميلة كانت تعدّ جنّة الفرس ضئيل الحظ في الفوز.

وهكذا بعد أن انتهيت من العمل ذلك اليوم كنا سنذهب لحلبة السباق. فقد وصلني شيء من المال من جريدة تورنتو* التي أنجزتُ بعض التحقيقات الصحفية لفائدتها. وكنا بحاجة لاستشارة إن وجدناها. وذات مرة راهنت زوجتي في حلبة (أوتي)* على جواد يُسمى بـ (العنز الذهبي) وبلغت نسبة أرباحه المحتملة مائة وعشرين مقابل واحد، وكان متقدماً في السباق بعشرين مسافة

عندما سقط في القفزة الأخيرة وذهب معه من المال ما يكفينا ستة أشهر. وحاولنا ألا نتذكر ذلك أبداً، فقد كنا في وضع مـالي جيّـد ذلك العام حتى سقط العنز الذهبيّ.

وسألتني زوجتي: " هل لدينا المال الكـافي حقـاً للرهـان، يا تاتي؟"

ــ " لا، ولكن سنراهن فقط بالمبلغ الذي نأخذه معنـا. هـل هنالك شيء آخر تودين إنفاق المال عليه؟"

قالت: " حسناً،..."

ــ " أعرف. أننا في ضائقة منذ مدة، وكنت أقتّر عليك."

قالت: " لا، ولكن..."

أعرف كم كنت قاسياً وكيف كانت الأحوال سيئة. إن من يقوم بعمله ويشعر بالرضى عنه لا يزعجه الفقر. كنت أتمنى أن يكون لنا حوض الاستحمام (البانيو) والدُش والمرحاض العصريّ أسـوة بأناس أقلّ منزلة منا يتوفّرون عليها، وهي أشياء نتمتّع بها عندما نسافر، وكثيراً ما نسافر. كان هنالك دائما الحمّام العمـومي فـي آخر الشارع قرب النهر. ولم تشتك زوجتي أبداً ولا مرّة واحـدة في حين بكت عندما سقط العنز الذهبي. أذكر أنهـا بكـت علـى الجواد وليس على المال. تصرفت بغباء عندما احتاجت إلى سترة صوفيّة رماديّة اللون ولكنها أعجبتني كثيـراً بعـد أن اشـترتها. وتصرفت بغباء بشأن أشياء أخرى كـذلك. وكانـت تـصرّفاتي جميعها جزءاً من معركتي ضد الفقر، وهي معركة لا تكـسبها إلا بعدم الإنفاق، خصوصاً إذا كنتَ تقتـنـي اللوحـات بـدلاً مـن

الملابس. ولكننا آنذاك لم نفكر بأننا فقراء. لم نقبل تلك الفكرة. كنا نعتقد أننا أرفع منزلة من أولئك الأغنياء الذين نحتقرهم ولا نثق بهم، ونحن محقون في ذلك. ولم يبدُ لي غريباً أن ألبس كنزة بدلاً من الملابس الداخلية للدفء، فذلك يبدو شاذاً للأغنياء فقط. كنا نأكل جيّداً وبثمن بخس، ونشرب جيّداً وبثمن بخس، وننام جيداً، وندفأ معاً، ويحب أحدنا الآخر.

قالت زوجتي: " أظن أنه حان الوقت لذلك، فنحن لم نذهب إلى حلبة السباق منذ وقت طويل. سنأخذ غداءنا وشيئاً من النبيذ معنا. سأعدّ شطائر لذيذة."

ــ " سنذهب بالقطار، فذلك أرخص. ولكن لنبقَ إذا كنت تفضّلين ذلك، فأيّ شيء نفعله اليوم سيكون ممتعاً، فهو يوم رائع."

ــ " أرى أنه ينبغي أن نذهب."

ــ " ألا تفضّلين أن تنفقي النقود على شيء آخر؟"

ــ " لا،" قالت بشمم، وكان لها خدان بارزان جميلان يناسبهما الشمم. وأضافت: " مَن نحن، على أي حال؟"

وهكذا توجّهنا بالقطار من محطة الشمال مخترقين أوسخ أحياء المدينة وأكثرها كآبة، ثم مشينا من محطة الوصول إلى حلبة السباق. كنا مبكرين، فوضعت معطفي المطري على العشب الندي وجلسنا عليه وتناولنا غداءنا وشربنا من قنينة النبيذ، ونحن ننظر إلى المدرج القديم، وأكشاك الرهان الخشبيّة البنيّة اللون، والعشب الأخضر الذي ينمو بين مسارات حلبة السباق ويزداد اخضراراً عند الحواجز الخشبيّة، والبرك ذات الماء اللامع التي

يتعين على الخيول أن تثب فوقها، والجدران الحجريّة المطليّة باللون الأبيض، ومواقف الخيول وقضبانها البيضاء المُقامة تحت الأشجار المورقة حديثاً، وقد أخذت أوائل الخيول تفد إليها. وشربنا مزيداً من النبيذ، ودرسنا عناصر السباق في الجريدة، ثم استلقت زوجتي على معطفي المطري لتنام والشمس ترسل أشعتها إلى وجهها. وذهبت لأجد شخصاً كنت أعرفه منذ أيام سان سيرو* في ميلانو*، وأعطاني اسمي جوادين:

ــ " تذكّرْ إنهما ليسا استثماراً هاماً، ولكن لا تدع الثمن يثبّطك."

وربحنا الأول بنصف المال الذي كان يتعيّن علينا إنفاقه، ودفع لنا اثني عشر مقابل واحد، وكان يثب بصورة جميلة، وظل في طليعة السباق، وبلغ النهاية متقدّماً بأربع مسافات. وادخرنا نصف ما ربحنا ووضعناه جانباً، ثم راهنا بالنصف الثاني على الحصان الآخر، الذي انطلق في المقدمة طوال الميدان واثباً فوق الحواجز، محتفظاً بتقدّمه على الأرض المنبسطة كذلك، ولكن قبيل خط النهاية تقدّم عليه الحصان المفضّل وهما تحت لهيب السياط.

وذهبنا لتناول كأس من الشمبانيا في الحانة الواقعة تحت المدرج منتظرين إعلان النتائج.

وقالت زوجتي: " يا إلهي، إن السباق شديد الوطأة على الناس. أرأيت كيف تقدّم عليه ذلك الحصان؟"

ــ " ما زلت أحسّ بذلك في أعماقي."

ــ " ما الريع الذي سيحقّق؟"

ــ " ثمانية عشر لواحد طبقاً للجدول. ولكن ربما راهن عليه الناس كثيراً في الأخير."

ومرّت الخيول، وكان جوادنا مبتلاً، ومنخراه يتّسعان ليتنفس، والجوكي يربت عليه.

وقالت زوجتي: " المسكين. نحن نراهن فقط."

وراقبنا الخيول تمرّ بالقرب منا، وتناولنا كأساً أخرى من الشمبانيا، ثم أُعلنت أسعار الأرباح: ٨٥. وهذا يعني أن الجواد الرابح يدر ٨٥ فرنكا لكل عشرة فرنكات.

وقلت: " لا بدّ أنهم راهنوا بكثير من المال في الأخير."

ولكننا حقّقنا ربحاً وفيراً، مالاً كثيراً بالنسبة لنا. والآن صار عندنا الربيع والمال كذلك. وشعرت بأن ذلك كل ما ينقصنا. وفي مثل ذلك اليوم كان كل واحد منا يحتفظ بربع الأرباح لينفقه، وندخر النصف الباقي بمثابة رأس مال للسباق القادم. وكنت أخبئ رأس المال المخصص للرهان في معزل عن بقية المال.

وفي يوم آخر في نهاية ذلك العام، وبعد أن عدنا من إحدى رحلاتنا وأصبنا حظاً حسناً من سباق الخيل مرة أخرى، توقفنا عند مطعم (برونيير)* ونحن في طريقنا إلى المنزل. ودخلنا وجلسنا بعد أن تفحّصنا المأكولات الشهية المعروضة مع أسعارها في واجهة المحل، وتناولنا محاراً وسرطان البحر المكسيكي مع كؤوس من نبيذ (السانسير)*. ثم عدنا مشياً مخترقين حدائق (التويلري)* في الظلام. وتوقّفنا برهة ننظر إلى قوس الكاروسل* عبر الحدائق المعتمة، وأضواء ميدان (الكونكورد)* وراء العتمة

ثم الخط الطويل من الأضواء الممتدّ إلى قوس النصر*. وبعد ذلك نظرنا إلى الخلف باتجاه متحف اللوفر* المظلـم، وقلـت: " هـل تظنين حقا أن الأقواس الثلاثة هي في خط واحد؟ هذان القوسـان هنا وقوس السرميون* في ميلانو؟"

ـ " لا أعرف، يا تاتي. يقولون ذلك، ولا بد أنهم يعرفـون. أتَذكُر عندما خرجنا في الربيع على الجانب الإيطالي من سـانت برنارد* بعد أن تسلقنا في الجليد، وهبطنا أنـا وأنـتَ وتـشنك* طوال النهار في ذلك الربيع إلى أوستا*؟"

ـ " لقد أطلق تشنك على نزهتنا تلك اسم (عبر سانت برنارد في أحذية عادية)؛ هل تتذكرين حذاءك يومها؟"

ـ " حذائي المسكين. هل تتذكر أننا تناولنا كؤوساً من سلاطة الفواكه في مطعم بيفي* في الكلاريا* مع كابري وخوخاً طازجـاً وفراولة بريّة بالثلج في أقداح طويلة؟"

ـ " ذلك هو الوقت الذي أخذتُ أتساءل فيه عـن الأقـواس الثلاثة."

ـ " أتذكر قوس السرميون. إنه يشبه هذا القوس."

ـ " هل تذكرين الفندق في (إيغل)* حيث جلست أنتِ وتشنك في الحديقة ذلك اليوم تقرأان بينما كنتُ أنا أصيد السمك؟"

ـ " نعم، يا تاتي."

وتذكرتُ نهر الرون*، ضيقاً رمادياً مليئـاً بالمـاء المـثلج، وعلى جانبيه المجريان المليئان بسمك السلمون: الستوكالبر* وقناة

الرون*. كان الستوكالبر صافياً حقاً ذلك اليوم، أما قنـــاة الـــرون فكان ماؤها كدراً.

ــ " هل تذكرين أشجار البلوط المزهرة، وكيف حاولـــتُ أن أتذكّر قصة كان رواها لي جيم غامبل*، على ما أظن، عن كرمة الوستاريا* المتسلقة، ولم أستطع أن أتذكرها؟"

ــ " نعم، يا تاتي، وكنتَ أنتَ وتشنك تتحدثان دائماً عن كيفية جعل الأشياء تبدو حقيقية في الكتابة، بوضعها مباشرة ومـــن دون وصف. أتذكر كل شيء. كان مصيباً في بعض الأحيان، وكنـــتَ أنت على حق في أحيان أخرى. أتذكر الأضـــواء، والمـــضامين، والأشكال التي كنتما تناقشانها."

والآن وبعد أن خرجنا من بوابة الحديقـــة اخترقنـــا اللـــوفر وقطعنا الشارع لنقف على الجسر، منحنين على حاجزه الحجـــري متطلعين إلى النهر تحتنا.

قالت لي هادلي : " كنا الثلاثة نتجادل حول كل شيء، وحول أشياء بعينها، ويتندّر بعضنا على بعض. أتذكر كل شـــيء فعلنـــاه وكل شيء قلناه طوال تلك الرحلة. أتذكر كل شـــيء حقـــاً، كـــل شيء. عندما كنت وتشنك تتحدثان، كنتُ أشارك في الحديث، ولا أبقى مجرد زوجة كما هو الحال في شقة الآنسة شتاين."

ــ " أتمنى أنني أستطيع أن أتذكر قـــصة كرمـــة الوســـتاريا المتسلّقة."

ــ " لم تكن مهمة. كان النبيذ هو المهم، يا تاتي."

ـ " هل تذكرين أنني جلبت معي بعض النبيذ من إيغل إلى الشاليه. لقد باعوه لنا في الفندق. وقالوا ينبغي أن نتناوله مع السمك. وجلبناه ملفوفاً بنسخة من جريدة غازيت دي لوسيرن*، على ما أظن."

ـ " وكان نبيذ السيون* أفضل منه. أتذكر كيف طهت السيدة غانجسويش* سمك السلمون عندما عدنا إلى الشاليه؟ لقد كان سمكاً لذيذ الطعم، يا تاتي، وشربنا نبيذ السيون والتهمنا الطعام على الشرفة، وكان سفح الجبل ينحدر تحتنا، وكان باستطاعتنا أن نرى عبر البحيرة الدنت دي ميدي* ونصفها مغطى بالجليد، والأشجار على مصب نهر الرون الذي يلقي بمياهه في البحيرة."

ـ " إننا دائماً نفتقد تشنك في الشتاء والربيع."

ـ " دائماً. وأفتقده الآن عندما انتهى كل شيء."

كان تشنك جندياً محترفاً، وذهب إلى مونز* بعد أن تخرج من ساندهيرست*. التقينا به أول مرة في إيطاليا، وكان صديقي الحميم ثم صار صديقنا المفضل لوقت طويل. وكان يمضي إجازاته معنا في ذلك الوقت."

ـ " كان سيحاول الحصول على إجازة في الربيع المقبل. لقد كتب إلينا من كولونيا* في الأسبوع الماضي."

ـ" أعرف. يجب أن نعيش في هذا الوقت الراهن ونتمتّع بكل لحظة فيه.

ـ" إننا نشاهد الماء الآن وهو يضرب دعامة الجسر. تُرى ما الذي نراه إذا نظرنا إلى أعالي النهر؟"

ونظرنا فألفيناها كلها أمامنا: نهرنا ومدينتنا وجزيرة مدينتنا.
قالت: " إننا محظوظون. آمل أن يأتي تشنك، فهو يعتني بنا."
ــ " إنه لا يظن ذلك."
ــ " طبعا لا."
ــ " إنه يظن أننا نستكشف معاً."
ــ " وهو كذلك. ولكن يعتمد على ما نستكشف."
ومشينا عبر الجسر وأصبحنا على ضفة النهر حيث نسكن.
وقلت: " هل أنت جائعة من جديد بعد أن تحدثنا وتمشينا طوال الوقت؟"
ــ " طبعاً يا تاتي، ألست جائعاً أنت كذلك؟"
ــ " لنذهب إلى مطعم فاخر ونتناول عشاء رائعاً."
ــ " أين؟"
ــ " في مطعم ميتشو*."
ــ ذلك رائع، والمطعم قريب جداً من هنا."
وهكذا سرنا في شارع سان بيرس حتى زاوية شارع جيكوب، وكنا نتوقف ونلقي نظرة على واجهات المحلات بما فيها من لوحات وأثاث. ووقفنا خارج مطعم ميتشو لنقرأ قائمة الطعام المعلقة على واجهته. كان المطعم غاصاً بالزبائن وانتظرنا حتى خرج بعضهم، وفي أثناء ذلك كنا نراقب الطاولات التي انتهى أصحابها من تناول قهوتهم.
كنا جائعين من جديد بسبب المشي، وكان مطعم ميتشو مثيراً لشهيتنا، وغالياً بالنسبة لنا. وهناك رأينا جويس* وعائلته: هو

وزوجته بجانب الحائط، وكان يمسك بقائمة الطعام بإحدى يديه ويحدّق فيها من خلال نظارتيه السميكتين، وكانت نورا* إلى جانبه متفتحة الشهية ولكنها رهيفة الصحة؛ وكان جورجيو* نحيفاً، أنيقاً، ناعم الشعر؛ وكان لابنته لوسيا* شعر كثّ مجعّد، ولم تكن آنذاك قد كبرت بعد، وكانوا جميعاً يتحدثون بالإيطالية.

وعندما كنت واقفاً هناك، تساءلت عما شعرنا به فوق الجسر وهل كان مجرّد جوع. سألت زوجتي فقالت: " لا أدري، يا تاتي. هناك أصناف عديدة من الجوع ، وتزداد أثناء الربيع. ولكن ذلك انتهى الآن. والذكرى جوع.

كنت أتصرّف بغباء. نظرت من خلال النافذة فرأيت سمكتين على مائدة، فأدركت أنني جائع بالمعنى البسيط للجوع.

ـ " قلت إننا محظوظون اليوم. وهو كذلك طبعاً. ولكن توفّرت لنا النصيحة الصادقة والمعلومات الدقيقة."

ضحكتْ وقالت:

ـ " لم أقصد بقولي الحظّ الذي أصابنا في سباق الخيل. أنت تأخذ الكلام حرفياً. قصدت أننا محظوظون بمعنى آخر."

ـ " لا أظن أن تشنك يهتمّ بسباق الخيل." قلت ذلك، متمادياً في تعقيد غباوتي.

ـ " لا، إنه يهتم به إذا كان يمتطي الجواد بنفسه."

ـ " ألا تريدين أن تذهبي إلى سباق الخيل مرة أخرى؟"

ـ " طبعاً، والآن نستطيع أن نذهب إلى هناك مرة ثانية متى ما شئنا"

ـ " ولكن أتريدين الذهاب حقاً؟"

ـ " طبعاً، وأنت أيضا، أليس كذلك؟"

وبعد أن دخلنا مطعم ميشو تناولنا وجبة شهيّة، ولكن بعد أن انتهينا لم يعد ثمة جوع، بيد أن الشعور الذي انتابنا بما يشبه الجوع عندما كنا فوق الجسر ما زال فينا عندما صعدنا الحافلة في طريقنا إلى المنزل. وظل ذلك الشعور فينا بعد ولوجنا غرفتنا وتطارحنا الغرام في الظلام. وعندما استيقظت في الليل والشبابيك مشرعة وضوء القمر على سطوح المنازل العالية، كان ذلك الشعور ما زال يقض مضجعي. وأشحت بوجهي عن ضوء القمر إلى الظل، غير أني لم أستطع النوم وبقيت أفكر في ذلك الشعور. وقد استيقظ كلانا مرتين في تلك الليلة، والآن تنام زوجتي بكل حلاوة وضوء القمر يغمر وجهها. وكان عليّ أن أفكر في الأمر، وأنا في غاية الغباء. وعندما استيقظت في الصباح بدت الحياة لي في منتهى البساطة والربيع المبكر قد حلّ في المدينة، وسمعت مزمار بائع الحليب مع قطيعه من الماعز، وخرجت لجلب جريدة سباق الخيل.

بيد أن باريس مدينة قديمة جداً وكنا شابين يافعين وليس هنالك شيء سهل، ولا حتى الفقر ولا المال المفاجئ، ولا ضوء القمر، ولا الصحيح والخطأ، ولا تنفّس امرأة مضطجعة إلى جانبك في ضوء القمر.

٧

نهاية هواية

ذهبنا معاً إلى سباق الخيل عدة مرات ذلك العام وأعواماً أخرى تلته، وكنا نذهب بعد انتهاء عملي في الصباح الباكر، واستمتعت هادلي بالسباقات، وشغفت بها أحياناً. ولكنها لم تكن بمثل متعة تسلّق مروج الجبال المنيفة المطلّة على الغابة، ولا بمثل متعة العودة ليلاً إلى الشاليه، ولا بمثل متعة السير في ممرّ جبلي عالٍ في ريف جديد مع صديقنا الحميم تشنك. وفي الحقيقة لم يكن ذلك السباق سباق خيل وإنما كان رهاناً على الخيل، ولكننا كنا نسميه سباقاً.

لم يشكّل سباق الخيل حاجزاً بيننا؛ الناس فقط يستطيعون أن يفعلوا ذلك، ولكن لوقت طويل بقي سباق الخيل قريباً منا مثل صديقة مُلحفة. ووصف السباق بهذا الشكل نوع كريم من التفكير. فأنا الذي أعدّ نفسي شخصاً مستقيماً لا يرضى بإلحاق الأذى بالناس أو تدميرهم، احتملت هذه الصديقة الزائفة، الجميلة، المثيرة، الشرّيرة، والمُلحفة؛ لأنها كانت من الممكن أن تدر عليّ بعض الربح. ولكي تكون مربحة، فإنها تتطلب عملاً يستغرق الوقت كله، ولم يكن لديّ وقت لذلك. غير أني سوّغت في نفسي

هوسي بالسباق بأنني كتبت عنه، على الرغم من أنني في النهاية، فقدت جميع ما كتبت ما عدا قصة واحدة عن سباق الخيل نجت، لأنها كانت قد أرسلت بالبريد.

والآن أصبحت كثيراً ما أذهب إلى سباقات الخيل وحيداً، ووجدت نفسي متورّطاً فيها ومشوشا بها كذلك. كنت أراهن في حلبتين في موسم السباقات كلما كان ذلك في استطاعتي: أوتي* وأنغهاين*. ويتطلب تحقيق التكافؤ في السباق (بحيث تخرج بلا ربح ولا خسارة) عملاً لوقت طويل، ومع ذلك فأنت قد لا تربح شيئاً بتلك الطريقة. وهذا مجرّد تقديرات على الورق. ويمكنك طبعاً أن تشتري جريدة تبين لك ذلك.

عليك أن تراقب سباق القفز فوق الحواجز من منصّة المشاهدين في أوتي. وتبذل جهداً كبيراً لتلاحظ ما يفعل كل فرس، وترى الفرس الذي كان من الممكن أن يربح ولم يتسنَّ له ذلك، وترى لماذا وربما كيف لم يفعل ما كان يمكنه أن يفعل ليربح. وتراقب الأثمان وجميع التحوّلات التي تطرأ على الأرباح في كل مرة يشارك جوادك المفضل في السباق، وعليك أن تعرف كيف يعمل، وأخيراً ينبغي عليك أن تعرف متى يحاول أصحابه إشراكه في السباق. ومن المحتمل أن يخسر كلما شارك في السباق، فعليك أن تعرف آنذاك ما هي فرص نجاحه. إنه عمل شاق، ولكن في أوتي يبدو كل شيء جميلاً وأنت تشاهدهم يتسابقون، عندما تتمكن من الحضور وترى السباقات النظيفة التي تتبارى فيها جياد مطهّمة، وتتعرف على حلبة السباق جيداً، وتتعرف أخيرا على

العديد من الأشخاص من الفرسان والمدرّبين وأصحاب الخيول، وجياد عديدة وأشياء كثيرة.

كنت لا أراهن إلا إذا كان لديّ جواد معيّن أراهن عليه. هذا من حيث المبدأ ، ولكن يحدث أحياناً أن أرى خيولاً لا يظن بها أحد خيرا سوى الرجال الذين يدرّبونها أو يمتطونها وقد ربحت السباق تلو السباق وكنت أراهن عليها. وتخليت أخيراً عن الرهان في سباقات الخيل؛ لأنه يستلزم كثيراً من الوقت ولأنني وجدت نفسي متورّطاً جداً وأعرف الكثير عما كان يحدث في أنغهاين وفي حلبات سباق الجري كذلك.

لقد سررت عندما توقفت عن الانهماك في المشاركة في السباقات، بيد أن ذلك خلّف فراغاً لديّ. وتعلّمت آنذاك أن أي شيء زيناً كان أو شيناً يترك فراغاً عندما ينتهي. ولكن إذا كان شيناً فإن الفراغ يمتلئ تلقائياً. أما إذا كان زيناً فإنك لا تستطيع ملء الفراغ الذي يخلّفه إلا إذا وجدت شيئاً أفضل. وأعدت المصروف المخصّص للرهان إلى المصروف العام، وشعرت بالارتياح.

وفي اليوم الذي تخليت فيه عن السباق عبرت إلى الضفة الأخرى من النهر والتقيت صديقي (مايك وارد)* في مكتب الأسفار بمؤسّسة الائتمان التي كانت تقع يومئذ في ملتقى شارع الإيطاليين* وجادة الإيطاليين*. ذهبت لأودع رأسمال السباق ولكن دون أن أخبر أحداً بذلك. ولم أسجل تلك الوديعة في دفتر شيكاتي وإنما حفظتها في ذاكرتي.

وسألت مايك: " أتريد أن تتناول طعام الغداء؟"

ــ " بالتأكيد، يا فتى، نعم أستطيع أن أفعل ذلك. ولكن مـــاذا حدث، ألست ذاهباً إلى حلبة السباق اليوم؟"

ــ " لا."

• وتناولنا طعام الغداء في ساحة لوفوا* في حانة جيدة مع نبيذ أبيض رائع. وفي الجهة الثانية من تلــك الــساحة تقــع المكتبــة الوطنية.

ــ " أنت لم تذهب إلى حلبة السباق كثيراً، يا مايك؟"

ــ " لا، منذ وقت طويل."

ــ " لماذا تخلّيت عنه؟"

قال مايك: " لا أدري." ثم استدرك قــائلاً: " بلـــى، أعــرف بالتأكيد. كل شيء تراهن عليه ويــصيبك منـــه أذى لا يــستحق المشاهدة.

ــ " ألا تذهب إلى حلبات السباق أبداً؟"

ــ " أحياناً لمشاهدة سباق كبير تتبارى فيه خيول مشهورة."

ووضعنا الخبيصة على الخبز الشهي وشربنا النبيذ الأبيض.

ــ " وهل تابعت السباقات كثيراً."

ــ " نعم."

ــ " وأي أنواع السباق أفضل في رأيك؟"

ــ " سباق الدراجات الهوائية."

ــ " حقا؟"

ــ " لأنك لا تراهن عليه، وإنما تشاهده فقط."

ـ " أما سباق الخيل فإنه يأخذ منك وقتاً طويلاً."

ـ " نعم، يستغرق وقتاً طويلاً جداً. إنه يستغرق جميع وقتك. ولا أحب الناس هناك".

ـ " كنتُ مولعاً جداً به."

ـ " بالتأكيد. وهل كنت على ما يرام؟"

ـ " لا بأس."

وقال مايك: " من الأفضل أن تتوقّف."

ـ " لقد توقفت."

ـ " صعب أن تفعل ذلك. اسمع يا فتى، سنذهب إلى سباق الدرّاجات الهوائية يوماً ما."

لقد كان ذلك شيئاً جديداً ولطيفاً لا أعرف عنه إلا اليسير. ولكننا لم نبدأ مباشرة، وإنما حصل ذلك فيما بعد. وقد أضحى جزءاً كبيراً من حياتنا بعد أن تلاشى الجزء الآخر من باريس.

ولكن لوقت طويل، كان يكفينا أن نعود فقط إلى حيّنا في باريس بعيداً عن حلبة السباق وأن نراهن على حياتنا وعملنا، أو نراهن على رسامين نعرفهم، وألا نعيش من القمار أو سَمّه أي اسم آخر. لقد أخذت أكتب عدة قصص قصيرة عن سباق الدراجات الهوائية، ولكن لم أكتب قصة لها روعة تلك السباقات نفسها، سواء ما كان يجري منها في قاعة مغطاة أو في حلبة مكشوفة أو على الطرق. ولكني سأذكر ميدان الدرّاجات الشتوي في ضوء المساء الضبابي بمساراته الخشبيّة المرتفعة وأزيز عجلات الدراجات على الخشب حينما يمر المتسابقون، والجهد

الذي يبذلونه والتقنيات التي يستعملونها في صعودهم وهبوطهم، وكل واحد منهم ملتصق بدراجته كأنه جزء منها. سأذكر سحر سباق المسافات المتوسّطة، وضجيج الدرّاجات النارية التي كان يمتطيها المدرّبون وهم يرتدون خوذهم الثقيلة الواقية ويتكئون إلى الخلف بملابسهم الجلدية الفضفاضة لحماية المتسابقين خلفهم من مقاومة الهواء؛ وكان المتسابقون يرتدون خوذاً أخف وكل واحد منهم منحنٍ على مقود دراجته وساقاه تديران عجلة المحرّك المسننة، والعجلات الأماميّة الصغرى تلامس مؤخّرة الدرّاجات البخاريّة التي توفّر الحماية للمتسابقين، والمنافسات الأكثر إثارة من أي شيء آخر وسط ضوضاء الدرّاجات الناريّة، وهم كتفاً لكتف وعجلة لعجلة صعوداً وهبوطاً ودوراناً بسرعة قاتلة حتى إذا لم يعد بمقدور أحدهم الحفاظ على السرعة المطلوبة تخلف عن المجموعة وهكذا يرتطم به جدار الهواء الذي كان يصدّه عنه المدرّبون.

كانت هنالك أنواع متعدّدة من السباق. فهناك السباقات القصيرة إما على أشواط وإما دفعة واحدة. وفي النوع الأخير يحاول أحد المتسابقين التخلّف للحظات من أجل أن يجعل منافسه يتقدّم عليه، قبل أن ينقضّ عليه وهو في أقصى سرعته. وهنالك سباقات الفرَق لمدة ساعتين وتتكون من سلسلة من سباقات سريعة قصيرة تستغرق وقت العصر كله. وهنالك عروض لراكب واحد ينطلق في سرعة قصوى. وهنالك السباقات الجميلة والخطيرة جداً لمسافة مائة كيلومتر، وكانت تجري في الميدان الخشبي الكبير

الذي يبلغ طوله خمسمائة متر والكائن في ملعب بوفالو* المفتوح في الهواء الطلق في مونتروغ*، حيث يجري المتسابقون خلف درّاجات نارية كبيرة. وأذكر لينارت*، البطل البلجيكي العظيم، الذي كانوا يلقبونه بـ (السيوكس)* بسبب ملامح وجهه، وهو يحني رأسه ليحتسي براندي الكرز من قنينة بلاستيكية مخبأة تحت قميصه كلما احتاج إلى ذلك ليزيد من سرعته الجنونية قرب خط النهاية. وأذكر المباريات التي تجري لإحراز بطولة فرنسا خلف الدرّاجات الناريّة الكبيرة وهي تنطلق على مسار إسمنتي طوله ستمائة وستون متراً في منتزه الأمير* قرب بلدة أوتي، وهو أخطر المسارات قاطبة، وقد شاهدنا عليه المتسابق العظيم غاناي* وهو يسقط من درّاجته وسمعنا جمجمته تتهشّم تحت خوذته كما تكسر بيضة مسلوقة على حجر قبل تقشيرها في نزهة. يجب أن أكتب عن العالم العجيب الذي كانت تجري فيه سباقات تستمر مدة ستة أيام وعن روائع طريق السباق في الجبال. واللغة الفرنسية هي الوحيدة التي كُتب فيها عن تلك السباقات بصورة جيدة، فجميع المصطلحات اللازمة متوفّرة فيها. وهذا ما يجعل كتابتي عن تلك السباقات (بالإنجليزية) أمراً صعباً. وكان مايك مصيباً، فلا حاجة للرهان. ولكن ذلك سيحدث في وقت آخر في باريس.

٨

الجوع تهذيب جيّد

ستشعر بالجوع كثيراً في باريس إذا لم تأكل بما فيه الكفاية؛ لأن جميع المخابز تعرض حلويات لذيذة في واجهاتها، والناس يأكلون خارج المقاهي والمطاعم على طاولات موضوعة على أرصفة الشوارع. وهكذا فأنت ترى الطعام وتشمّ رائحته. وعندما تكون قد تخلّيت عن الصحافة ولا تكتب شيئاً يشتريه أحد في أمريكا، وتقول لزوجتك إنك تتناول طعام الغداء مع صديق خارج المنزل، فإن أفضل مكان تذهب إليه حدائق اللكسمبورغ، فأنت لا ترى ولا تشمّ شيئاً يؤكل طوال الطريق من ساحة المرصد إلى شارع فوجيرار. ومن هناك يمكنك دوماً أن تذهب إلى متحف اللكسمبورغ* حيث تبدو جميع اللوحات أكثر وضوحاً وحدّة وجمالاً إذا كنتَ خاوي المعدة جائعاً. لقد تعلمت أن أفهم سيزان* بشكل أفضل وأدركت الكيفية الحقيقية لرسمه المناظر الطبيعية، عندما كنت جائعاً. وكنت أتساءل ما إذا كان سيزان جائعاً كذلك عندما رسم لوحاته، ولكن افترضت أن من الممكن أنه نسي فقط أن يأكل. إنها واحدة من الأفكار غير القيّمة لكن المضيئة التي

تراودك وأنت تعاني السهاد أو الجوع. وفي وقت لاحق خيّل إلـي أن سيزان كان جائعاً بطريقة مختلفة.

وبعد أن تخرج من لكسمبورغ بوسعك أن تمشي إلى ساحة سان سلبيس* مرورا بشارع فرو الضيق، وهناك لا توجد مطاعم كذلك، وإنما مجرد ساحة هادئة بمصاطبها وأشجارها. ثمة نافورة وتماثيل أسود، وحمائم تغدو وتروح على الرصيف وتطير وتحط على تماثيل الأساقفة. وهناك الكنيسة، وهناك دكاكين في الجانب الشمالي من الساحة تبيع المواد الدينية والأردية الكهنوتية.

ومن تلك الساحة لا تستطيع مواصلة السير باتجاه النهر دون المرور بحوانيت تبيع الفواكه والخضراوات والخمور، أو بحوانيت الخبز والحلويات. بيد أنك إذا اخترت طريقك بعناية يصير بمقدورك أن تلتفّ إلى اليمين حول الكنيسة المبنية بالحجر البنيّ والأبيض لتصل إلى شارع الأوديون* وتستدير إلى يمينك باتجاه مكتبة سلفيا بيتش، وفي طريقك هذا لا تمرّ بأماكن كثيرة تعرض المأكولات للبيع. فقد كان شارع الأوديون خالياً من أماكن الأكل حتى تصل الساحة حيث توجد ثلاثة مطاعم.

وفي الوقت الذي تصل فيه إلى ١٢ شارع الأوديون تكون قد تمالكت جوعك ولكن بصيرتك أضحت أشد حدة. ستبدو الصور مختلفة وسترى كتباً لم ترها من قبل.

وستقول سلفيا: " إنك نحيف جداً، يا همنجواي. هل تأكل ما يكفيك؟"

ـــ " طبعاً."

ـ " ماذا أكلت في وجبة الغداء؟"

وشعرت بمعدتي تقرقر وأنا أقول: " إني في طريقـي إلـى المنزل لتناول الغداء."

ـ " في الساعة الثالثة؟"

ـ " لم أدرك أن الوقت متأخر."

ـ " قالت لي أدريان* قبل مدة إنها تريد أن تدعوك وهـادلي لتناول طعام العشاء. وسندعو فارك*. أنت تـودّ فـارك، ألـيس كذلك؟ أو لاربود*. أعرف أنك تودّه. أو أي شخص تـودّه حقـا. أرجو أن تحدّث هادلي في ذلك."

ـ " أعرف أنها تحبّ المجيء إليكم."

ـ " سأرسل إليها بطاقة. لا ترهق نفـسك فـي العمـل الآن خاصة وأنت لا تأكل بصورة ملائمة."

ـ " وهو كذلك."

ـ " اذهب إلى المنزل الآن قبل أن يفوت وقت الغداء."

ـ " سيحتفظون به لي."

ـ " ولا تأكل طعاماً بارداً أيضاً. تناول طعاماً ساخناً جيداً."

ـ " هل لديك أي رسائل لي؟"

ـ " لا أظن ذلك. ولكن دعني أتأكد."

ألقت نظرة ووجدت قصاصة ورق عليها ملاحظة، قرأتها ثم فتحت بويبا مغلقا في مكتبها، وقالت:

ـ " لقد وصلت هذه وأنا خارج المكتبة."

لقد كانت رسالة وشعرت كما لو كانت تحتوي على مال في داخلها.

قالت سلفيا: "ودركوب*"

ـ " لا بد أنها من در كيرشنت*. هل رأيت ودركوب؟"

ـ " لا، ولكنه كان هنا مع جورج. سيراك. لا تقلق. ربما يريد أن يسدّد لك ما تستحقه أولاً."

ـ " إنها ستمائة فرنك. ويقول سيرسل إليّ أكثر."

ـ " أنا مسرورة جدا لأنك ذكرتني بإلقاء نظرة، أيها السيد اللطيف جداً."

ـ " من المضحك حقاً أن تكون ألمانيا هي المكان الوحيد الذي أستطيع أن أبيع فيه أي شيء، له ولجريدة الأوقات الفرانكفورتية*."

قالت مازحة: " أليس كذلك؟ ولكن لا تقلق أبداً. يمكنك أن تبيع بعض قصصك لفورد*"

ـ " نعم بثلاثين فرنكاً للصفحة الواحدة. ولنقل قصة واحدة كل ثلاثة أشهر في مجلة (الترانس أتلانتك)*. والقصة التي طولها خمس صفحات تساوي مائة وخمسين فرنكا كل ثلاثة أشهر. أي ستمائة فرنك في السنة."

ـ" ولكن، يا همنجواي، لا تقلق بشأن ما تدره عليك قصصك الآن. المهمّ أنك تستطيع كتابتها."

ـ " أعرف. أستطيع كتابتها، ولكن لا أحد يشتريها، فمنذ أن تركت الصحافة لا أتوصل بالمال."

ـــ " ستباع قصصك. انظر، فأنت تحمل في يديك ثمن واحدة منها.

ـــ " آسف، يا سلفيا، سامحيني لأنني تحدثت عن هذا الموضوع."

ـــ " على أي شيء أسامحك. تحدّث إليّ دائماً عن هذا الموضوع أو غيره. ألا تعلم أن جميع الأدباء يتحدثون عن متاعبهم؟ ولكن عدني بأنك سوف لا تقلق وتأكل ما يكفي."

ـــ " أعدك."

ـــ " إذن اذهب إلى المنزل الآن وتناول غداءك."

وفي شارع الأوديون، خارج المكتبة، تقزّزتُ من نفسي لأني شكوت إليها. فقد فعلتُ ما فعلت بمحض إرادتي، وبطريقة غبية. كان ينبغي عليّ أن آكل رغيف خبز كبيراً بدلا من أن أتخطّى وجبة طعامٍ. يمكنني أن أتذوق قشرة رغيف لذيذة. ولكنها جافة في الفم ما لم تشرب معها شيئاً. ما أسوأك من متشك، أنت أيها القديس الشهيد الزائف القذر. قلت ذلك لنفسي. لقد تَركتَ الصحافة برضاك. ولك حساب مع سلفيا، وكانت ستقرضك المال لو طلبتَ منها ذلك، كما أقرضتك عدة مرات من قبل، بالتأكيد. ثم فعلتَ أمرا آخر إذ ضحيت بشيء من أجل شيء آخر. فالجوع صحي والصور تبدو أفضل وأنت جائع. ولكن الأكل رائع كذلك وهل تعرف أين تذهب لتأكل الآن؟

ستأكل في (ليبس)* وستشرب أيضاً.

وكانت مشية سريعة إلى (ليبس)، وكل مكان مــررتُ فيــه ولَحَظْتُه بسرعة معدتي وعيني وأنفي أضاف متعة خاصــة لتلــك المشية. وجدتُ في المحل قليلاً من الناس، وعندما جلـست علــى المصطبة جنب الحائط والمرآة خلفي والطاولة أمــامي وســألني النادل ما إذا كنت أريد بيرة، طلبت (الكأس المميز)* وهو قــدح كبير يتسع للتر من البيرة، وطلبت سلاطة بطاطا.

كانت البيرة باردة جداً ويلذّ شرابها. والبطاطا مقليّة بالزيــت والتوابل، وزيت الزيتون شهياً. وأضفت شيئاً من الفلفــل الأســود إلى البطاطا وغمست الخبز بزيت الزيتون. وبعد تنــاول جرعــة كبيرة من البيرة أخذت آكل وأشرب بتؤدة. وعندما أتيــت علــى البطاطا المقلية طلبت صحناً آخر منها ونقانق. والنقانق نوع مــن السجق شبيه بسجق فرانكفــورت، وتكــون عريــضة ومــشقوقة ومغطاة بصلصة خردل.

التهمتُ جميع الخبز والزيت والصلصة وشربت البيرة بتباطؤ إلى أن أخذتْ تفقد برودتها فأنهيتها وطلبت نصف لتر آخر منهــا. وألفيت نصف اللتر أبرد من الكأس المميّز، وشربت نصفه.

وقلت في نفسي إنني لم أكن قلقاً. كنت أعرف أن القــصص جيدة وأن شخصاً ما سينشرها في نهاية المطــاف فــي بــلادي. وعندما توقفت عن القيام بالعمل الصحفي، كنت متأكــداً مــن أن القصص في طريقها إلى النشر. بيد أن كل قصة بعثت بها عادت إليّ. والذي جعلني واثقاً جداً هو أن (أدورد براين)* أخذ قــصة (شيخي) لكتابه (أحسن القصص القصيرة) ثــم خــصّني بإهــداء

الكتاب في ذلك العام. ثم ضحكت وشربت مزيداً من البيرة. وكانت تلك القصة لم تنشر في مجلة من قبل، وقد خرق جميع مبادئه ليضمنها كتابه. وضحكت ثانية ونظر النادل إليّ بسرعة. لقد كان الأمر مضحكاً؛ لأنه بعد أن فعل كل ذلك أخطأ تهجّي اسمي في الكتاب. وكانت تلك القصة إحدى قصتين بقيتا بعد أن سُرق كل شيء كتبته مع حقيبة هادلي في محطة قطار ليون عندما كانت تجلب مخطوطاتي إلى لوزان لتفاجئني بها، كي أتمكن من العمل عليها أثناء عطلتنا في الجبال. فقد وضعت الأصول والنسخ المطبوعة ونسخ الورق المصور (الكاربون) جميعاً في ملفات خفيفة وحملتها في حقيبتها. والسبب في نجاة تلك القصة هو أن (لنكولن ستيفنس)* كان قد أرسلها بالبريد لأحد الناشرين الذي أعادها. وهكذا فقد كانت في البريد عندما سُرقت جميع القصص الأخرى. أما القصة الثانية التي نجت فعنوانها (هناك في مشيغان) كتبتها قبل أن تزورنا الآنسة شتاين في شقتنا. ولم استنسخها لأنها قالت عنها إنها قصة *لا يمكن تعليقها*، ولهذا فقد بقيت في أحد الأدراج في مكان ما.

وبعد أن غادرنا لوزان وذهبنا إلى إيطاليا، أطلعت أوبراين* على قصة السباق. وكان أوبراين رجلاً خجولاً شاحب الوجه له عينان زرقاوان شاحبتان وشعر خفيف طويل مسترسل يحلقه بنفسه، وكان يعيش آنذاك نزيلاً في دير قرب رابالو*. كنت أمرّ بفترة عصيبة ولم يدُر بخلدي أنني سأستطيع أن أكتب أي شيء آخر، وعرضت عليه القصّة من باب حبّ الاستطلاع، كما لو

تَعرض، بغباء، بَوصلةَ سفينة فقدتّها بطريقة لا تُصدّق ، أو كمــا تلتقط ساقك التي ما زالت تحتفظ بالجزمة بعد أن بُترت إثر حادثة اصطدام وتروي نكتة عنها. وبعد أن قرأ القصة رأيت عليه ملامح التأثّر أكثر مما تأثّرت أنا. ولم أرَ شخصا في حياتي تألّم أكثر منه لشيء غير الموت أو الألم الذي لا يُطاق إلا هادلي حينما أخبرتني عن فقدان قصصي. لقد بكت وبكت ولم تستطع إخباري. وقلت لها مهما كان الأمر مريعاً فإنه لا يمكن أن يكون كارثياً لذلك الحــد، ومع ذلك فليس عليها أن تقلق. سنجد حلاً. ثم أخيــرا أخبرتنــي. وكنت متأكداً من أنها لا يمكن أن تكون قد جلبت نسخ الكــاربون كذلك، واستأجرتُ شخصاً ليقوم بعملي الصحفي،فقد كنت أكــسب مالاً وفيراً حينذاك من الصحافة، وأخذت القطــار المتجــه إلــى باريس، ولكنني ألفيت أن ما ذكرتْه لي كان أمراً واقعاً، وأتذكر ما فعلتُه في تلك الليلة بعدما دخلت الشقة واكتشفت الحقيقة. لقد انتهى الأمر الآن وقد علمني تشنك ألا أناقش الإصابات والخسائر، ولهذا قلت لأوبراين أن لا يأسف. فربما كان من الأجدى لي أن أفقد أول أعمالي، وسردت عليه كل ذلك الهراء الذي يــضاهي فــي غثــه الطعام الذي يقدّم للجنود. وقلت له إنني سأستأنف كتابة القــصص مرة أخرى، وكنت أحاول أن أكذبه القول لئلا يتألم من أجلي، وأنا عارف بالحقيقة.

وأخذت أتذكر في (ليبس) متى واتتني القدرة على كتابة قصة قصيرة مرة أخرى بعد أن فقدت كل شيء. كان ذلك في (كورتينا أمبازو)* عندما عدت لألتحق بهادلي هناك بعد تزلج الربيع الذي

توّجب عليّ أن أقطعه لأذهب في مهمة إلى (راينلاند) و (الروهر). وكانت قصة بسيطة جداً بعنوان (في غير أوانه)، وحذفت نهايتها الحقيقية، التي تتضمن قيام الرجل العجوز بشنق نفسه. وقد أجريت الحذف بناء على نظريتي الجديدة القائلة بأنك تستطيع أن تحذف أي شيء إذا كنت تعرف ما تحذف، وهذا الحذف سيقوي القصة ويجعل الناس يشعرون بأكثر مما فهموه.

وقلت في نفسي حسناً، الآن وقد كتبت قصصي فإنهم لن يفهموها. لا شك في ذلك. ومن الأكيد أنه لا يوجد طلب عليها. ولكنهم سيفهمونها بالطريقة التي يفهمون بها اللوحات الفنية. إنها مجرد مسألة وقت ويحتاج الأمر إلى شيء من الثقة بالنفس.

من الضروري أن تتحكّم بنفسك بصورة أفضل عندما تضطر لتقليل طعامك لئلا تفكر كما يفكر الجياع. فالجوع نظام جيد وبإمكانك أن تتعلّم منه. وما دام الآخرون لا يفهمونه فستكون لك ميزة عليهم. وقلت في نفسي، طبعا أنا متقدّم عليهم كثيراً الآن لأنه ليس بوسعي تناول الطعام بصورة منتظمة. وليس بالأمر السيئ إن هم لحقوا بي قليلا.

أدركتُ أنه يجب عليّ أن أكتب رواية. ولكن ذلك شيء مستحيل في وقت كنت أواجه فيه صعوبة بالغة عندما أكتب فقرات لا تشكل إلا مجرد قطرات في رواية. كان من الضروري أن أكتب قصصاً أطول الآن، كما لو كنتَ تتمرن استعداداً لسباق طويل. وعندما كتبت رواية من قبل، أعني تلك الرواية التي فقدت في الحقيبة التي سرقت في محطة ليون، كنت ما أزال أملك روح

الشباب الغنائية التي كانت تشبه الشباب في سرعة اندثاره ومرارة خداعه. وكنت أدرك أنه ربما كان من الأفضل لي أنني فقدتها، ولكنني كنت أعرف كذلك أنه ينبغي علي أن أكتب رواية. كنت سأؤجل كتابتها حتى لا يعود بوسعي إلا أن أكتبها. كان محكوماً عليّ أن أكتب رواية، لأن ذلك ما يجب أن أفعل إذا كنا نريد أن نأكل بانتظام. وإذا كنت سأكتبها فإنها ستكون الشيء الوحيد الذي أفعل ولا خيار لي غير ذلك. فليتصاعد الضغط عليّ. وفي تلك الأثناء سأكتب قصة طويلة حول أي شيء أعرفه.

وفي هذا الوقت كنتُ قد دفعت فاتورة المطعم وخرجت منه واستدرت إلى اليمين وعبرت شارع رين* لكيلا أذهب إلى (مقهى القردين)* لتناول القهوة كالعادة، وسرت نحو شارع بونابرت* سالكا أقصر طريق إلى منزلي.

ما الشيء الذي كنت أعرفه جيداً ولم أكتب عنه؟ ما الشيء الذي كنت أعرفه حقاً وآبه به جداً؟ لا خيار لي على الإطلاق. كان الخيار الوحيد هو أن أسلك الشوارع التي تعود بي إلى مكان عملي. وهكذا دلفت من شارع بونابرت إلى شارع غنيمير*، ثم إلى شارع آساس*، وحتى شارع نوتردام دي شامب*، ثم إلى بستان الليلك*.

جلستُ في زاوية في ذلك المقهى وضوء الظهيرة ينساب على كتفي وأخذت أكتب في دفتري. جلب إليّ النادل قهوة بالحليب، شربت نصفها وعندما بردت تركتها على الطاولة وأنا أكتب. وعندما توقّفت عن الكتابة لم أشأ أن أفارق النهر حيث كنت

أشاهد السمك يسبح أمامي في الحوض، وكان سطح الماء يرتفـــع قليلاً بفعل مقاومة أعمدة الجسر للتيار. كانت القصة حول الرجوع من الحرب بيد أنه لا ذكر للحرب فيها.

ولكن في الصباح سيكون النهر هناك دائماً، وعليّ أن أضعه في مكانه وكذلك مناظر الريف وكل الأحداث. وسأفعل ذلك كـــل يوم في الأيام القادمة. ولا يهمني أي شيء آخر. وفي جيبي النقود التي وصلتني من ألمانيا فليس ثمة مشكل. وعندما تنفد تلك النقود ستأتي غيرها.

وكل ما يجب عليّ الآن أن أفعله هو أن أبقى في صحة جيدة ومرتاح البال حتى صباح الغد عندما أبدأ العمل مرة أخرى.

٩

فورد مادوكس فورد ومُريد الشيطان

كان (بستان الليلك) أقرب مقهى جيّد لنا عندما كنا نسكن في شقّة تقع فوق المنشرة في البناية رقم ١١٣ في شارع (نوتردام دي شامب)، ويعدّ واحداً من أفضل مقاهي باريس؛ يتوفر في داخله الدفء في الشتاء؛ وفي الربيع والخريف يطيب الجلوس خارج المقهى إذ تُرتب الطاولات تحت ظلال الأشجار على الرصيف بالقرب من تمثال المشير (المارشال) نيي*، وفي الساحة توضع الطاولات الاعتيادية تحت مظلات كبيرة على طول الشارع. وقد أصبح اثنان من نُدُل هذا المقهى من أصدقائنا الطيبين. ولم يكن رواد مقهى (القبة)* أو مقهى (الطارمة)* يرتادون (البستان) أبداً. فهنا لا يعرفهم أحد، ولن يحدّق فيهم أحد لو جاءوا. ففي تلك الأيام كان الأدباء يذهبون إلى المقاهي الواقعة في زاوية شارع مونبرناس* وشارع رسباي* ليراهم الجمهور، وكانت تلك الأماكن قد سبقت محرري الأعمدة الصحفيّة في توفير وسيلة يوميّة للشهرة والخلود.

وكان (بستان الليلك) المقهى الذي يلتقي فيه الشعراء بصورة منتظمة تقريباً، وآخر شاعر كبير ارتاده هو (بول فور)* الذي لم

يتسنَ لي قراءة أشعاره، ولكن الشاعر الوحيد الذي شاهدته هنـــاك هو (بليز سندرار)*، ذو الوجه المعوَّج الشبيه بوجه ملاكم، وأحد أكمامه فارغة ومثبتة إلى الأعلى بدبوس، وهو يلف سيجارة بيـــده السليمة الوحيدة. و(سندرار) نديم جيّد إلى أن يتمادى في الشرب، وحينذاك يأخذ في تلفيق روايات كاذبـــة تفـــوق بإمتاعهـــا كثيـــراً القصصَ الحقيقية الصادقة التي يسردها كثير من النـــاس. ولكنـــه كان الشاعر الوحيد الذي يرتاد مقهى (بستان الليلك) آنذاك. ولـــم أشاهده هناك سوى مرّة واحدة. وكان معظم روّاد المقهـــى مـــن المسنّين الملتحين الذين يرتدون ملابس بالية ويأتون إلى المقهـــى مع زوجاتهم أو عشيقاتهم وهم يعلّقون على سترهم، أو لا يعلّقون، أوسمة جوقة الشرف بأشرطتها الحمراء الرقيقة. وكنا نحسب أنهم من العلماء ، ويطيلون الجلوس على مشروب فاتح للـــشهية مثـــل أولئك الرجال الذين يرتدون ملابس أكثر بلـــى ويجلـــسون مـــع زوجاتهم أو عشيقاتهم على فنجان من القهوة بالحليـــب ويعلّقـــون الأوسمة ذات الأشرطة القرمزيّة، التي لا علاقة لها بالأكاديميـــة الفرنسية، ونحسبهم من الأساتذة أو المدرسين.

جعل هؤلاء الناس من المقهى مكاناً مريحاً مـــا دام بعـــضهم مهتماً ببعضهم الآخر وبمشروباتهم أو بفناجين قهوتهم، وبالجرائد أو المجلات التي كانت تُعلّق على مساند من القضبان في المقهى، ولم يكن أي منهم يجلس هناك ليشاهده الجمهور.

وهناك أناس آخرون أيضاً يعيشون في الحيّ ويرتادون مقهى (بستان الليلك)، ويعلّق بعضهم أشـــرطة صـــليب الحـــرب علـــى

سترهم، ويحمل بعضهم الآخر الوسام العسكريّ الأصفر والأخضر، وكنت أراقبهم وهم يتغلبون على عجزهم الناتج عن فقدان بعض أطرافهم، وأنظر إلى نوعيّة عيونهم الصناعيّة والمهارة التي تمت بها إعادة هيكلة وجوههم. فهنالك دائماً لمعان قزحيّ اللون تقريباً في الوجوه التي أعيدت هيكلتها بصورة كبيرة، يشبه نوعاً ما لون منحدر التزلّج الذي يعجّ بالمتزلّجين. وكنا نكنّ لهذا الصنف من الرواد احتراماً يفوق احترامنا للعلماء أو الأساتذة، على الرغم من أن هؤلاء الأخيرين ربما أدّوا كذلك الخدمة العسكريّة دون أن تلحق بهم عاهة أو يصيبهم تشويه.

لم نثق في تلك الأيام بأيّ فرد لم يشترك في الحرب، علماً بأننا لم نثق تماما بأيّ فرد كائنا من كان. وكان ينتابنا شعور قويّ بأن الشاعر سندراس ربّما يميل إلى التباهي قليلا بذراعه المبتورة. وسعدت حينما وجدته في مقهى (بستان الليلك) مبكرا ذلك المساء قبل أن يصل الزبناء المعتادون.

في ذلك المساء، كنت جالساً إلى طاولة خارج المقهى أمعن النظر في تحوّلات الضوء على الأشجار والمباني، وأراقب الخيول المطهّمة التي تمر ببطء في الشارع، وإذا بباب المقهى ينفتح من ورائي على اليمين، ويخرج منه رجل ويتجه إلى طاولتي ويقول:

- " وأخيرا هذا أنت."

ذلك الرجل هو فورد مادوكس فورد*، كما كان يسمي نفسه آنذاك، وكان يتنفس بصعوبة من خلال شاربين كبيرين

مصبوغين، وينتصب عموديا مثل برميل كبيـــر معــدّ للتحميـــل ومغطى بالملابس.

وسألنيْ وهو يجلس:" هل لي أن أجلس معك؟" وكانت عينـــاه الزرقاوان، اللامعتان تحت حـــاجبين وأجفـــان عديمـــة اللـــون، شاخصتين إلى الشارع.

وقال:" أمضيت السنين الطويلة من حياتي مكافحا من أجل أن تُذبح الحيوانات بصورة إنسانية."

قلت:" لقد أخبرتني بذلك."

- " لا أظن."

- " إني متأكد من ذلك."

- " غريب جداً. لم أخبر أحداً بذلك في حياتي بتاتاً."

- " أتودّ أن تتناول مشروباً؟"

وقف النادل وأخبره فورد بأنه يريد عصير الكـــشمش. وردّد كلامه النادل الذي كان طويلاً ونحيفاً وأصلع في قمة رأســـه مـــع شعر أملس ينسدل من فوديه وله شاربان كثّان مثل شاربي تنين.

-" لا، اجعله براندي بالصودة."

وأكّد النادل طلبه بقوله:" براندي بالصودة للسيد."

كنت دائما أتجنّب النظر إلى فورد مـــا اســـتطعت وأمـــسك أنفاسي باستمرار عندما تضمّني معه غرفة موصدة، ولكـــن هـــذه المرّة كان لقاؤنا في الهواء الطلق والأوراق المتساقطة تحتنا على الرصيف يدفعها النسيم من جانب طاولتي إلى جانبه، ولهذا أمعنت النظر فيه، وندمت، ثم صوّبت نظري عبر الشارع. لقـــد تحـــوّل

الضوء ففاتتني مشاهدة الضوء المتحول. وتناولت المشروب لأرى ما إذا كان قدومه قد أفسد مذاقه، ولكنه بقي كما هو.

قال:" أنت مكتئب جداً."

- " لا."

- " نعم، أنت مكتئب، تحتاج أن تتنزّه أكثر. توقّفتُ هنا لأدعوك لمشاركتنا السهرات الصغيرة التي نحييها في مرقص (المزمار)* الممتع بالقرب من ساحة كونترإسكارب في شارع الكاردنال لوموان.

- " لقد عشت فوقه لمدة سنتين قبلَ أن تأتي إلى باريس آخر مرة."

- " ما أغرب ذلك. هل أنت متأكد؟"

قلت:" نعم. أنا متأكد. فلدى الرجل الذي يملكه سيارة أجرة. وعندما كنت استقلَ الطائرة كان يأخذني إلى المطار، ونتوقف عند بار المرقص لتناول كأساً من النبيذ الأبيض قبل أن ننطلق إلى المطار."

فقال فورد:" لم ألف في نفسي اهتماماً بالطيران. ستأتي أنت وزوجتك إلى مرقص المزمار ليلة الأحد. إنه ممتع حقاً. سأرسم لك خريطة لتهتدي إليه. لقد عثرت عليه بمحض الصدفة."

قلت:" إنه تحت البناية رقم ٧٤ في شارع الكاردنال لوموان. وكنت أسكن في الطابق الثالث في تلك البناية."

وقال فورد:" لا يوجد رقم. ولكنك تستطيع أن تعثر عليه إذا وجدت ساحة كونترإسكارب."

وتناولتُ جرعة أخرى كبيرة من المشروب. وجلب النادل لفورد المشروب الذي طلبه، ولكن فورد أخذ يصحّحه قائلا بشدّة: " لم يكن طلبي براندي بالصودة. لقد طلبت مشروب الشامبري وعصير الكشمش."

وقلت:" لا بأس، ياجان، سآخذ البراندي، واجلبْ للسيد ما يطلبه الآن."

وصحّحني فورد قائلا: " ما طلبتُه."

وفي تلك اللحظة مرّ على الرصيف رجل نحيل نوعاً ما يتلفّع بقبّ، وبصحبته امرأة فارعة الطول. وألقى نظرة عجلى على طاولتنا ثم حوّل نظره بعيداً، وواصل طريقه في الشارع.

وقال فورد:" هل رأيتني وأنا أرفض ردّ تحيته؟ هل رأيتني وأنا أرفض ردّ تحيته؟"

-" لا، مَن؟"

قال فورد:" بِلوك*، لم أردّ على تحيته."

قلت:" لم أرَ شيئاً. ولماذا لم تردّ تحيته؟"

قال فورد:" لكل سبب وجيه في الوجود. لقد رفضت ردّ تحيته."

وبدا في غاية السرور. لم أرَ بِلوك من قبل ولا أعتقد أنه شاهدنا. بدا لي مثل رجل كان يفكر في شيء ما ونظر إلى طاولتنا بعجلة وبصورة تكاد تكون تلقائية. وتألمت لأن فورد أساء إليه، لأنني كنت شاباً في بداية مشواري الأدبي وأكنّ له احتراماً

عظيماً بوصفه كاتباً أكبر سناً. هذا الاحترام لا يمكن فهمه اليوم، ولكن في تلك الأيام كان شائعاً.

وفكرت أنه من بواعث الغبطة لو توقّف بِلوك عند طاولتنا وأُتيحت لي فرصة التعرف عليه. لقد أفسد فورد أمسيتي ولكن بلوك كان سيجعلها أفضل.

وسألني فورد:" ولأي شيء تشرب البراندي. ألا تعرف أن الشروع في شرب البراندي أمر مهلك لكاتب شابّ؟"

قلت:" لا أشربه كثيراً." وحاولت أن أتذكّر ما قاله لي عزرا باوند* عن فورد، إذ أوصاني بأن لا أقسو عليه، وأن أتذكّر أنه قد يكذب عندما يمسي متعباً، وأنه في الحقيقة كاتب جيّد، وأنه قاسى من مشاكل عائلية عويصة. حاولت جاداً أن أفكر في هذه الأمور، ولكن حضور فورد الثقيل الوضيع المصحوب بصفير تنفسه على مقربة مني جعل الأمر صعباً. ولكنني حاولت.

وسألت:" قل لي لماذا يرفض الإنسان ردّ تحية الآخرين؟" وحتى ذلك الحين ظننت أن ذلك شيء لا يحدث إلا في الروايات التي تكتبها أويدا*. لم أتمكن أبداً من قراءة واحدة من روايات أويدا، حتى في منتجعات التزلّج في سويسرا حيث تنفد المطبوعات عندما تهبّ ريح الجنوب الرطبة، ولا تبقى إلا طبعات (توشنتس)* الصادرة قبل الحرب. ولكنني كنت متأكداً، بحاسة سادسة، أن الناس يرفض أحدهم ردّ تحية الآخر في رواياتها.

وقال لي فورد موضحاً:" إن الرجل النبيل يرفض دائماً ردّ تحية الوغد."

وأخذت جرعة سريعة من البراندي. وسألت:" هـل يـرفض النبيل رد تحية السوقيّ المسكين؟"

- " يستحيل على الرجل النبيل أن يعرف سوقياً مسكيناً."

وتابعت قائلاً: " إذن يمكنك أن ترفض رد تحية شـخص مـا عرفته على أساس الند للند؟"

- " طبعاً."

- " وكيف يستطيع الواحد منا أن يلتقي وغداً؟"

- " قد لا تعرف حقيقته، أو أنه أضحى وَغـداً فيما بعد."

وسألت:" من هو الوغد؟ أليس هو الشخص الـذي يجـب أن يجلده الإنسان حتى يشارف على الموت؟"

فقال فورد:" ليس بالضرورة."

وسألت:" هل عزرا باوند رجل نبيل؟"

قال فورد:" طبعا لا. إنه أمريكي."

-" ألا يمكن أن يكون الأمريكي رجلاً نبيلاً؟"

أجاب فورد:" ربما جون كوين*. بعض سفرائكم."

- " ميرون ت. هيريك؟"

- " من المحتمل."

- " هل كان هنري جيمس رجلاً نبيلاً؟"

- " تقريبا."

- " أأنت رجل نبيل؟"

- " طبعاً. تسنمت عضوية لجان صاحب الجلالة."

وقلت:" إنه أمر معقد جداً. هل أنا رجل نبيل؟"
قال فورد:" لا. بتاتاً."
-" إذن، لماذا تنادمني الشراب؟"
-" أشرب معك بوصفك كاتباً واعداً. كاتب زميل في الحقيقة."
قلت:" هذا جميل منك."
وقال فورد برحابة صدر:" قد تُعدّ رجلاً نبيلاً في إيطاليا."
-" ولكنني لست سوقياً؟"
-" طبعاً، لا، أيها الفتى العزيز. مَن قال شيئاً مثل ذلك؟"
قلت بحزن:" قد أُصبحُ كذلك بسبب شرب البراندي وما إليه. هذا ما حصل للورد هاري هوتسبور* في ترولوبه*. اخبرني، هل كان ترولوبه رجلاً نبيلاً؟"
- "طبعاً لا."
=" هل أنت متأكد؟"
-" قد يوجد رأيان، ولكن ليس بالنسبة لي."
-" وهل كان فيلدنغ* رجلاً نبيلا؟ فهو قاض."
-" ربما من الناحية التقنية."
=" ومارلو*؟"
-" طبعاً لا."
-" وجون دون*؟"
-" كان كاهناً."
قلت:" هذا ممتع."

قال فورد:" أنا مسرور لأنك مهــتمّ بالموضـــوع. ســأتناول براندي معك قبل أن أذهب."

وبعد أن غادر فورد حــلّ الظــلام، وســرتُ إلــى الكــشك واشتريت (البذلة الرياضية الباريسية)* وهي آخــر طبعــة مــن جريدة السباق المسائية وفيها نتائج سباق الخيل في أوتي وبرنامج سباق انغهاين لليوم التالي. وجاء النادل أميل، الذي حل محل جان بعد انتهاء عمله، إلى طاولتي ليرى نتائج سباق الخيل في أوتــي. ووصل صديق عزيز لي قلما يرتاد مقهى بستان الليلك وجلس إلى طاولتي، وبينما كان يطلب مشروباً من أميل مرّ الرجــل النحيــل الذي يتلفع بالقب وبرفقته السيدة الطويلة على الرصيف، وتحولت نظرته إلى طاولتنا ثم بعيداً عنا.

وقلت لصديقي:" هذا هو هيلير بلوك. كان فــورد هنــا بعــد الظهر ورفض ردّ تحيته."

فقال صديقي:" لا تكن سخيفاً. هذا أليستر كراولي*. يفترض أنه شرّ الناس في هذا العالم."

قلت: "آسف."

١٠

ميلاد مدرسة جديدة

دفاتر ذات أغلفة زرقاء وقلما رصاص ومبراة (فالسكين مفيدة أكثر من اللازم)، وطاولة مرمرية، ورائحة الصباح الباكر، والكنس والتنظيف، والحظ؛ هذا كلّ ما كنتَ تحتاج إليه. ولجلب الحظّ كنتَ تحمل حدوة حصان وقدم أرنب في جيبك الأيمن. وكانت قدم الأرنب قد بليت منذ مدة طويلة، وجلى الاستعمال عظامها وأعصابها. وكانت أصابع يدك تنبش في بطانة جيبك فعرفتَ أن الحظ ما زال معك.

كانت الأمور تجري في بعض الأيام بصورة حسنة فكنتَ تستطيع أن تذهب إلى الريف فتتمشى في الغابة وتخرج منها إلى الضوء، وتتسلّق إلى أرض مرتفعة وترى التلال متناثرة وراء ذراع البحيرة. وقد ينكسر رأس قلم الرصاص في فتحة المبراة المخروطية فتستعمل شفرة صغيرة بسكين الجيب لإخراج الرأس المكسور أو حتى لبري القلم بعناية، ثم تدسّ ذراعك تحت سير الحقيبة الجلديّة التي أصبحت لها رائحة الملح بسبب العرق فترفعها مرة أخرى ثم تضع ذراعك الأخرى تحت السير الآخر

وتشعر بالحمل يستقر على ظهرك، ووريقات الصنوبر تتكسّر تحت حذائك وأنت تنطلق نحو البحيرة.

وفي تلك اللحظة تسمع شخصاً يقول: مرحباً، همنجواى، ما الذي تحاول أن تفعله؟ تكتب في مقهى؟"

حينئذ يفارقك الحظّ ، فتغلق الدفتر. كان هذا أسوأ ما يمكن أن يحدث. وإذا كان في ميسورك أن تكبح جماح غضبك فهذا أفضل، ولكنني لم أُحسن ذلك يوم ذاك وقلت:" أنت يا بن الكلبة القذر ما الذي تفعله هنا بعيداً عن طريقك الوسخة؟"

– " لا توجّه إهاناتك إليّ لمجرّد أنك تريد أن تبدو كأنك غريب الأطوار."

– " خذ فمك القذر وابتعد من هنا."

– " إنه مقهى عمومي. لي نفس الحقّ الذي لك في ارتياده."

– " لماذا لا تذهب إلى مكانك المعتاد في مقهى (الكوخ الصغير)*؟"

– " يا الله، لا تكن متعباً جدّاً."

وعند ذلك كان بإمكانك أن تغادر المقهى على أمل أن تكون تلك مجرّد زيارة عابرة وأن دخول الزائر ذلك المقهى محض مصادفة لا تتحوّل إلى ابتلاء دائم. ثمة مقاه جيّدة عديدة يمكنك أن تعمل فيها لكنها تقع على مسافة بعيدة، وهذا المقهى هو الأقرب إلى منزلي. ومن المؤسف أن أُطرَد من مقهى (بستان الليلك). وكان عليّ إما أن اتخذ موقفاً واضحاً أو أن أغادر المقهى. ومن الأرجح أن الكياسة كانت تقتضي مغادرة المقهى ولكن الغضب

أخذ مني مأخذه وقلتُ: " اسمع، إن لقذرٍ مثلك أماكن كثيرة يستطيع الذهاب إليها، لماذا تأتي إلى هنا وتدنّس مقهى محترماً ؟"

- " أتيت هنا لأتناول مشروباً. ما الخطأ في ذلك؟"
- " في المنزل يمكن أن يسقوك الشراب وتحطّم الكأس."
- " أين المنزل؟ يبدو مكاناً ساحراً."

كان يجلس إلى الطاولة المجاورة، شاب طويل سمين يرتدي نظارات القراءة. وكان قد طلب كأس بيرة. وفكّرت أن أتجاهله وأرى إذا كان يمكنني الكتابة.وهكذا تجاهلته ودوّنت جملتين.

-" كل ما فعلتُه أنني تحدثت إليك."

واصلتُ عملي وكتبت جملة أخرى. من الصعوبة أن تتوقّف عن الكتابة عندما تنطلق وأنت منغمس فيها.

- " أظن أنك أصبحت عظيماً جداً بحيث لا يستطيع أحد أن يكلّمك."

وكتبت جملة أخرى ختمت بها الفقرة، وأعدت قراءة تلك الفقرة. ما زال الأمر على ما يرام وكتبت الجملة الأولى من الفقرة التالية.

- " أنت لا تُعِرْ بالا لأي إنسان آخر، ولا تفكر في أن له مشاكله كذلك."

لقد سمعت شكوى الآخرين طوال حياتي. وألفيت أن في مكنتي أن أواصل الكتابة، وأن شكواه ليست أسوأ من أنواع الضوضاء الأخرى، وبالتأكيد أفضل من الضوضاء التي يحدثها عزرا باوند* وهو يتعلم العزف على المزمار.

- " تصوّر أنك أردت أن تكون كاتباً، وتملكت تلك الرغبة كيانك، ولكن الكتابة لا تواتيك."

وواصلتُ الكتابة، وأخذ الحظّ يحالفني في تلك اللحظة تماماً.

- "افترض مرة أن الكتابة اجتاحتك كسيل جارف ثم ابتعدت عنك وتركتك أصمّ أبكم."

وقلتُ في نفسي أن تكون أصمّ صامتاً خير من أصمّ ثرثار، وواصلتُ الكتابة.

والآن وقد اندفع شاكياً راحت العبارات تتدفّق من فمه بصورة لا تُصدّق مثل ضوضاء يحدثها قطع لوح خشب ثخين في المنشرة.

وسمعته يقول بعد ذلك:" ذهبنا إلى اليونان " وكنت قبل ذلك لا أسمعه إلا مثل ضوضاء. ونظرا لأنني تقدّمت في الكتابة صار بمقدوري أن أتوقّف وأستأنفها في اليوم التالي.

- "هل قلتَ إنك تناولت المخدّر أم ذهبت إلى هناك؟"

قال:"لا تكن فظّاً. ألا تريدني أن أخبرك بالبقيّة؟"

قلت:"كلا" وأغلقت دفتري ووضعته في جيبي."

- "ألا يهمّك أن تعرف كيف انتهت الرحلة؟"

- "كلا"

- "ألا تهتّم بحياة إنسان مثلك ومعاناته؟"

- "ليس بك أنت."

- "أنت متوحّش."

- "نعم ."

– "ظننت أنك تستطيع مساعدتي، يا همنجواى."
– " سأغدو سعيداً إذا أطلقت النار عليك."
– "أتفعل ذلك؟"
– "لا، لأنه يوجد قانون يجرّم ذلك."
– "أما أنا فأفعل أيّ شيء من أجلك."
– "حقاً؟"
– "طبعاً."
– "إذن ابتعد عن هذا المقهى. ابدأ بهذا."
ونهضت واقفاً وحضر النادل ودفعت ما عليّ.
– " هل تسمح لي أن أتمشّى معك إلى المنشرة، يا همنجواى."
– "لا."
– "حسن، سأراك في وقت آخر."
– "ليس هنا."
قال: "وهو كذلك. أعدك."
وارتكبت خطأ إذ سألته: " ماذا تكتب الآن؟"
– " أكتب أفضل ما أستطيع. تماماً كما تفعل أنت. ولكن الأمر صعب جداً."
– " ينبغي ألا تكتب إذا كنت لا تستطيع أن تكتب. ولماذا يتوجب عليك أن تتباكى بسبب ذلك. اذهب إلى بلادك. احصل على وظيفة. اشنق نفسك. فقط لا تتكلم عنها. أنت لا تستطيع الكتابة أبداً."

- " لِمَ تقول ذلك؟"
- " هل سمعت نفسك وأنت تتكلّم؟"
- " إنني أتكلم عن الكتابة."
- " إذاً اصمت."

قال:" إنك لقاسٍ حقاً. كان كل واحد يقول عنك باستمرار إنك قاس وبلا قلب ومغرور. وكنت أدافع عنك دائماً. ولكن لن أفعل ذلك بعد اليوم."

- " حسن."
- " كيف يمكنك أن تقسو على إنسان مثلك؟:

قلت:" لا أدري. اسمع. إذا كنت لا تستطيع أن تكتب، لماذا لا تتعلم كتابة النقد؟"

- " أتعتقد أنني يجب أن أفعل ذلك."

فأخبرته:" سيكون أفضل. وعند ذاك تستطيع أن تكتب دائماً. وسوف لا يساورك القلق بشأن عدم مجيء الكتابة وتحوّلك إلى أصمّ أبكم. وسيقرأ الناس ما تكتب ويحترمون رأيك."

- " أتظنّ أن في وسعي أن أصبح ناقداً جيداً؟"
- " لا أعرف مدى الجودة. ولكن بإمكانك أن تكون ناقداً. سيكون هناك دوماً مَن يساعدك، وأنت تساعد جماعتك."
- " ما الذي تعنيه بجماعتي؟"
- " الذين تخرج معهم."
- " آه، هؤلاء. لهم نقّادهم."

وقلت:" لا يتحتم عليك أن تكون ناقد كتب. هناك اللوحـــات، والمسرحيات، والباليه، والسينما،"

-" إنك تجعل الأمر شائقا، يا "همنجواى"، أشكرك كثيرا. إنه لأمر مثير. والنقد كتابة إبداعية كذلك."

_"كثيراً ما نبالغ في شأن الإبداع. وبعد هذا وذاك فالله خلــق العالم في ستة أيام واستراح في اليوم السابع."

-" وطبعاً لا شيء يمنع من مزاولة الكتابة الإبداعيّة كذلك؟"

-" لا شيء. ما عدا وضعك مقاييس عالية في نقدك يــستحيل بلوغها."

-" ستكون مقاييسي عالية. يمكنك أن تعتمد عليّ في ذلك."

-" أنا على يقين من هذا."

وبعد أن أصبح ناقداً دعوته لتنـــاول مــشروب معـــي فلبـــى الدعوة.

قال: " همنجواى،" فتأكد لي أنه صار ناقداً لأن النقّاد يضعون في أحاديثهم اسمك في بداية الجملة وليس في آخرها، " علــيّ أن أبلّغك أنني ألفي أسلوبك متخشّباً بعض الشيء."

قلت:" هذا مؤسف جداً."

- " همنجواى، إنه أجرد أكثر من اللازم وأعجف أكثر مــن اللازم."

- " يا لسوء الحظّ."

- " همنجواى، إنه متخشّب كثيراً، وأجرد كثيــراً، وأعجــف كثيراً، ومتصلّب كثيرا."

وتحسست قدم الأرنب في جيبي مع شعور بالـذنب. وقلـت: " سأحاول أن أسمّنه قليلاً."

– " تذكّر أنني لا أريده مترهلاً."

وقلت له مقلداً النقاد في الكلام:" هال*، سأتجنّب ذلـك قـدر الإمكان."

وقال بحزم:" يسرّني أن نتفق في وجهة نظرنا."

– " وتتذكّر ألا تأتي إلى هنا عندما أعمل؟"

– " طبعا، همنجواى، من الطبيعي. أصبح لي مقهى خـاص بي الآن."

– " أنت لطيف جداً."

قال:" أحاول أن أكون كذلك."

كان الأمر مثيراً ومفيداً لو أن ذلـك الـشاب أصـبح ناقـداً مشهوراً، ولكن ذلك لم يحدث على الرغم مـن أن آمـالا كبيـرة راودتني بعض الوقت.

لم أكن أتوقّع مجيئه في اليوم التالي ولكنني لم أشأ أن أخاطر وقررت أن أمنح (بستان الليلك) عطلة يوم. وهكذا استيقظت باكراً في الصباح التالي، وغسلت قنينة الإرضاع وحلمتها فـي المـاء المغلي، وأعددت الحليب، ووضعته في القنينة، وأعطيتهـا للـسيد بومبي*، واشتغلت على طاولة غرفة الطعام قبل أن يستيقظ أحـد غيره وغير القط ف. بوس* وأنا. وكان كلاهمـا هادئـاً ونعـم الرفيق، واشتغلت أفضل من أي وقت مضى. وفي تلك الأيام كنت

لا تحتاج في الحقيقة لأي شيء، حتى ولا لقدم الأرنب، ومع ذلـــك فقد كان من الأفضل أن تحسّ أنها في جيبك.

١١

مع باسين* في مقهى القبة

كان مساء رائعا وكنتُ قد عملت بجد طوال النهار، فغادرت شقّتي الكائنة فوق المنشرة وخرجت ماراً بباحة العمارة المكتظّة بأكوام مبعثرة من الخشب، وأغلقت الباب ورائي، وقطعت الشارع، وذهبت إلى الباب الخلفي للمخبزة التي تقع واجهتها على شارع مونبرناس*، وتناهت إليّ وأنا اخترق المخبزة متّجهاً إلى الشارع، روائح الخبز الشهيّة المنبعثة من الأفران والدكان. وكانت مصابيح المخبزة مضاءة في حين كان النهار في الخارج يلفظ أنفاسه الأخيرة. وسرتُ في الشارع في ضوء الغسق، وتوقّفت أمام شرفة مطعم (زنجي تولوز)* حيث وُضعت المناديل ذات المربعات الحمراء والبيضاء في حلقات خشبية على رفّ خاص وهي في انتظارنا لتناول طعام العشاء. وقرأت لائحة الطعام المخطوطة بحبر قرمزي ولحظت أن "صحن اليوم" مجموعة من المقبّلات الشهيّة. وشعرت بالجوع بمجرد قراءة اسمها.

وبادرني صاحب المطعم السيد لافين* بالسؤال عن سير عملي فقلت له إنه على أحسن ما يرام. وقال لي إنه سبق أن

شاهدني ذات يوم وأنا أكتب في شرفة مقهى بستان الليلك في الصباح الباكر ولكنه لم يكلمني لأنني كنت منهمكاً تماماً. وقال:

- كان يبدو عليك وكأنك رجل وحيد في الأدغال.

- إنني مثل خنزير أعمى عندما أعمل.

- ولكن ألم تكن في الأدغال.

قلت: في البستان.

وواصلت سيري في الشارع وأنا أشاهد واجهات المحملات. وغمرتني السعادة بفضل تلك الأمسية الربيعية ووجوه المارّة من الناس. ورأيت في المقاهي الرئيسة الثلاث في ذلك الشارع أناساً أعرف بعضهم بوجوههم وبعضهم الآخر سبق أن تبادلت الحديث معهم. ولكن كان هناك دائما أناس عديدون أكثر أناقة لم أكن أعرفهم وهم مسرعون، في تلك الأمسية وقد أخذت مصابيح الشوارع تُضاء، إلى مكان ما ليشربوا معاً، أو يأكلوا سوية، ومن ثم ليتطارحوا الغرام. وقد يفعل الناس الجالسون في المقاهي الرئيسة الشيء ذاته أو يستمتعون فقط بالجلوس والشراب والحديث ويسرّهم أن يراهم الآخرون. أما الناس الذين أحبّهم ولم ألتق بهم في ذلك الشارع فإنهم ذهبوا إلى المقاهي الكبرى لأنهم سيضيعون هناك ولا يلاحظهم أحد، وهكذا يصير بميسورهم أن يمضوا الأمسية وحدهم ومع الآخرين في آن واحد. والمقاهي الكبرى رخيصة كذلك، وجميعها تتوفر على جعة جيّدة ومشهّيات لذيذة بأسعار معقولة دُوّنت بوضوح على الصحون التي تقدّم فيها.

راودتني في تلك الأمسية أفكار عامّة ولكنها ليست أصـــيلة. شعرت باستقامتي الفائقة لأنني عملت طوال النهار عمــلاً جــاداً جيّداً مع أن رغبة الذهاب إلى سباق الخيل قد ألحّت عليّ بشدة في ذلك اليوم. ولكن في ذلك الوقت لم يكن بوســعي الــذهاب علـــى الرغم من إمكان كسب المال هناك إن بذلتُ جهــداً فـــي دراســـة ظروف السباق. كان ذلك قبل ظهور اختبارات اللعاب والوســـائل الأخرى التي تضبط الخيول المنشّطة اصطناعياً، وكان اســـتعمال العقاقير المنشّطة يُمارس بكثرة. وهكذا فإذا استطعتَ أن تتعــرّف على الخيول التي تناولت المنشطات من الأعــراض التـــي تبـــدو عليها وهي في الحقل المجاور لحلبة السباق مـــع اســـتخدام نفـــاذ البصيرة الذي يقع أحياناً خارج حدود الإدراك الحسّيّ، ودعمـــتَ ذلك بشيء من المال فإنه لا يمكنك أن تخسر، ولكن ليـــست تلـــك هي الطريق التي ينبغي أن يسلكها شاب في مقتبل العمـــر يعيـــل زوجة وطفلاً ومتفرغ تماماً لتعلّم كتابة النثر.

كنا ما نزال فقراء جداً بجميع المقاييس، وكنـــت مـــا زلـــت أحاول أن أوفّر بعض النقود القليلة فأخبر زوجتي، مـــثلاً، أنننـــي مدعو للغداء ثم أمضي ساعتين أتمشّى في حـــدائق لوكـــسمبورغ، وأعود إلى المنزل لأصف لها ذلك الغداء الرائع. عنـــدما يكـــون عمرك خمسة وعشرين عاماً وجسمك من الوزن الثقيل بطبيعتـــه، فإنك تجوع جداً إذا فاتتك إحدى الوجبات اليوميّة. ولكـــن الجـــوع يجعل إدراكك أكثر حدّة، واكتشفتُ أن عدداً من الناس الذين كتبت

عنهم لهم شهيّة قويّة ورغبة عارمة في الطعام، ويتلهّف معظمهم إلى تناول المشروبات.

لقد شربنا نبيذ (كاهور)* الجيّد من الغرافة بالربع والنصف أو بالكامل في مقهى (زنجي طولوز)، وعادة يمزج هذا النبيذ بالماء بما يساوي الثلث تقريباً. وفي بيتنا الواقع فوق المنشرة، لدينا نبيذ كورسيكي ذو سطوة عظيمة وهو زهيد الثمن. إنه نبيذ كورسيكي أصيل يمكنك أن تمزجه بالماء مناصفة ومع ذلك تصلك رسالته. وفي تلك الأيام يمكنك أن تعيش جيّداً في باريس على لا شيء تقريباً، وبتخطّي وجبات من حين لآخر وعدم شراء ملابس جديدة نهائياً، يمكنك أن توفّر بعض المال جانباً لتنعم ببعض الترف.

رجعت من مقهى (النخبة)* بعد أن غيّرت رأيي في دخوله لدى رؤية هارولد ستيرنز* الذي كنت أعرف أنه سيتكلم عن الخيول، تلك الحيوانات التي أعتقد بحق ورضى أنني نسيتها. ولما كنت ممتلئاً بالشعور بالاستقامة ذلك المساء فقد مررت بمجموعة من الزملاء في مقهى (روتوند)، وعبرت الشارع وأنا ألعن الرذيلة والغريزة الجماعية، واتجهت إلى مقهى (القبة). وكان هذا المقهى مزدحما كذلك، ولكنه يضم أناساً أمضوا النهار في العمل.

كان في ذلك المقهى عارضات أزياء عملن طوال النهار، ورسامون عملوا كذلك حتى تلاشى ضوء النهار، وهناك نُدُل أنهوا عمل نهار بحسناته وسيئاته، وهناك ندامى وشخصيات أعرف بعضهم وبعضهم الآخر للزخرفة المحضة.

دخلت ذلك المقهى وجلست إلى طاولة مع باسين* وعارضتَي أزياء كانتا أختين. فقد لوّح لي باسين بيده عندما كنت واقفا على الرصيف في شارع دلامبر* وأنا أتساءل في نفسي عما إذا كان ينبغي أن أتوقف هنا وأتناول مشروباً أم لا. وباسين رسّام جيد وكان ساعتئذ ثملاً، ولكنه متماسك ومعقول. وكانت عارضتا الأزياء شابتين وجميلتين. إحداهما سمراء جداً وصغيرة، ولها قوام جميل وتعطي انطباعاً زائفاً بالتهتّك. والأخرى مثل طفلة بليدة ولكنها جميلة جداً بشكل طفولي. ولم يكن لها القوام الجميل الذي لأختها.

قال باسين: " الأختان الصالحة والطالحة. عندي نقود؛ ماذا ستشرب؟"

قلت للنادل:" نصف غرافة من الجعة."

ـــ خذ ويسكي. عندي نقود.

ـــ أحب الجعة.

ـــ لو كنت تحب الجعة حقا لذهبتَ إلى (ليبس)*. أفترضُ أنك كنت تعمل طوال النهار؟

ـــ نعم.

ـــ والعمل في تقدم؟

ـــ بصورة جيدة، وأنا مسرور، وكل شيء مازال له مذاق طيّب.

ـــ كم عمرك؟

ـــ خمس وعشرون.

ـــ هل تريد أن تضاجعها؟ ونظر في اتجاه الأخت السمراء وابتسم " إنها بحاجة إلى ذلك."

ـــ ربما ضاجعتها أنت اليوم بما فيه الكفاية.

وابتسمت لي بشفتين منفرجتين، وقالت:" إنه شرير، ولكنه لطيف."

ـــ يمكنك أن تأخذها إلى المرسم.

وهنا قالت الأخت الشقراء:" لا تكن بذيئاً."

فسألها باسين:" مَن وجّه الكلام إليك؟"

ـــ لا أحد ولكني قلت رأيي.

فقال باسين:" دعونا نرتاح. الكاتب الشاب الجاد، والرسام العجوز الودود العاقل، والفتاتان الجميلتان، والحياة كلها أمامهم."

وجلسنا هناك، والفتاتان ترتشفان مشروبهما، وباسين يتناول كأس نبيذ ثانية، وأنا أشرب جعتي، ولكن ما من أحد كان مرتاحاً ما عدا باسين. فالفتاة السمراء متململة وجالسة بوضعية استعراضية وهي تدير وجهها لتدع الضوء يسقط على أجزائه المقعرة، وتسمح لي برؤية نهديها من تحت الكنزة السوداء. وكان شعرها ذو القَصَّة القصيرة ناعماً وأسود مثل شعر فتاة شرقيّة.

وقال لها باسين:" لقد وقفتِ طوال اليوم للعرض، فهل عليك أن تستعرضي هذه الكنزة في المقهى الآن كذلك؟"

فقالت:" إن ذلك يسرّني."

قال:" تبدين مثل لعبة جاوية."

قالت:" ليس العينان. إن الأمر أكثر تعقيداً مما تقول"

ـــ إنك تشبهين دمية صغيرة شريرة مسكينة.

قالت: " ربما، ولكن مليئة بالحياة أكثر منك."

ـــ سنرى ذلك.

قالت: " حسن. أحب البراهين."

ـــ ألم يكفك برهان اليوم؟

ـــ "آه ، ذلك." ثم استدارت لتتلقى أشعة المساء الأخيرة بوجهها، " كل ما هناك إنك كنت منهمكا بعملك." ثم قالت لي : " إنه يعشق قماش الرسم. هناك دائماً نوع من القذارة."

قال باسين:" تريدينني أن أرسمك وأدفع لك مقابل ذلك وأضاجعك ليبقى فكري صافياً، وأعشقك كذلك، أيتها الدمية الصغيرة المسكينة."

وسألتني:" أنت تجدني جميلة، أليس كذلك؟

ـــ جداً.

فقالت بحزن:" ولكنك ضخم أكثر من اللازم."

ـــ الجميع بنفس المقاس في الفراش.

فقالت أختها:" هذا ليس صحيحاً. وقد مللت هذا الكلام."

قال باسين: " اسمعي، إذا كنت تظنين أنني مغرم بالقماش، فسأرسمك بالألوان المائية غداً."

وسألت أختها: " متى سنأكل، وأين؟"

وسألتني الفتاة السمراء: "هل ستأكل معنا؟"

فقلت:" لا، سأذهب لآكل مع رفيقتي الشرعية." هكذا كانوا يقولون يوم ذاك عن الزوجة، أما اليوم فيقولون"رفيقتي المعتادة"

ـــ وهل عليك أن تذهب؟
ـــ عليّ أن أذهب وأريد أن أذهب.
فقال باسين:" اذهب إذن، ولا تقع في غرام ورق الآلة الكاتبة."
ـــ إذا حدث ذلك، فسأكتب بقلم الرصاص.
فقال:" غداً، الألوان المائية. حسن، يا أبنائي، سأشرب كأساً أخرى، ونأكل حيث تشاءون."
فقالت الفتاة السمراء:" في مطعم الفايكنغ."
وقالت أختها حاثة:" وأنا كذلك."
وقال باسين موافقاً:" طيب. ليلة سعيدة أيها الشاب، نَمْ جيّداً."
ـــ "وأنت كذلك."
قال:" سيبقيانني مستيقظاً. لن أنام."
ـــ "نم هذه الليلة."
ـــ "بعد الذهاب إلى مطعم الفايكنغ"*. وابتسم ابتسامة عريضة وقبعته على مؤخرة رأسه. وبدا مثل شخصية مسرحية من شخصيات برودواي* في التسعينات وليس ذلك الرسّام الرائع الذي عرفته. وفيما بعد، عندما شنق نفسه، كنت أود أن أتذكره كما كان في تلك الليلة في مقهى (القبة). يقولون إن بذور ما سنفعل في المستقبل كامنة في كل واحد منا، ولكن كان يبدو لي دائماً أن أولئك الذين يتندرون في الحياة لهم بذور مغطاة بتربة أفضل ومدعمة بسماد أرقى.

١٢

عزرا باوند وحبه للأدب

كان عزرا باوند دائماً ذلك الصديق الطيّب الذي يفعل الخير للآخرين باستمرار. ولا يقارَن فقر الشقّة الصغيرة التي يسكنها وزوجته دوروثي* إلا بغنى شقّة غيرترود شتاين. وتتوفر شقّته على ضوء جيد وموقد لتدفئتها وفيها لوحات لفنانين يابانيين من معارف عزرا. وهؤلاء الفنانون هم من المعروفين في بلادهم ولهم شَعر طويل أسود لامع يهبط إلى الأمام عندما ينحنون؛ وكنت معجباً بهم جداً، ولكن لوحاتهم لم ترُق لي. لم أفهم تلك اللوحات على الرغم من أنها ليست لغزاً، وعندما كنت أفهمها لم تكن تعني شيئاً لي. وكنت آسف لذلك ولكن لم يكن بوسعي أن أفعل شيئاً بصدده.

أما لوحات دوروثي فقد أحببتها كثيراً، وألفيت دوروثي جميلة جداً ولها قوام رائع. وأحببت كذلك تمثال عزرا النصفي الذي صنعه النحات غودبير-برزيسكا*، وأعجبتني جميع الصور الفوتوغرافية لأعمال ذلك النحات التي أطلعني عليها عزرا في الكتاب الذي ألّفه عنه. وأعجب عزرا كذلك بلوحات بكابيا* ولكنني ظننت آنذاك أنها لا قيمة لها. وكذلك لم تعجبني لوحات

وندهام لويس* التي أعجب بها عزرا كثيراً. كان يحب أعمال أصدقائه، وهذا شيء جميل كالإخلاص، ولكنه يمكن أن يتحول إلى كارثة كإصدار الحكم. ولم نتجادل أبداً حول هذه الأمور لأنني كنت ألزم الصمت بشأن الأمور التي لا أحبها. فقد شعرت بأنه من المحتمل أن يكون حبّ الإنسان للوحات أصدقائه أو إنتاجهم الأدبي شبيهاً بحب الناس لأسرهم، وليس من الكياسة انتقادهم. يمكنك أحياناً أن تصبر وقتاً طويلاً قبل أن تنتقد الأهل، أهلك الأقربين أو بالمصاهرة، ولكن الصبر أيسر في حالة الرسّامين السيئين؛ لأنهم لا يقترفون أفعالا مشينة ولا يسبّبون أذى بالغا كما يستطيع الأقارب ذلك. وكل ما تحتاج أن تفعله في حالة الرسّامين السّيئين هو أن لا تنظر إلى لوحاتهم. ولكن حتى لو تعلّمت ألا تنظر إلى الأقارب وألا تستمع إليهم وألا تجيب على رسائلهم، فإن لهم طرقاً عديدة لخلق المتاعب. لقد كان عزرا أكثر عطفاً على الناس وأكثر تديُّناً في تعامله معهم مما كنت. وكانت كتاباته، عندما يجيد، رائعة الكمال؛ وهو مخلص في أخطائه، ومفتون بهفواته، وفي منتهى اللطف مع الآخرين؛ ولهذا كنت أعدّه دائماً من القدّيسين. وهو كذلك سريع الغضب ولكن ربما وجد عدة قدّيسين غضوبين على شاكلته.

طلب مني عزرا أن أعلّمه الملاكمة، وبينما كنا نتمرن على الملاكمة في عصر يوم من الأيام في شقته التقيت بوندهام لويس* لأول مرة. لم يكن عزرا قد تمرّن على الملاكمة لوقت كاف وكنت أخجل من جعله يتلاكم أمام أحد من معارفه، وحاولت أن

أظهره في أفضل وضع ممكن. وكان ذلك صعباً لأن معرفته السابقة بالمبارزة بالسيف تؤثّر سلباً على تعلّمه مهارات الملاكمة. وكنت ما أزال أدرّبه على استخدام يده اليسرى في الملاكمة وتحريك قدمه اليسرى إلى الأمام دائماً ثم وضع قدمه اليمنى بموازاتها. وهي حركات أساسية. ولم أتمكّن مطلقاً من تعليمه كيف يسدّد لكمة خاطفة من يساره؛ أما تعليمه كيفية تقصير يمناه فقد تُرك للمستقبل.

كان وندهام لويس يضع على رأسه قبعة عريضة سوداء، مثل شخصية من الشخصيات المسرحية ويرتدي زياً مثل زيّ واحد من المشردين. وكان له وجه يذكرني بضفدع، ليس بضفدع كبير ولكن مجرّد أيّ ضفدع، وكانت باريس بمثابة بركة كبيرة بالنسبة إليه. كنا نعتقد في ذلك الوقت أن أيّ كاتب أو رسّام يستطيع أن يرتدي أيّ ملابس يمتلكها ولم يكن ثمة زيّ رسميّ للفنان، ولكن لويس كان يرتدي بذلة فنان ما قبل الحرب. وشعرت بالحرج وأنا أراه وهو ينظر بشموخ إلينا عندما كنت أتفادى الضربات التي يسدّدها عزرا إليّ أو أصدّها بقفاز اليد اليمنى المفتوح.

أردت أن نتوقّف غير أن لويس أصرّ على أن نستمرّ، وعلى الرغم من أنني لم أكن مدركاً لخفايا الأمور فقد شعرت بأنه كان يأمل أن يصاب عزرا بأذى. لم يحدث شيء؛ لأنني لم أردّ مطلقاً على هجمات عزرا وإنما تركت عزرا يتحرّك باتجاهي ماداً يده

اليسرى ومسدّداً بعض اللكمات بيده اليمنى، ثم قلت إننـــا انتهينـــا وغسلت يديّ بإبريق ماء ونشفتهما بمنشفة وارتديت كنزتي.

وتناولنا كأسا من شراب ما واستمعت إلى عزرا ولويس وهما يتحدّثان عن أناس في لندن وباريس. وراقبت لويس بعنايـــة دون أن يبدو عليّ أنني كنت أنظر إليه، كما تفعل وأنـــت تلاكـــم، ولا أظن أنني رأيت في حياتي كلّها رجلاً يفوقه لؤماً. فبعض النـــاس تظهر عليهم إمارات الشرّ كما تظهر علامات التهذيب على جواد أصيل. ولهؤلاء الأشرار عنفوان القرحة الصلبة. ولويس لم يظهر عليه الشر وإنما كان الشرّ مجسّداً.

وبينما كنت أسير عائداً إلى منزلي أخذت أتساءل عن الشيء الذي يذكّرني به مرآه. وكانت هناك أشياء مختلفة. كلها طبّية مـــا عدا "بوز الحذاء" وهذه كلمة عامية. حاولـــت أن أجـــزئ وجهـــه وأصفه ولكني استطعت أن أحصل على العينين فقط. فتحت القبعة السوداء بدت عيناه، لدى رؤيتهما أول مرة، مثل عيني مغتـــصب نساء فاشل. وقلت لزوجتي:" لقد قابلت اليوم شرّ رجل رأيت فـــي حياتي."

قالت:" يا تاتي ، لا تحدثني عنه. رجاء لا تحدثني عنه. فنحن على وشك تناول طعام العشاء."

وبعد أسبوع تقريباً التقيت الآنسة شتاين وأخبرتها أنني قابلت وندهام لويس وسألتها ما إذا كانت قد تعرّفت عليه يوماً.

قالت:" إنني أدعوه بـــ " الدودة ذات المقياس". إنه يأتي مـــن لندن إلى باريس ويرى لوحة جيدة فيخرج قلماً من جيبه، وتـــراه

يقيس اللوحة بالقلم وإبهامه. ويطيل النظر إليها ويقيسها ويرى بالضبط كيف رُسمت. ثم يعود إلى لندن ويرسمها ولكنه لا يفعل ذلك بصورة صحيحة، إذ يفوته جوهر الموضوع تماماً.

وهكذا اعتبرته دودة ذات مقياس. وهذا تعبير ألطف وأكثر تسامحاً مما فكرت به شخصياً عنه. وحاولت في وقت لاحق أن أحبّه وأكون صديقه كما فعلت مع أصدقاء عزرا جميعهم تقريباً بعد أن فسّر فحوى تصرفاتهم لي. ولكن هكذا بدا لي لويس عندما لقيته أول مرة في شقّة عزرا الصغيرة.

كان عزرا أكثر الأدباء الذين عرفتُهم كرماً وأعظمهم نزاهة. لقد ساعد شعراء ورسّامين ونحّاتين وكُتّاباً آمنَ بموهبتهم، وكان على استعداد لمساعدة أي إنسان آخر في مأزق سواء أكان ذا موهبة أم لا. كان يحمل هموم الجميع، وفي الوقت الذي التقيت به أول مرة كان قلقاً جداً بخصوص ت.س. إليوت*، الذي كان ـــ كما أخبرني عزرا ـــ يعمل في بنكٍ بلندن، ولهذا لا يتاح له الوقت الكافي ولا الساعات المناسبة لممارسة نظم الشعر.

أسّس عزرا صندوقاً اسمه (حب الأدب) بالتعاون مع الآنسة ناتالي بارني* وهي امرأة أمريكية غنيّة ومشجّعة للفنون. وكانت الآنسة بارني قد ارتبطت بصداقة مع رمي دي غورمون* الذي عاش قبل وقتي، ولها ندوة أدبيّة (صالون أدبي) في دارها تنعقد بمواعيد منتظمة، وتشتمل حديقة منزلها على معبد إغريقي. وكان لعدد من النساء الثريات الفرنسيات والأمريكيات صالونات أدبية، وقررت منذ البداية أن تلك الصالونات أماكن ممتازة ولكن عليّ

أن أبتعد عنها، غير أن الآنسة بارني، على ما أعتقد، هي الوحيدة التي تتوفّر على معبد إغريقي في حديقتها.

لقد أطلعني عزرا على مطويّة صندوق حب الأدب، وسمحت له الآنسة بارني بوضع صورة المعبد الإغريقي الصغير على المطويّة. وتتلخص فكرة الصندوق في مساهمتنا جميعاً في التبرع بجزء مما نكسب لنوفّر مبلغاً من المال يكفي لإخراج السيد إليوت* من البنك ليتفرغ لنظم الشعر. وبدت لي تلك الفكرة جيّدة. وبعد أن أخرجنا السيد إليوت من البنك، قرّر عزرا أن نواصل العمل ونساعد الآخرين.

كنت أخلط الأشياء بعض الشيء، إذ كنت أشير دائماً إلى إليوت باسم ميجر إليوت (وميجر اسم علم بالإنجليزية وتعني كذلك ضابطاً عسكرياً) متظاهراً بخلطه بـ (ميجر دوغلاس) وهو اقتصادي كان إليوت يتحمّس كثيراً لآرائه. ولكن عزرا فهم من ذلك أن قلبي في المكان الصحيح وأنه مليء بحب الأدب حتى وإن انزعج عزرا عندما كنت أطلب من أصدقائي التبرع لإخراج ميجر إليوت من البنك، فيسأل أحدهم عما يعمله ميجر في بنك على أيّ حال، وإذا كان قد صُرف من الخدمة العسكرية ألا يتلقى راتباً تقاعدياً أو على الأقل مكافأة نهاية الخدمة؟

في مثل تلك الحالات كنت أشرح لأصدقائي أن ذلك كله لا علاقة له بالموضوع، فإما أن تتوفر على حب الأدب أو لا. فإذا توفرت عليه فأنت تتبرع لتخليص الميجر من البنك، وإذا لم تتوفر عليه فهذا شيء سيّئ جداً. ألم يفهموا دلالة المعبد الإغريقي

الصغير؟ لا؟ هذا ما ظننت. سيئ جداً، يا ماك. احتفظ بنقودك. إننا لا نمسّها.

وكنت بصفتي عضواً في صندوق حبّ الأدب أقوم بحملات نشطة، وكان أغلى أحلامي في تلك الأيام هو أن أرى الميجر رجلاً حرّاً خارج البنك. لا أتذكر كيف انتهى صندوق حبّ الأدب، ولكن أعتقد أن لذلك علاقة بنشر قصيدة (الأرض اليباب) التي أهّلت الميجر لنيل جائزة الدايل*، وبعد ذلك بوقت قصير دعمت سيدة تحمل لقبا من ألقاب النبلاء مجلة يصدرها إليوت تدعى (المعيار)*، ولم يعد القلق يساورني أنا وعزرا بشأنه. وأظن أن المعبد الإغريقي الصغير ما يزال في الحديقة. لقد ظلت الخيبة تلاحقني دوماً لأننا لم نستطع تخليص الميجر من البنك بصندوق حبّ الأدب وحده، وكنت أتصوّره في أحلامي قادماً ليعيش في المعبد الإغريقي الصغير، وأستطيع أن أذهب مع عزرا لتتويجه بأزهار الغار. وكنت أعرف أين أعثر على أزهار غار جميلة يمكنني اقتطافها، كنت سأذهب إليها ممتطيا دراجتي، وكنت أظن أن بإمكاننا أن نتوّجه في أي وقت يشعر بالوحدة أو في الوقت الذي ينتهي فيه عزرا من مراجعة مسودة قصيدة أخرى كبيرة مثل قصيدة (الأرض اليباب). ولكن الأمر برمته سار بشكل سيّئ من الناحية الأخلاقية بالنسبة لي، شأنه شأن كثير من الأمور؛ إذ أخذتُ المال الذي ادخرته لإخراج الميجر من البنك، إلى ضاحية أنغهاين وأنفقته على الرهان على خيول القفز التي كانت تحت تأثير المنشطات. وفي سباقين من تلك السباقات، كانت الخيول

المنشّطَة التي راهنت عليها قد سبقت الخيول التـــي لـــم تتنـــاول المنشطات أو التي لم تتناول منها ما يكفي، باستثناء سباق واحـــد كان فيه الحصان الذي راهنت عليه قد تناول المنشّطات أكثر مـــن اللزوم لدرجة أنه رمى براكبه الجوكي أرضاً حتى قبـــل أن يبـــدأ السباق وهرب جريا وأتم دورة كاملة حول الحلبـــة وهـــو يقفـــز قفزات رائعة لوحده كما يقفز الواحد منا في حلم. وبعد أن أوقفـــوه وركبه الجوكي شارك في السباق وحاز على نتيجة مشرفة، كمـــا يقول الفرنسيون، ولكن بدون أن يربح أي شيء.

كنت سأسرّ أكثر لو ذهبت مدّخراتي إلى صندوق حب الأدب الذي لم يعد موجوداً، ولكنني كنت أطمـــئن نفـــسي قـــائلا إننـــي سأستطيع أن أتبرع من أرباح سباق الخيل بأكثر مما كنت أعتـــزم في الأصل.

١٣
نهاية غريبة حقاً

إن الكيفية التي انتهت بها علاقتي مع غيرترود شتاين غريبة حقاً. كنا قد أصبحنا صديقين حميمين، وقدمتُ لها خدمات عملية مثل إقناعي فورد* بالشروع في نشر كتابها الطويل على حلقات مسلسلة في مجلته، وساعدتها على طباعة مسوّدات الكتاب وتصحيحها. وكانت صداقتنا ستغدو أكثر حميمية مما كنت آمل لها. ولكن ليس ثمة مستقبل كبير لرجال تربطهم صداقة بسيدات عظيمات على الرغم من أن هذا النوع من الصداقة ممتع تماماً قبل أن يؤول إلى الأفضل أو الأسوأ، ويتضاءل عادة مستقبل هذا الصنف من الصداقة مع النساء الكاتبات الطموحات جداً. وذات مرة، عندما تذرّعتُ لعدم توقفي عند الرقم ٢٧ في شارع فليريس ردحاً من الزمن بجهلي ما إذا كانت الآنسة شتاين في المنزل، قالت لي :" ولكن، يا همنجواي، لك حرية دخول المنزل متى ما شئت، ألا تعرف ذلك؟ وأنا أعني ما أقول حقيقة، تعال في أي وقت والخادمة ــ وذكرت اسمها ولكنني نسيته ــ ستعتني بك، واشعرْ أنك في بيتك ريثما أصل."

لم أسئ استعمال هذا التخويل، بيد أني كنت أدخل الشقة أحياناً وتقدم لي الخادمة شراباً، وألقي نظرة على اللوحات، وإذا لم تصل الآنسة شتاين، شكرت الخادمة وتركت رسالة وانصرفت.
وفي يوم من الأيام كانت الآنسة شتاين ورفيقة لها تستعدّان للسفر جنوبا بسيارة الآنسة شتاين، وقد طلبت مني أن آتي لتوديعها يوم سفرها قبل الظهر. دعتنا لزيارتها، وكنت وهادلي نقيم في فندق، ولكن كنا قد عزمنا على الذهاب إلى مكان آخر. ولم أذكر ذلك للآنسة شتاين بطبيعة الحال، آملاً أن نتمكن مع ذلك من الذهاب لتوديعها، بيد أن ذلك لم يتسنَّ لنا. لم أكن أعرف الكثير عن كيفية التخلف عن المواعيد. وكان عليّ أن أتعلّم. وأخبرني بيكاسو فيما بعد أنه كان يَعد الأغنياء دائما بالمجيء عندما يدعونه لأن ذلك يسرّهم، ثم يحصل طارئ يحول دون تلبية الدعوة. ولكن قوله ذلك لا علاقة له بالآنسة شتاين وإنما ذكره عن أناس آخرين.
كان يوماً ربيعياً رائعاً، ومشيت من ساحة المرصد عبر حديقة لكسمبورغ الصغيرة، وأشجار الكستناء قد تفتّحت أزهارها وعدة أطفال يلعبون في الممرات المغطاة بالحصى في حين جلست مربياتهم على المساطب، ورأيت حمائم على الأشجار وسمعت هديل حمائم أخرى لم أستطع رؤيتها.
فتحت الخادمة الباب قبل أن أدقّ الجرس ودعتني للدخول والانتظار، قائلة إن الآنسة شتاين ستنزل من غرفتها في أي لحظة. كان ذلك قبل الظهر ومع ذلك فقد صبّت لي الخادمة كأساً من الخمر ووضعته في يدي، وغمزت بانشراح. وشعرت بمذاق

الخمر الصافي، وكان ما يزال في فمي عندما سمعت مَن تخاطب الآنسة شتاين بطريقة لم أسمع بمثلها من قبل في أي مكان آخــر بتاتاً.

ثم وصلني صوت الآنسة شتاين وهي تتضرّع وتتوسّل قائلة:" لا، لا، يا قطتي، لا، لا تفعلي ذلك، أرجوك. ســأفعل أي شـــيء تريدين، يا قطتي، ولكن لا تفعليها. أرجوك لا، أرجــوك لا، يــا حبيبتي."

واحتسيت شرابي ووضعت الكأس على الطاولـــة وتوجّهــت نحو الباب. وأشارت الخادمة إليّ بإصبعها، وهمست :" لا تذهب. ستنزل هي حالاً."

ــ" عليّ أن أذهب." قلت لها ذلك وأنا أحاول ألا أسمع أكثر، ولكن التوسّلات ما انفكت تصل مسمعي، والسبيل الوحيد لوضـــع حدّ لذلك هو مغادرة المنزل. كان ما سمعته سيئاً والإجابة أسوأ.

وفي باحة العمارة، قلت للخادمة:" أرجوكِ قولي إنني أتيــت إلى باحة العمارة والتقيتك، وإنني لم أستطع الانتظـــار لأن أحـــد أصدقائي مريض. وبلغيها نيابة عني تمنياتي لها بـــسفر ســعيد. وسأكتب إليها."

ــ" مفهوم، يا سيدي، من المؤسف أنك لا تستطيع الانتظار."

قلت:" نعم، كم هو مؤسف."

وهكذا انتهت العلاقة بالنسبة لي، بصورة غبيّة حقــاً، علـــى الرغم من أنني واصــلت تقــديم بعــض الخــدمات الــصغيرة، والحضور في بعض المناسبات الضرورية، ومرافقة أناس طُلبوا،

والانتظار حتى يحين موعد انصرافنا عندما يصل أصدقاء جـدد. ومن المحزن أن أرى لوحات لا قيمة لها تُعلّق بجانـب اللوحـات العظيمة، ولكن ذلك لم يعد مهماً. ليس بالنسبة لي على الأقل. لقـد تشاجرت الآنسة شتاين معنا جميعاً، نحن المولعين بها، مـا عـدا جوان غريس*، ولم يكن بوسعها أن تتشاجر معه لأنه كان ميتـاً. ولست متأكدا من أنه سيعير خصومتها أهمية مـا لأنـه تجـاوز مرحلة الاهتمام وبدا ذلك واضحاً في لوحاته.

وأخيراً تشاجرتْ حتى مع أصدقائها الجدد، ولكن لم يعد أحـد منا يهتم بذلك. لقد أخذت تتصرّف مثل إمبراطور روماني؛ وهـذا جميل إذا كنت تحب أن ترى نساءك يتـصرفن مثـل الأبـاطرة الرومان. غير أن بيكاسو رسمها، وأستطيع أن أتـذكرها عنـدما كانت تبدو مثل امرأة من فريولي.

وأخيراً، تصالح كلّ واحد معها، أو ليس كلّ واحد تماماً، حتى لا يوصف بضيق الأفق أو بالتطرف في الاسـتقامة. وتـصالحتُ معها أنا أيضاً. ولكن لم أستطع أبداً أن أتصالح معها حقاً، لا فـي قلبي ولا في عقلي. وعندما لا تستطيع أن تتصالح في عقلك فذلك هو الأسوأ. ولكن الأمر أكثر تعقيداً من ذلك.

١٤

الرجل الموسوم بالموت

عندما التقيت الشاعر إرنست والش*، ذات مساء، في شقة عزرا باوند، كان برفقة فتاتين ترتديان معطفين طويلين من فرو المنك، وكانت هناك سيارة طويلة لامعة مستأجرة من محلات كلاريج* مع سائقها في انتظاره في الشارع. وكانت الفتاتان شقراوين وقد سافرتا مع والش على الباخرة نفسها. وكانت الباخرة قد وصلت في اليوم السابق واصطحب الفتاتين معه لزيارة عزرا.

كان إرنست والش أسمر قوياً وله ملامح إيرلندية لا تخطئها العين، وشاعرياً، وعلى وجهه أمارات الموت بصورة واضحة، مثل شخصيّة مهيّأة للموت في شريط سينمائيّ. كان يتحدث مع عزرا باوند، فتحدثت مع الفتاتين اللتين سألتاني ما إذا كنت قد قرأت قصائد والش. لم أقرأها، فأخرجت إحدى الفتاتين نسخة ذات غلاف أخضر من (أشعار هاريت مونرو)*، وهي مجلة شعريّة، وأطلعتني على قصائد لوالش فيها، وقالت:

ــ يحصل على ١٢٠٠ دولار عن المقطوعة.

وقالت الفتاة الأخرى: " عن كل قصيدة."

وتذكرت أنني حصلت من المجلة نفسها على ١٢ دولارا عن كل صفحة، فقلت:

" لا بد أنه شاعر عظيم جداً."

وأخبرتني الفتاة الأولى قائلة:" أكثر مما يحصل عليه أدي غيست*."

ـــ أكثر مما يجنيه ذلك الشاعر، تعرف من."

ـــ" كبلنغ*" قالت صديقتها.

وقالت الفتاة الأولى:" أكثر مما يحصل عليه أي شخص آخر."

وسألتهما:" هل ستبقيان في باريس فترة طويلة؟"

ـــ "لا، ليس تماماً، نحن مع مجموعة من الأصدقاء."

ـــ "أتينا على هذه الباخرة، كما تعلم. ولكن لم يكن على متنها أحد، في الحقيقة. كان عليها السيد والش بطبيعة الحال."

وسألتُ:" ألا يلعب الورق؟"

فنظرت إليّ بشيء من الخيبة ولكن بتفهم وقالت:

ـــ لا، ليس مضطراً لذلك. ليس وهو يكتب الشعر بالكيفية التي يستطيع أن يكتب فيها.

ـــ بأي باخرة سترجعان؟

ـــ حسن. إن ذلك يعتمد على البواخر وعلى أشياء عديدة أخرى، هل ستعود أنت؟

ـــ لا، إن أحوالي هنا على ما يرام.

ـــ هذه الضاحية فقيرة نوعاً ما، أليس كذلك؟

ـ نعم، ولكن لا بأس بها. أزاول كتابتي في المقاهي وأذهب إلى سباقات الخيل.

ـ هل تستطيع أن تذهب إلى السباقات بهذه الملابس؟

ـ لا، هذه بذلتي للمقهى.

فقالت إحدى الفتاتين:" إنها بذلة طريفة. أود أن أرى شيئاً من حياة المقاهي، ألا تودّين ذلك يا عزيزتي؟"

فأجابت الفتاة الأخرى:" أودّ ذلك."

ودونت اسميهما في دفتر العناوين ووعدتهما بالاتصال بهما بواسطة شركة كلاريج. كانتا فتاتين لطيفتين. وودعتهما كما ودعت والش وعزرا. وكان والش ما يزال يتحدث مع عزرا بعاطفة شديدة.

وقالت الفتاة الأطول :" لا تنسَ."

ـ "وكيف أستطيع أن أنسى ." قلت لها ذلك وصافحتهما مرة أخرى.

وأول شيء سمعته بعد ذلك من عزرا عن والش أن بعض السيدات المعجبات بالشعر وبالشعراء الشباب الموسومين بالموت كفلنه لدى شركة كلاريج (التي لم يستطع أن يدفع لها مستحقاتها). وسمعت شيئاً آخر بعد مضي ردح من الوقت مفاده أنه حظي بدعم من مصدر آخر وأنه سيشرع في إصدار مجلة جديدة في الحي بوصفه محرراً مشاركاً.

وفي ذلك الوقت، أعلنت مجلة (دايل)، وهي مجلة أدبيّة أمريكيّة يحررها سكوفيلد ثاير*، عن جائزة مقدارها ألف دولار،

على ما أعتقد، للإبداع الأدبي لواحد من كُتّابها. وكان هذا مبلغاً ضخماً لأيّ كاتب في تلك الأيام، إضافة إلى الشرف الذي يناله، وقد مُنحت تلك الجائزة فعلاً لأدباء مختلفين وكلهم يستحقونها بطبيعة الحال. ويستطيع زوجان ، آنذاك، أن يعيشا عيشة مريحة في أوربا مقابل خمسة دولارات يومياً، وبإمكانهما السفر كذلك.

وزُعم أن المجلة التي كان والش أحد محرّريها ستخصّص مبلغاً ماليّاً كبيراً للأديب الذي ينشر إنتاجه فيها ويقع عليه الاختيار بوصفه الأفضل بعد صدور أربعة أعداد منها.

ولا يمكنني القطع ما إذا كان ذلك الخبر قد ذاع عن طريق الإشاعة أو الثرثرة أو أنه سرّ أفضى به أحدهم بصفة شخصية. ولكننا كنا نرجو ونعتقد دائما أن يكون الأمر قد تمّ بصورة نزيهة من جميع الوجوه. ومن المؤكد أنه لم يكن بوسعنا أن نلصق التهمة بالمحرّر المشارك زميل والش.

وبعد مرور وقت ليس طويلاً على سماعي تلك الإشاعة عن الجائزة المزعومة، دعاني والش لتناول الغداء معه في مطعم هو الأرقى والأغلى في حي شارع سان ميشيل. وبعد تناول المحارات، من الصنف المسطح الغالي المسمى بـ (المارين)* وليس من المحارات العادية المقعرة المسماة بـ (البرتغالية)*، وقنينة من نبيذ (بويلي فويزة)*، أخذ يتطرق إلى الموضوع بصورة تدريجية وبلباقة. كان، على ما يبدو، يريد خداعي كما خدع شركائه في لعب القمار على الباخرة ـ إذا كان هناك مقامرون وإذا كان قد خدعهم، طبعاً ـ. وعندما سألني إذا كنت

أرغب في دزينة أخرى من المحارات المسطحة كما سمّاها، قلت أرغب في ذلك جداً. لم يبذل مجهوداً ليبدو كأنه موسوم بـالموت، وقد أراحني ذلك. كان يعلم أنني أعلم أنه مـصاب بالـسل ، وأن مرضه ليس من النوع الذي تخادع به، بل من النوع الذي تمـوت منه، وما أسوأ ذلك. ولم يبذل مجهوداً ليسعل، واستحسنت ذلك منه أثناء الطعام. وكنت أتساءل ما إذا كان قد أكل المحارات المسطحة بنفس طريقة عاهرات مدينة كنساس، الموسومات بالموت وبكـل شئ آخر، واللواتي كن يرغبن في ابتلاع المني كعلاج ممتاز ضد مرض السل، ولكنني أحجمت عن توجيه السؤال إليه. وشـرعت في تناول الدزينة الثانية من المحارات المسطحة؛ أتناولهـا مـن قاعدة الثلج المطحون الموضوع في إناء مـن الفـضّة، وأشـاهد حافاتها البنيّة الرقيقة بشكل لا يصدق وهي تـستجيب بالانكمـاش عندما أعصر الليمون عليها، ثم أنتزع العضلة من القوقعة وأرفعها لأمضغها بعناية.

وقال والش وهو ينظر إليّ بعينيّ الشاعر الداكنتين :" عـزرا شاعر عظيم، عظيم."

قلت:" نعم، ورجل لطيف."

قال والش:" نبيل، نبيل حقيقة."

وأكلنا وشربنا بصمت كأننا نكرّم عزرا لنبله. وافتقدتُ عزرا وتمنيت لو كان معنا، فهو مثلي ليس بمقدوره شراء محارات مـن نوع (المارين).

وقال والش:" جويس عظيم. عظيم، عظيم."

قلت:" عظيم، وصديق حميم."

لقد أصبحنا أنا وجويس صديقين في الأيام الرائعة التي أمضاها بعد الانتهاء من كتابه (يوليسيس)* وقبل أن يشرع في ما أسماه وقتا طويلاً بـ (العمل في تقدّم). وفكرت بجويس وتذكرت أموراً كثيرة.

وقال والش:" تمنيت لو كانت عيناه أفضل."

قلت:" وهو يتمنى ذلك أيضا."

وقال لي والش:" إنها مأساة عصرنا."

قلت:" ما من أحد إلا ويشكو شيئاً ما." وأنا أحاول أن أضفي جواً بهيجاً على الغداء.

ـ " أنت لا تشكو من شيء." وابتسم لي، ثم وسم نفسه بالموت. ولم أستطع المداراة فسألته:" تعني أنني لست موسوماً بالموت؟"

ـ " لا، أنت موسوم بالحياة."

قلت:" انتظر الزمن."

رغب في أكل شريحة جيّدة ونادرة، فطلبتُ قطعتين من شرائح التورنيدو* مع صلصة البيرنيز*. وحسبت أن الزبدة ستنفعه.

وسألني :" وماذا عن النبيذ الأحمر؟" وحضر النادل المختص بالشراب وطلبت نبيذ (شاتو نف دي باب)*. وسأتخلّص من مفعوله بعد ذلك بالمشي على رصيف النهر. وبوسعه أن يهضمه نائماً أو يفعل ما يحلو له.

وعندما انتهينا من تناول شريحة اللحم والبطاطا المقلية وأتينا على ثلثي قنينة نبيذ (شاتو نف دي باب)، الذي لا يؤخذ عادة أثناء الغداء، دخل في الموضوع وقال:" لا فائدة من اللــف والــدوران. أنت تعرف أنك ستنال الجائزة، أليس كذلك؟"

قلت:" هل سأحصل عليها؟ ولماذا؟"

قال:" أنت ستفوز بها." وأخذ يتحدث عن كتاباتي فلــم أعــد أصغي إليه، إذ يصيبني الغثيان عندما يتحدث الناس عن إنتــاجي أمامي. ونظرت إليه وإلى نظرته الموسومة بالموت، وفكرت: أنت أيها الرجل المخادع تريد أن تخدعني بسلّك. لقــد رأيــت كتيبــة عسكرية تغوص في التراب على الطريق، وقضى الموت ــ أو ما هو أشد منه ــ على ثلث رجالها ولم تبدُ علــيهم ســمة خاصــة، التراب للجميع، وأنت ونظرتك الموسومة بالموت، أيهــا الرجــل المسلول المخادع، تكسب عيشك من موتك. والآن ســتخدعني. لا تخدع، لئلا تموت بالسل. والموت لم يشاركه في الخداع. ولكنــه قادم لا محالة.

ــ" لا أظن أنني أستحقّها، يا إرنست." قلت ذلك وأنا أســتمتع باستعمال اسمي الذي لا أحبذه في مخاطبته، " أضف إلى ذلك، يــا إرنست، أن ذلك لا يصح أخلاقياً، إرنست."

ــ" من الغريب أن لنا نفس الاسم، أليس كذلك؟"

فقلت: ــ" نعم، يا إرنست. وينبغي أن يكــون اســماً علــى مسمى. تفهم ما أعني، أليس كذلك، يا إرنست؟"

قال:" نعم، يا إرنست." وبدا عليه فهم إيرلندي حزين تامّ، وابتسم.

ولهذا كنت لطيفاً دائماً معه ومتعاوناً مع مجلته. وعندما أصابه النزيف وغادر باريس طلب مني أن أتابع طباعة المجلة لدى الطابعين الذين لا يقرؤون الإنجليزية، ففعلت ذلك. ورأيت مرة نزيفاً أصابه وكان شديداً، وأدركت أنه ميت لا محالة. وسرني، في ذلك الوقت الذي كان عصيباً في حياتي، أن أكون لطيفاً معه، كما سرّني أن أدعوه بإرنست. وأحببت كذلك المحررة المشاركة معه في المجلة وأعجبت بها. لقد كان همها أن تؤسّس مجلة غراء وأن تجزل العطاء للكُتّاب الذين ينشرون إنتاجهم فيها.

وبعد مضي وقت طويل التقيت جويس ذات يوم وكان يتمشّى في شارع سان جرمان إثر مشاهدة عرض مسرحيّ بعد الظهر. وكان يحبّ أن يستمع إلى الممثّلين على الرغم من أنه لم يكن في مكنته رؤيتهم. ودعاني لتناول مشروب معه فذهبنا إلى مقهى (دو ماغوت)* وطلب كأساً من (الشيري) الجاف*، على الرغم من أنك تقرأ دائماً أنه لا يشرب سوى النبيذ الأبيض السويسري.

وسألني جويس:" وكيف حال والش؟"

قلت:" مَن يعش يمت."

قال:" وهل وعدك بتلك الجائزة؟"

ــ" نعم."

قال جويس:" هذا ما كنت أظنه."

ــ" وهل وعدك بها؟"

قال جويس:" نعم" وبعد هنيهة سألني:" وهل تظن أنـــه وعـــد باوند بها."

ـ" لا أدري."

قال جويس:" من الأفضل ألا تسأله."

وتركنا الموضوع عند ذلك الحد ، وأخبرت جويس عن لقائي الأول مع والش في شقة عزرا مع الفتاتين اللتين ترتديان معطفين من فرو المنك، وسرّه سماع تلك لقصة.

١٥

إيفان شبمان في البستان

منذ اليوم الذي عثرت فيه على مكتبة سيلفيا بيتش استطعت أن أقرأ كل أعمال ترجنيف* وما نشر بالإنجليزية من أعمال غوغول*، وترجمات كونستانس غارنيت لأعمال تولستوي*، والترجمات الإنجليزية لمؤلفات تشيخوف*. وأخبروني في تورنتو، قبل أن آتي إلى باريس، أن كاثرين مانسفيلد* تكتب القصة القصيرة جيّداً، وحتى أنها كاتبة عظيمة؛ ولكن عندما حاولت قراءتها بعد تشيخوف، وجدتها مثل سماع حكايات مصطنعة بعناية ترويها عانس، بالمقارنة مع قصص طبيب عارف بليغ يكتب ببساطة وروعة. كانت مانسفيلد مثل شبه بيرة. وكان من الأفضل في تلك الحالة شرب الماء. بيد أن تشيخوف لم يكن يشبه الماء في شئ ما عدا الصفاء. وكانت بعض قصصه تبدو مجرد قصص صحفية، ولكن له قصصاً رائعة كذلك.

أما ديستوفيسكي*فتوجد في كتاباته أشياء قابلة للتصديق ولا تُصدّق، ولكن بعضها حقيقيّ لدرجة أنها تغيّرك وأنت تقرأها؛ فتتعرف فيها على الضعف والجنون، والشر والقداسة، وجنون القمار، كما تتعرف على الطبيعة والطرقات في مؤلفات

تورجنيف*، وتحركات الجيوش ومواقع المعارك والضبّاط والجنود والحرب في مصنفات تولستوي*. لقد جعل تولستوي كتابات ستيفن كرين* عن الحرب الأهلية الأمريكية تبدو كأنها تخيّلات لامعة لطفل مريض لم يرَ الحرب قط ولكنه قرأ عن المعارك في كتب التاريخ، وشاهد صور برادي* الفوتوغرافية التي كنت قد رأيتها في بيت جدّي وجدّتي. وحتى أن قرأت رواية (راهبة بارم) لستندال*، لم أقرأ أبداً عن الحرب كما هي إلا في روايات تولستوي، أما الوصف الرائع لمعركة واترلو الذي ورد في رواية ستندال فقد كان مجرد مقطوعة استثنائية في كتاب يتسم بالرتابة. إن عثوري على هذا العالم الجديد من الكتابة، وتوفر الوقت لي للقراءة في مدينة مثل باريس حيث يمكنك أن تجد وسيلة للعيش الجيّد والعمل مهما كنت فقيرا، كان بمثابة العثور على كنز. وكان بمقدورك أن تصطحب كنزك معك أنى سافرت كذلك؛ وفي الجبال حيث أقمنا في سويسرا وإيطاليا قبل أن نكتشف شرونز الواقعة في الوديان العليا في فورارلبورغ في النمسا، كانت هنالك الكتب دوماً؛ بحيث كان بإمكانك أن تعيش في العالم الجديد الذي اكتشفته؛ فخلال النهار هنالك الثلوج والغابات والأنهار الجليدية ومشكلاتها في فصل الشتاء وصعوبة الوصول إلى ملجئك العالي في فندق تاوبه في القرية ، أما في الليل فقد كان بميسورك أن تعيش في عالم رائع آخر منحه لك الأدباء الروس. كان المانح في البداية الأدباء الروس ثم أضحى فيما بعد جميع الآخرين. ولكن لوقت طويل كان الروس فقط.

أتذكّر أنني سألت عزرا ذات يوم ونحن عائدان إلى البيت بعد أن لعبنا كرة المضرب (التنس) في ملعب يقع في شارع (أراغو)*، وقد دعاني لتناول شراب معه في شقته، سألته عن رأيه الحقيقي في ديستوفسكي.

فقال عزرا:" أقول لك الحقيقة، يا هام، إنني لم أقرأ *الروسيين* قط."

كان جواباً صريحاً ولم يضف إليه عزرا شيئاً، ولكنني شعرت بأسف عميق؛ لأن الجواب صدر من الرجل الذي أحببته ووثقت بآرائه النقدية أكثر من أي شخص آخر، هذا الرجل الذي آمن *بالكلمة العدل* (Le mot juste) ـــ الكلمة الصحيحة والوحيدة التي تصلح للاستعمال في سياق معين ـــ الرجل الذي علّمني أن أرتاب في الصفات والنعوت كما تعلّمت لاحقاً الارتياب في بعض الناس في مواقف معينة، وطلبت رأيه في الكاتب الذي لم يستعمل *الكلمة العدل* مطلقاً ومع ذلك يبعث شخوصه أحياء كما لم يفعل أحد غيره تقريباً.

وقال عزرا:" تمسّكْ بالفرنسيين. فهناك الكثير الذي تتعلّمه منهم."

قلت:" أعرف ذلك، فهناك الكثير الذي أتعلّمه في كل مكان."

وبعد أن غادرت شقة عزرا الصغيرة وأنا أمشي إلى المنشرة في الشارع الذي ترتفع البنايات على جانبيه، أخذت أتطلّع إلى نهايته المفتوحة حيث تراءت أشجار عارية وخلفها الواجهة البعيدة لمرقص بولبير* عبر شارع سان ميشيل العريض، وفتحت بوابة

العمارة ومررت بالخشب المنشور حديثاً، وتركت مضربي في إطاره الضاغط بجانب السلم الذي يقود إلى الطابق العلوي في البناية. وناديت باتجاه أعلى السلّم ولكن لم يكن ثمة أحد في البيت.

وأخبرتني زوجة صاحب المنشرة:" إن السيدة خرجت، وكذلك الخادمة والطفل." فشكرتها. كانت امرأة صعبة، وتميل إلى البدانة، ولها شعر أصفر نحاسيّ اللون.

ــ" جاء رجل شابّ لرؤيتك. وقال إنه سينتظرك في مقهى البستان." واستعملتْ عبارة (رجل شاب) بدلا من سيّد.

قلت:" شكراً. أرجوك أن تخبري السيدة إذا عادت بأنني في (البستان)."

ــ" لقد ذهبت مع صديقات لها." قالت ذلك وهي تلفّ رداءها حولها وتدخل بحذائها ذي الكعب العالي إلى منزلها دون أن توصد الباب خلفها.

وسرتُ في الشارع بين البنايات العالية البيضاء التي شابتها شيات من البقع والخطوط، ودلفت إلى اليمين في النهاية المفتوحة المشمسة، وولجت غسق مقهى البستان الذي تقطعه خيوط من أشعة الشمس.

لم يكن ثمة مَن أعرفه داخل المقهى فتحوّلتُ إلى الشرفة وهناك وجدت إيفان شبمان*ينتظرني. كان شاعراً رقيقاً، وكان يهتمّ بالخيول وله دراية بها، ويزاول الكتابة ويتعاطى الرسم. ونهض، فرأيته طويلاً نحيلاً شاحباً، وكان قميصه الأبيض بالياً ومتسخاً عند ياقته، وربطة العنق معقودة بعناية، وبذلته بالية

ومجعدة، وأصابعه الملطخة أكثر اسوداداً من شعره، وأظافره متسخة، وهو يتحكّم في ابتسامته المحببة المتواضعة لئلا تبدو أسنانه السيئة.

وقال:" إنني سعيد برؤيتك، يا هام."

وسألته:" كيف حالك، يا إيفان."

فقال:" محبط قليلاً. ومع ذلك فإنني أشعر بأنني تخلصت من الـ (المازبا)*. وهل أنت على ما يرام؟"

قلت:" آمل ذلك. كنت ألعب التنس مع عزرا عندما أتيتَ إلى بيتي."

ـ" هل عزرا بخير؟"

ـ" جداً."

ـ" إنني مسرور لسماع ذلك. هام، لا أظن أن زوجة مالك العمارة التي تسكنها تحبني. فهي لم تدعني أنتظرك في الطابق العلوي."

قلت:" سأحدثها عن ذلك."

ـ" لا تشغل بالك بذلك. يمكنني دائماً أن أنتظرك هنا. من الممتع الجلوس في الشمس، أليس كذلك؟"

قلت:" لقد حل فصل الخريف الآن، ولا أظنك ترتدي ملابس دافئة بما فيه الكفاية."

فقال إيفان:" إن الطقس بارد في المساء فقط. سأرتدي معطفي."

ـ:" أتعرف أين هو؟"

ـــ:" لا، ولكنه في مكان آمن."

ـــ:" وكيف تعرف ذلك؟"

ـــ:" لأنني أودعت القصيدة فيه." وضحك من كل قلبه وهو يضم شفتيه على أسنانه بشدة. " تناول ويسكي معي رجاء، يا هام."

ـــ:" حسناً"

ونهض إيفان ونادى النادل :" جان، كأسا ويسكي، من فضلك."

وجلب جان القنينة وقدحين وصحنين من ذوات العشرة فرنكات مع رشاف. ولم يستعمل كأس قياس وصبَّ الويسكي في القدحين حتى امتلأا إلى أكثر من ثلاثة أرباعهما. فقد كان جان يحب إيفان الذي كثيراً ما يرافقه إلى ضاحية مونتروغ* الواقعة وراء باب أورليان*، للعمل معه في حديقته أيام عطله.

وقال إيفان للنادل الطويل المتقدم في السن:" يجب ألا تبالغ."

وسأله النادل قائلا:" إنهما كأسا ويسكي، أليس كذلك؟"

وأضفنا إليهما الماء، وقال إيفان:" خذ الجرعة الأولى بتؤدة، يا هام. فإنهما سيبقيان معنا لوقت طويل إذا تناولناهما بطريقة مناسبة."

وسألته:" هل تعتني بنفسك؟"

ـــ:" نعم، بصدق، يا هام. لنتحدث عن شيء آخر."

لم يكن هناك أحد غيرنا جالساً في شرفة المقهى، وأخذ الويسكي يسخننا على الرغم من أنني كنت مرتدياً ملابس أكثر

ملاءمة لفصل الخريف من ملابس إيفان، فقد كنت أرتـدي كنـزة داخلية، وقميصاً وكنزة بحّار فرنسية من الصوف الأزرق فـوق القميص.

وقلت:" كنت أفكر بديستيوفسكي. كيـف يـستطيع رجـل أن يكتب بذلك الأسلوب السيّئ، سيّئ لدرجة لا تُصدّق، ومع ذلك فإنه يحرك مشاعرك بعمق."

فقال إيفان:" قد يكمن السبب في الترجمة، فالترجمة هي التي أظهرت تولستوي بصورة جيدة."

ـ:" أعرف ذلك. أتذكّر كيف حاولت أن أقرأ تولستوي عـدة مرات فلم أفلح حتى عثرت على ترجمة كونستانس غارنيت."

وقال إيفان:" يقولون إن بوسع الترجمة تحسين الأصل. وأنـا متأكد من ذلك على الرغم من أنني لا أعرف الروسيّة. ولكننـا ـ كلينا ـ نعرف الترجمات. بيـد أن (الحـرب والـسلام) جـاءت مترجمةً، رواية رائعة حقاً، بل أفترض أنها الأعظم، وبإمكانك أن تقرأها مرة تلو أخرى."

قلت:" أعرف ذلك، ولكنك لا تستطيع أن تقرأ ديستيوفـسكي مرة بعد أخرى، فقد أخذت معي رواية (*الجريمة والعقـاب*) فـي رحلة إلى شرونز*، وعندما لم تعد لدينا كتب أخرى لـم أسـتطع قراءتها مرة ثانية، ولهذا أخذت أقرأ الصحف النمـساوية وأتعلّـم الألمانية حتى عثـرت علـى بعـض مؤلفـات ترولبـه* فـي (تاوشننس)*.

فقال إيفان:" سقى الله تاوشننس."

وفقد الويسكي طعمه اللاذع، وصار الان، بعد مزجه بالماء، قوياً أكثر مما ينبغي.

وواصل إيفان كلامه قائلاً:" كان ديستوفسكي سيئاً، يا هام، لا يجيد الكتابة إلا عن الأشرار والقدّيسين. إنه يصنع قدّيسين رائعين. ومن المؤسف أننا لا نستطيع أن نعيد قراءته."

ـ:" سأحاول قراءة رواية (*الأخوة كرامازوف*) مرة أخرى. من المحتمل أن الخطأ يكمن فيّ."

ـ:" يمكنك أن تقرأ بعضها مرة أخرى، أو معظمها، ولكنها ستغضبك بعد ذلك، مهما كانت عظيمة."

ـ:" حسن، نحن محظوظون لأننا حصلنا عليها وقرأناها بعد صدورها مباشرة، وربما ستنشر ترجمة أفضل لها."

ـ:" ولكن لا تدعها تغريك، يا هام."

ـ:" لا، سأحاول أن أفعل ذلك بصورة طبيعيّة بحيث كلما زدتها قراءة زادتك عطاء."

وقال إيفان:" أما أنا فأساعدك على شرب ويسكي جان."

قلت:" إنه سيواجه مشكلة بسبب ما فعله."

قال:" إنه يواجه المشاكل حالياً."

ـ:" كيف؟"

قال إيفان:" إنهم يغيّرون الإدارة، وأصحاب المقهى الجدد يرغبون في اجتذاب زبناء مختلفين مستعدّين لإنفاق مزيد من المال، وسيضعون في المقهى باراً أمريكياً. وسيرتدي النُدُل سترات بيضاء، يا هام، وأخبروهم أن عليهم أن يحلقوا شواربهم."

ـــ:" إنهم لا يستطيعون أن يفعلوا ذلك بأندريه وجان."

ـــ:" من المفروض ألا يفعلوا ذلك، ولكنهم سيفعلون."

ـــ:" لجان شارب طوال حياته. إنه شارب التنين. وقد خـــدم في كتيبة الخيالة."

ـــ:" سيتوجّب عليه حلقه."

وشربت ما تبقّى من الويسكي.

وسأل جان:" ويسكي آخر، يا ســيدي؟ ويــسكي، يـــا ســـيد شبمان؟" وبدا شاربه الثقيل المتدليّ جزءاً مـــن وجهـــه النحيـــف اللطيف، وبدت صلعته لامعة تحت الشعرات القليلة التـــي رُتِّبـــت عبرها."

قلت:" لا تفعلها، يا جان، لا تجازف."

وقال هامسا لنا:"ليست هناك مجازفة، هناك فوضى ســـائدة. كثيرون سيغادرون." ثم أضاف بـــصوت عـــال:" مفهـــوم، أيهـــا السادة". ودخل في المقهى وخرج وهو يحمـــل قنينـــة الويـــسكي، وقدحين كبيرين، وصحنين مذهبيّ الحافـــة مـــن ذوات العـــشرة فرنكات، وقنينة ماء معدنيّ فوّار.

قلت:" لا، يا جان."

وضع القدحين على الصحنين وملأهما بالويسكي إلى حافتيهما تقريباً، وأخذ بقية القنينة إلى المقهى. وأضفنا أنا وإيفان قليلاً مـــن الماء المعدني الفوار إلى الكأسين.

وقال إيفان:" من حسن الحظ أن ديستيوفسكي لم يتعرف على جان، وإلا لمات من الشرب."

ــ:" ماذا سنفعل بهاتين الكأسين؟"

ــ:" نشربهما." أجاب إيفان:" إنه احتجاج. إنه فعل مباشر."

وعندما ذهبت إلى مقهى البستان يوم الاثنين التالي لأكتب هناك، جاء إليّ اندريه بكأس من (*البوفرل*)* وهو مشروب مستخلص من اللحم والماء. وبدا اندريه قصيراً أشقر، وبدلاً من شاربه الكث بدت شفته العليا عارية مثل شفة قسيس. وكان يرتدي سترة نادل بار أمريكي بيضاء.

ــ:" وجان؟"

ــ:" لا يأتي حتى الغد."

ــ:" وكيف حاله؟"

ــ:" سيحتاج إلى وقت طويل ليتصالح مع نفسه. كان يخدم في كتيبة خيّالة ثقيلة طوال الحرب. وحاز على صليب الحرب والوسام العسكري."

ــ:" لم أعرف أنه جُرح جرحاً بليغاً."

ــ:" لا. أصيب بجرح طبعاً، ولكنه استحق الوسام العسكري لأمر آخر. لبسالته."

ــ:" أخبره أنني سألت عنه."

قال اندريه:" طبعاً، آمل ألا يحتاج إلى وقت طويل ليتصالح مع نفسه."

ــ:" وأرجو أن تبلغه تحيات السيد شبمان كذلك.

ــ:" السيد شبمان معه." قال اندريه " إنهما يعملان في الحديقة معاً."

١٦

عميل الشـــرّ

كان آخر ما قاله عزرا لي قبل أن يغادر شقته فـــي شـــارع (نوتردام دي شامب)* ليتوجه إلى (رابالو): " هـــام، أريـــدك أن تحتفظ بجرّة الأفيون هذه وتعطيها إلى دوننغ* عنـــدما يحتاجهـــا فقط." كانت جرّة واسعة صفراء اللون، وعندما فتحت غطاءهـــا رأيت محتوياتها داكنة ولزجة ولها رائحة الأفيون الفجّ. لقد اقتناها عزرا من رئيس قبيلة هندي، كما أخبرني، في شارع الأوبرا قرب شارع الإيطاليين ودفع ثمناً باهظاً لقاءها. أما أنـــا فخمّنـــت أنهـــا وصلت من خمّارة (الثقب العتيق في الحائط)* التي كانت ملتقـــى الهاربين من الجندية وبائعي المخدّرات خلال الحـــرب العالميـــة الأولى وبعدها. وهذه الخمّارة، التي تتّـــسم بـــضيقها وبواجهتهـــا المطليّة باللون الأحمر، بمثابة مجاز أو ممر في شارع الإيطاليين. وفي وقت من الأوقات كان لها منفذ خلفي يفضي إلـــى بالوعـــات باريس ومن هناك كان يُفترض أنك تستطيع أن تصل إلى سراديب القبور تحت الأرض. ودوننغ هذا هو رالف شيفر دوننغ*، شاعر كان يدخّن الأفيون وينسى أن يأكل. وعندما كان يدخّن أكثر ممـــا ينبغي لم يستطع أن يتناول شيئاً ما عدا الحليب. وكتب بالـــ *(ترزا*

ريروسه)* ما حبّبه إلى عزرا الذي وجد في شعره مزايا رفيعة كذلك. وكان يعيش في البناية التي يسكن فيها عزرا نفسها، وكان عزرا قد دعاني لأساعده عندما كان دوننغ يلفظ أنفاسه قبل بضعة أسابيع من مغادرة عزرا باريس.

" دوننغ يلفظ أنفاسه. أرجوك أن تأتي حالاً." هكذا كانت رسالة عزرا.

وبدا دوننغ مثل هيكل عظمي وهو مستلق على الفراش، وكان سيموت حتماً في آخر الأمر من سوء التغذية، بيد أنني أقنعت عزرا أخيراً بأن قليلاً من الناس ماتوا في وقت كانوا يتحدثون فيه بجمل مفيدة، وأنني لم أرَ في حياتي قط رجلاً يموت وهو يتكلم بالـ (*ترزا ريروسة*)، وأشك حتى في مقدرة دانتي* على ذلك. وقال عزرا إن دوننغ لا يتكلم *بالترزا ريروسة*، فقلت ربما تبدو لغته لي مثل *الترزا ريروسة* لأنني كنت مستغرقاً في النوم عندما بعث إليّ مَن يوقظني. وأخيراً وبعد قضاء ليلة مع دوننغ في انتظار مجيء الموت، وُضع الأمر بيد طبيب ونُقل دوننغ إلى مصحّة خصوصية ليُعالج من التسمّم. وتكفل عزرا بنفقات العلاج وسجّلها على تبرعات محبّي شعر لا أعرفهم نيابة عن دوننغ. ولم يُترك لي سوى أمر تسليم الأفيون في حالة طوارئ حقيقيّة. إنها مهمة جسيمة ألقاها عزرا على عاتقي، وكنت آمل فقط أن أكون عند حسن ظنه وأتمكن من تحديد حالة الطوارئ الحقيقية. ووقعت الأزمة عندما وصلت حارسة بناية عزرا صباح يوم أحد إلى باحة المنشرة وأخذت تصرخ باتجاه

الشباك المفتوح حيث كنت أتملى قائمة سباق الخيل، قائلة بالفرنسية :" إن السيد دوننغ صعد إلى سطح البناية ويرفض النزول رفضاً قاطعاً."

وبدا لي صعود دوننغ إلى سطح العمارة ورفضه القاطع النزول حالة طوارئ حقيقية، فأخذت جرة الأفيون وسرت في الشارع مع حارسة العمارة، وهي امرأة صغيرة مفتولة العضلات وكانت منفعلة بسبب الموقف.

وسألتني:" هل لدى السيد ما يلزم؟"

فأجبت:" بالتأكيد. لن تكون هناك أي صعوبة."

وقالت:" إن السيد باوند يفكر في كل شيء. إنه تجسيد للخير والطيبة."

فقلت :" إنه حقاً كذلك. وأنا أفتقده كل يوم."

ــ:" لنأمل أن السيد دوننغ سيكون معقولاً."

فطمأنتها قائلاً: " لدي جميع ما يلزم."

وعندما وصلنا باحة البناية حيث توجد الشقق الصغيرة، قالت الحارسة:" لقد نزل."

قلت:" لا بدّ أنه علم أني قادم."

تسلّقت السلّم الخارجي الذي يؤدّي إلى شقّة دوننغ وطرقت الباب. وفتح الباب. كان نحيلاً وبدا لي طويلاً بصورة غير معتادة.

ــ :" عزرا طلب مني أن أجلب لك هذه." وسلمته الجرّة ، مضيفاً:" وقال إنك ستعرف ما هي."

أخذ الجرة ونظر إليها ثم رماها عليّ. أصابتني بالصدر أو الكتف ثم تدحرجت على السلّم.

وقال:" أنت، يا بن الكلبة، أنت يا بن الحرام."

قلت:" قال عزرا إنك قد تحتاج إليها." فردّ عليّ بقذفي بقنينة حليب.

فسألت :" هل أنت متأكد من أنك لا تحتاجها؟"

فرمى عليّ قنينة حليب أخرى. وتراجعت فضربني في ظهري بقنينة حليب ثالثة. ثم أغلق الباب.

التقطت الجرّة التي تصدّعت قليلا ووضعتها في جيبي.

قلت للحارسة:" يبدو أنه لا يريد هدية السيد باوند."

قالت:" ربما سيهدأ الآن."

قلت:" ربما لديه ما يلزمه."

قالت:" مسكين السيد دوننغ."

وتنادى محبّو الشعر الذين نظّمهم عزرا مرة أخرى لمساعدة دوننغ في آخر الأمر. لم يكن تدخّلي وتدخّل الحارسة ناجحاً. وأخفيت جرّة الأفيون، التي تصدّعت، في فردة جزمة ركوب الخيل في شقّتي، بعد أن لففتها بورق مشمع وربطتها بإحكام. وعندما كنت وإيفان شيمان* ننقل أمتعتي الشخصية من الشقّة بعد ذلك ببضع سنين كانت الجزمة هناك ولكن جرة الأفيون اختفت. لا أعرف لماذا رماني دوننغ بقنينات الحليب، إلا إذا كان قد تذكّر عدم تصديقي له ليلة موته الأول، أو إنه محض كره فطري لشخصي. ولكنني أتذكر السعادة التي منحتها عبارة (*إن السيد*

دوننغ صعد إلى السطح ويرفض النزول رفضاً قاطعاً) لإيفان شبمان، فقد ظنّ أن لتلك العبارة دلالة رمزية. ولا أعرف ذلك. ولربما نظر إليّ دوننغ بوصفي عميلاً للشرّ أو للشرطة. كل ما أعرفه أن عزرا حاول أن يُحسن إلى دوننغ، كما كان يحسن إلى أناس عديدين ويعطف عليهم، وكنت آمل دائماً أن يصبح دوننغ شاعراً مجيداً كما كان يحسبه عزرا. كانت رمياته لقناني الحليب دقيقة جدا بالنسبة لشاعر. ولكن عزرا، الذي كان شاعراً عظيماً جداً، كان يلعب كرة المضرب ببراعة كذلك. لقد فضل إيفان شبمان، الذي كان شاعراً ممتازاً ولا يأبه حقاً لقصائده أنُشرت أم لا، أن يبقى سبب قذفي بقناني الحليب لغزاً.

قال لي ذات مرة:" نحتاج إلى ألغاز حقيقية أكثر في حياتنا، يا هام. والذي يعوزنا جداً في هذا العصر هو الكاتب غير الطموح والقصيدة الجيّدة غير المنشورة. وتبقى طبعاً مشكلة الدعم الماديّ."

١٧

سكوت فتزجيرالد*

كانت موهبته طبيعية مثل طرز دبّجه الغبار على أجنحة فراشة. لا يفهم ذلك أحياناً أكثر مما تفهمه الفراشة ولا يعرف متى يتعرّض ذلك الطرز للزوال أو التشويه. وأصبح مؤخراً واعياً بجناحيه المعطوبين وتكوينهما وتعلّم كيف يفكرّ فلم يعد بوسعه الطيران؛ لأن حب الطيران قد اختفى، وصار بإمكانه أن يتذكّر فقط، عندما لا يتطلّب الأمر مجهوداً.

* * *

وقع أمر غريب جداً عندما التقيت سكوت فتزجيرالد أول مرة. حدثت أشياء غريبة عديدة مع سكوت فيما بعد، ولكن لم أتمكن من نسيان تلك الحادثة البتة. لقد جاء إلى حانة (دينغو) في شارع (دلامبر) حيث كنت جالساً مع أشخاص متواضعين تماماً، وقدّم لنا نفسه وقدّم رجلاً طويلاً لطيفاً كان معه اسمه (دونك شابلان)، لاعب البيسبول المشهور. لم أتتبع مباريات برنستون* للعبة البيسبول ولم أسمع مطلقاً بدونك شابلان، ولكنه كان لطيفاً للغاية وهادئاً ومرتاح البال وودوداً وقد فضّلته على سكوت كثيراً.*

كان سكوت حينذاك رجلاً، ولكنه كان يبدو مثل غلام وجهه يتراوح بين الوسامة والملاحة. وكان له شعر أشقر مجعّد، وجبهة عالية، وعينان لامعتان ودودان، وفم إيرلندي رقيق طويل الشفتين لو كان لفتاة لغدت بارعة الجمال. وكان ذقنه قوياً وأذناه جيدتان وأنفه حسناً، بل جميلاً تقريباً، لا عوج فيه. ولا تشكّل تلك الصفات مجتمعة وجهاً حسناً، ولكن أضف إلى ذلك السحنة والشعر الأشقر والفم. ويقلقك الفم بعض الشيء حتى تعرفه فيقلقك أكثر.

كنت متشوقاً جداً لرؤيته، وكنت قد عملت بجدّ طوال النهار، وبدا لي أنه من الرائع حقاً أن يحضر سكوت فتزجيرالد بصحبة دونك شابلان العظيم الذي لم أكن قد سمعت به من قبل ولكنه أصبح الآن صديقي. لم يتوقف سكوت عن الكلام، ونظراً لأنه أحرجني بما قاله إذ انصبّ كلامه كلّه على كتابتي وعظمتها، فإنني كنت أمعن النظر فيه بدلاً من الإنصات إليه. فقد كنا ما زلنا نعتقد في ذلك الوقت أن إطراء الآخرين بحضرتهم بمثابة عار مفضوح. وطلب سكوت قنينة شمبانيا وشربناها أنا وهو ودونك شابلان وبعض الأشخاص المتواضعين. ولا أظن أن دونك أو أنا قد تتبّعنا الخطاب؛ لأن كلامه كان خطاباً، وإنما واصلت إمعان النظر فيه. كان قوي البنية بعض الشيء ولم يبدُ في حال جيّدة جداً، فوجهه منتفخ قليلاً. وكانت ملابسه المقتناة من (الإخوة بروكس)* تناسبه تماماً، ولقميصه الأبيض ياقة مثبتة بزرين وربطة عنق من النوع الذي يلبسه الضباط، وفكرت في ضرورة

إخباره عن ربطة العنق إذ يوجد بريطانيون في باريس وقد يـأتي أحدهم إلى حانة (دنغو)*ـ وكان هناك اثنان منهم في ذلك الوقت ـ ثم صرفت النظر عن ذلك ورحت أحدق فيه أكثر. وتبين فيما بعد أنه اشترى ربطة العنق من روما.

لم ألمّ بمعلومات كثيرة من جراء النظر إليه الآن، سوى أن له خلقة حسنة، ويدين قويتين، ليستا صغيرتين كثيراً، وعندما جلس على أحد مقاعد المشرب (البار) لحظت أن ساقيه قصيرتان جداً. ولو كانت ساقاه اعتياديتين لكان أطول ببوصتين. وأنهينا قنينة الشمبانيا الأولى وعندما شرعنا في شرب القنينة الثانية شارف الخطاب على نهايته.

وأخذت ودونك نشعر بأحسن مما كنا عليه قبل شرب الشمبانيا وصار الوضع ألطف بكثير عندما انتهى الخطاب. وحتى ذلك الحين كنت أظن أن مسألة كوني كاتباً عظيماً كانت سراً مكتوماً بعناية بيني وبين زوجتي وبعض الذين نعرفهم معرفة جيّدة تمكننا من التحدث إليهم في الموضوع. وسعدت لأن سكوت وصل إلى النتيجة نفسها حول العظمة المحتملة، ولكني سررت كذلك عندما شارف على الانتهاء من خطابه. ولكن أعقبت الخطاب حصّة الأسئلة. كان بوسعك أن تمعن النظر في وجهه ولا تستمع لخطابه ولكن لا يمكنك التملّص من الأسئلة. وفهمت منها أن سكوت يعتقد أن بوسع الروائي أن يعثر على ضالته بتوجيه الأسئلة المباشرة إلى أصدقائه ومعارفه. ولهذا كان التحقيق مباشراً.

قال :" إرنست، لا مانع لديك من أن أخاطبك بإرنست، ألـيس كذلك؟"

قلت :" اسأل دونك."

ـ :" لا تكن هازلاً، فأنا جادّ. أخبرنـي، هـل كنـت.أنـت وزوجتك تنامان معاً قبل الزواج؟"

ـ لا أدري.

ـ ماذا تعني بقولك لا أدري؟

ـ لا أتذكّر.

ـ ولكن كيف لا يمكنك أن تتذكّر شيئا بمثل هذه الأهمية؟

قلت ـ:" لا أعرف. إنه أمر غريب، أليس كذلك؟"

قال سكوت :" إنه أسوأ من الغريب. يجب أن تتذكّر.

ـ :" آسف. إنه أمر مؤسف، أليس كذلك؟"

قال :" لا تتكلم مثل بحار إنجليزي. حاول أن تكـون جـاداً وتذكّر."

قلت :" لا. لا فائدة."

ـ :" بمقدورك أن تبذل مجهوداً صادقاً لتتذكّر."

وبدا لي أن الحديث قد تجاوز حدّه. وتساءلت في نفسي ما إذا كان ذلك ديدنه مع الآخرين، بيد أنني لم أظنّ ذلك؛ لأننـي رأيتـه يتصبّب عرقاً وهو يخاطبني. وتحدّر العرق قطرات صغيرة على شفته العليا الطويلة الإيرلندية الشكل، وحدث ذلك في الوقت الـذي صرفت نظري من وجهه وصوّبته نحو الأسفل لأدقّق في طـول ساقيه المسحوبتين إلى الأعلى وهو جالس على مقعد البار. والآن

استأنفت النظر إلى وجهه، وفي تلك اللحظة وقــع ذلــك الأمــر الغريب.

فحينما كان جالساً على مقعد البار ممسكاً كأس الشمبانيا بيده أخذ جلده ينكمش على وجهه حتى اختفى تنفّسه، ثم ازداد انكماش الوجه حتى أمسىٰ مثل وجه رجل ميت. غارت عيناه كأنه ميــت، وتصلّبت شفتاه، وامتقع لون وجهه حتى صار مثــل لــون شــمع مستعمل. ولم يكن هذا من خيالي. فقد رأيت بأمّ عيني كيف غــدا وجهه مثل وجه إنسان ميت أو مثل قناع الموت.

قلت له:" سكوت، هل أنت على ما يرام؟"

لم يُجب وصار وجهه أشدّ انكماشاً من ذي قبل.

قلت لدونك شابلان:" يحسن بنا أن نأخــذه لأقــرب مركــز إسعاف أولي."

ــ :" لا، إنه بخير."

ــ :" يبدو وكأنه يلفظ أنفاسه."

ــ :" لا، هذا ما يحدث له أحياناً."

أخذناه بسيارة أجرة وأنا قلق جداً، غير أن دونك قال إنه على ما يرام ولا داعي للقلق عليه، وقال: " من المحتمل أن يغدو بخير قبل أن يصل إلى منزله."

لا بد أن الأمر كما قال دونك؛ لأنني عندما التقيت بــسكوت في مقهى بستان الليلك بعد بضعة أيام قلت لــه إننـــي آســف لأن

الشراب أثّر فيه بتلك الكيفية ولعل ذلك نتيجة شربنا السريع بينما كنا نتحدث.

ـ " ماذا تعني بقولك آسف؟ وأي شراب أثر فيّ بتلك الكيفية؟ عمّ تتكلم، يا إرنست؟"

ـ" أعني تلك الليلة في حانة الـ (دنغو)."

ـ :" لم أصب بسوء في الـ (دنغو). كل ما هنالك أنني تعبت من هؤلاء البريطانيين الملاعين الذين كنتُ معهم فذهبتُ إلى منزلي."

ـ :" لم يكن هناك بريطانيون عندما كنت هناك. فقط الساقي."

ـ :" لا تحاول أن تجعل منها لغزاً. أنت تعرف مَن أعني."

فقلت:" آه." لابد أنه عاد إلى الـ (دنغو) بعد ذلك. أو أنه ذهب إلى هناك مرة أخرى. لا، تذكّرتُ، كان هناك بريطانيان. صحيح. وتذكّرت مَن هما. كانا هناك بالضبط.

قلت:" نعم. طبعاً."

ـ :" تلك الفتاة التي تنتحل لقباً زائفاً وتتصرف بخشونة ومعها ذلك السكّير السخيف. وقالا إنهما من أصدقائك."

ـ :" نعم. وهي وقحة جداً أحياناً."

ـ :" أرأيت؟ لا فائدة من اختلاق ألغاز لمجرد أن شخصاً ما شرب بضع كؤوس من النبيذ. لماذا تريد أن تبتدع هذه الألغاز؟ لم أظنك تفعل شيئاً مثل ذلك."

وأردت أن أنهي الموضوع فقلت :" لا أدري." ثم تذكرت شيئاً آخر وسألته:" هل تصرفا بوقاحة عندما تحدثا عن ربطة عنقك؟"

ـ :" ولماذا يتصرّفان بوقاحة بشأن ربطة عنقي؟ كنت أرتدي ربطة عنق سوداء مع قميص أبيض من نوع بولو."

حينئذ تخلّيت عن متابعة الموضوع. وسألني لماذا أحب ذلك المقهى فأخبرته عن تاريخه في الأيام الخوالي، وبدأ يحاول أن يحبّه هو الآخر، وجلسنا هناك، أنا الذي أحبّه وهو الذي يحاول محبته، ووجّه لي الأسئلة وأخبرني عن أدباء وناشرين ووكلاء أعمال ونقّاد وعن جورج هوراس لوريمر*، وعمّا يدور من شائعات، وعن اقتصاديات الكاتب الناجح، وكان ساخراً ومضحكاً ومرحاً جداً وساحراً وودوداً، على الرغم من احتراسي ممن يتوددون إليّ. وتحدّث باستخفاف ولكن بدون مرارة عن كل شيء كتبه، وعرفت أن كتابه الجديد جيد جداً بالتأكيد، إذ تحدّث بدون مرارة عن هفوات الكتب السابقة. ورغب إليّ أن أقرأ كتابه الجديد (*غاتسبي العظيم*)*، حالما يسترد النسخة الأخيرة والوحيدة من الشخص الذي استعارها منه. وعندما تسمعه يتحدّث عن كتابه لا تعرف مدى جودته، ولا تلاحظ شيئاً على وجهه ما عدا الخجل الذي يعتريه، وهو خجل يشعر به جميع الأدباء غير المغرورين عندما ينجزون عملاً رفيعاً، وداخلتني رغبة الحصول على الكتاب في أقرب فرصة لأتمكن من قراءته.

وأخبرني سكوت عما بلغه من ماكسويل بـاركنز* مـن أن الكتاب لا يُباع جيداً ولكنه حاز على مراجعات طيّبة. ولا أذكر ما إذا كان قد أطلعني في ذلك اليوم أو في وقت لاحق على مراجعـة كتبها جلبرت سيلدس* لا يمكن أن تكون أفضل مما كانت عليـه، بل كان من الممكن أن تكون أحسن لو كان سيلدس ناقـداً أجـود. وقد أصيب سكوت بالحيرة والخيبة لأن الإقبال على اقتناء الكتاب كان ضئيلاً، ولكنه، كما قلت، لم يكن يشعر بالمرارة، وأنه كـان مسروراً بنوعية الكتاب سروراً يعتريه الخجل.

وفيما كنا جالسين في ذلك اليوم في شرفة مقهى الليلك، ونحن نشاهد حلول الغسق والمارّة على الرصيف، ونراقـب تحـوّلات الضوء الرماديّ في تلك الأمسية، لم أرَ أي تغيّر كيمياويّ علـى وجهه من جراء كأسي الويسكي والـصودا اللتـين تناولناهمـا. وترقّبت ذلك التغيّر بعناية، ولكن لم يصبه شيء، ولم يوجّه إلـيّ أسئلة غير محتشمة، ولم يفعل شيئاً محرجاً، ولم يرتجل خطابـاً، وتصرّف مثل شخص ظريف ذكيّ طبيعيّ.

وأخبرني أنه وزوجته (زيلدة)* اضـطرا لتـرك سـيارتهما (الرونو)* الصغيرة في مدينة (ليون)* بـسبب الطقـس الـسيئ وسألني عما إذا كنت أرغب في مرافقته بالقطـار إلـى (ليـون) لاستلام السيارة وقيادتها إلى باريس. وكان فتزجيرالد وعائلته قـد استأجروا شقّة مفروشة في العمارة رقم ١٤ في شارع (تيلسيت)* ليس بعيدا عن ساحة (النجمة)*. وكنا في أواخر فصل الخريـف آنذاك، وظننت أن الريف سيكون في أحسن أحواله وأننا سـنتمتع

برحلة رائعة. وبدا لي سكوت رجلاً لطيفاً ومعقولاً جداً، وقد راقبته وهو يشرب كأسين مملوءتين بالويسكي، ولم يحدث أي شيء، وجعلني ظرفه وحسن إدراكه البادي للعيان أعدّ تلك الليلة في مقصف (الدنغو) مجرّد حلم غير سار. ولهذا قلتُ إنه يسعدني أن أرافقه إلى (ليون)، وسألته عن الوقت الذي يريد أن يغادر فيه.

واتفقنا على أن نلتقي في اليوم الثاني وقرّرنا حينذاك أن نسافر بالقطار السريع الذي يغادر باريس في الصباح. وكان هذا القطار ينطلق في ساعة مناسبة وسرعة فائقة، ولا يتوقّف إلا مرّة واحدة في مدينة (ديجون)* على ما أذكر. وخططنا أن نصل إلى ليون ونفحص السيّارة بغية التأكد من أنها في حالة جيدة، ونتناول عشاء شهيّاً ثم ننطلق في الصباح الباكر عائدين إلى باريس.

وتحمّست للرحلة، إذ سأكون برفقة كاتب أكبر مني سنّاً وحقق نجاحاً، وسيتاح لي الوقت للتحدّث معه في السيّارة فأتعلم — بالتأكيد — كثيراً وأفيد منه. ومن الغريب أن أتذكّر الآن أنني نظرت إلى سكوت بوصفه كاتباً يكبرني سنّاً، ولكن، في ذلك الوقت، ولأني لم أقرأ بعد كتابه (*غاتسبي العظيم*)، اعتبرته أديباً أسنّ مني كثيراً. لقد كتب قصصاً لجريدة (*بريد السبت المسائية*)* التي كانت واسعة الانتشار، قبل ثلاث سنوات من ذلك التاريخ، ولكني لم أعدّه كاتباً جاداً مطلقاً. وكان قد أخبرني في مقهى (بستان الليلك) كيف كتب ما ظنّه قصصاً جيّدة ثم أجرى بعض التغييرات عليها قبل تقديمها إلى الجريدة لأنه كان يعرف بالضبط كيف ينبغي تعديلها لتصبح قصصاً تشتريها المجلات. صدمني

ذلك وقلت إنني أظنه نوعاً من البغاء. وقال إنه البغاء ولكنّه كـان مضطراً لذلك لأنه كان يكسب المال من المجلات ليتوفّر لديه مـا يكفي لتأليف كتب محترمة. وقلت إنني لا أصدق أن أحداً يستطيع أن يكتب بأي كيفية أخرى ما عدا الكيفية التي تظهر أفـضل مـا عنده ولا تسيء لموهبته. وقال ما دام إنه كتب قصة حقيقية فـي البداية فإنه لا يضيره أن يحطمها ويغيرها في النهاية. لـم يكـن بوسعي أن أصدّق ذلك وأردت أن أجادله ولكني كنت بحاجة إلـى رواية لدعم وجهة نظري وتبيينها له وإقناعه بها، وأنا لـم أكتـب بعد مثل تلك الرواية. ومنذ أن أخذت بتفتيت كل كتاباتي والتخلّص من كل سهولة وبمحاولة الإنشاء بدلاً مـن الوصـف، أصـبحت ممارسة الكتابة ممتعة ورائعة. ولكن كان يـصعب علـيّ كتابـة رواية ولم أعرف كيف أستطيع أن أكتب شيئاً بطـول الروايـة. فغالباً ما كانت كتابة فقرة واحدة تستغرق مني الصباح بأكمله.

وأعربتْ زوجتي هادلي عن غبطتها لي للقيام بتلـك الرحلـة على الرغم من أنها لم تكن تأخذ ما قرأتْه من قصص (سـكوت) مأخذ الجدّ. لقد كان (هنري جيمس)* هو مثلها الأعلـى للكاتـب الجيّد. بيد أنها رأت أنها فكرة طيبة أن استمتع بفترة استراحة من الكتابة وأمضي في تلك الرحلة، على الرغم من أننا ــ كلينا ــ كنا نتمنى لو كان لدينا المال الكافي لامتلاك سـيارة والقيـام برحلـة خاصة بنا. ولكن لم تكن لديّ أيّ فكرة عن الوقت الذي تتحقّق فيه أمنيتنا تلك. كنت قد تلقيت تسبيقاً مقداره مائتا دولار من (بـوني وليفرايت)* عن أول مجموعة لقصصي القصيرة التي كـان مـن

المقرر نشرها في أمريكا ذلك الخريف، وكنت أبيع قصصاً لجريدتي (الأوقات الفرانكفورتية)* و (در كرشنت)* في برلين ولمجلتي (هذا الفصل)* و (عبر المحيط)* في باريس، وكنا نعيش باقتصاد شديد ولا ننفق أي مال إلا للضروريات من أجل أن ندّخر نقوداً تكفي للسفر إلى مهرجان (بامبلونا)* خلال شهر يوليو وإلى مدريد وإلى مهرجان (بلنسيا) بعد ذلك.

في الصباح الذي كنا سنغادر فيه من محطة ليون في باريس وصلت المحطة قبل وقت كاف وانتظرت (سكوت) خارج البوابة المؤدّية إلى القطارات، إذ إنه هو الذي كان سيجلب التذاكر. وعندما اقترب موعد مغادرة القطار ولم يأتِ سكوت بعد، اشتريت تذكرة دخول إلى موقف القطارات وأخذت أتمشّى على الرصيف منتظراً وصوله. لم يقع نظري عليه، وحينما بدأ القطار بالتحرك قفزت إلى إحدى العربات وسرت داخل القطار كله على أمل أن أجده بين الركاب. كان ذلك القطار طويلاً ولم أعثر على سكوت فيه. شرحت الموضوع للجابي واشتريت تذكرة لنفسي، على الدرجة الثانية ـ إذ لم تكن هناك درجة ثالثة ـ وسألت الجابي عن اسم أفضل فندقٍ في ليون. لم يكن ثمة شيء يمكنني أن أفعله سوى أن أبعث ببرقية من ديجون أعطيه فيها عنوان الفندق الذي سأنتظره فيه في ليون. وقد لا تصله برقيتي قبل أن يغادر باريس، ولكنني افترضت أن زوجته ستبرق بعنواني إليه. لم أسمع قط، آنذاك، عن رجل بالغ يفوته القطار؛ ولكن تلك الرحلة علمتني أشياء جديدة كثيرة.

كنت في تلك الأيام حادّ الطبع سريع الغـضب، ولكـن فـي الوقت الذي مرّ فيه القطار بمدينة (مونترو)* كنـت قـد هـدأت وزايلني غضبي الشديد ورحت استمتع بمنـاظر الريـف، وعنـد الظهر تناولت غداء شهياً في عربة المطعم بالقطار وشربت قنينة من نبيذ (سان أميلون)*، وقلت في نفسي إنه على الرغم من أنني كنت مغفّلاً لأنني قبلت دعوة للقيام برحلة على حـساب شـخص آخر وانتهيت بدفع نفقاتها من مدخراتي التي نحتاجها للسفر إلـى إسبانيا، فإن ذلك كان درساً جيّداً لي. لم أكن قد قبلت مـن قبـل دعوة من أيّ شخص قط للذهاب في أيّ رحلة إلا إذا كنت سـأدفع نفقاتها مناصفة، وحتى في هذه الرحلة أصـررت علـى اقتـسام تكاليف الفندق والوجبات. ولكنني الآن لا أعرف حتى ما إذا كـان (فتزجيرالد) سيصل أم لا. وأثناء غضبي أنزلت رتبة علاقتي معه من (سكوت) إلى (فتزجيرالد). وبعد ذلك سررت لأنني اسـتنفدت غضبي في أول الرحلة وانتهيت من الموضوع. ولم تكـن تلـك الرحلة معدّة لرجل سريع الغضب.

وفي ليون علمت أن سكوت غادر باريس متوجها إلى ليـون ولكنه لم يترك كلمة بخصوص المكان الذي سينزل فيه. وأكـدت عنواني هناك وقالت الخادمة إنها ستعلمه به إذا اتصل بها هاتفياً. فالسيدة لم تكن في صحّة جيّدة وما زالت نائمـة. هاتفـت جميـع الفنادق الجيّدة في ليون وتركت رسائل شفوية لديها ولكني لم أعثر على سكوت. ثم ذهبت إلى مقهى لأتناول شراباً مـشهيّاً وأطـالع الصحف. وفي المقهى التقيت رجلاً يتكسّب من التهام النار وكذلك

من ثني قطع النقود التي يمسك بها بين فكيه الخاليين من الأسنان ثم يستخدم إبهامه وسبابته فقط. وكشر عن لثته فبدت ملتهبة ولكنها قوية، ووصف عمله بأنه *مهنة* لا بأس بها. دعوته لتناول شراب معي فسُرّ بذلك. كان له وجه أسمر لطيف يتوهّج ويشع عندما يأخذ في التهام النار. وقال إنه لا يكسب مالا من أكل النار ولا من ألعاب القوة بالأصابع والفكين في ليون. فأكَلة النار المزيّفون حطّموا *المهنة* وسيستمرّون في تحطيمها أينما سُمح لهم بمزاولتها. وقال إنه قام بأكل النار طوال المساء ومع ذلك فإنه لم يجمع من النقود ما يكفي لأكل أي شيء تلك الليلة. ودعوته لتناول شراب آخر ليتخلّص من مذاق البترول الذي يخلفه التهام النار، وقلت إننا نستطيع أن نتناول طعام العشاء معاً إذا دلّني على مطعم جيّد ورخيص، فقال إنه يعرف مكاناً ممتازاً.

وتناولنا الطعام في مطعم جزائري لقاء ثمن زهيد. واستحسنت الطعام والنبيذ الجزائري. ووجدت في آكل النار رجلاً لطيفاً، وأثار إعجابي وهو يأكل، فقد كان يستطيع مضغ الطعام بلثته المجرّدة مثلما يمضغ معظم الناس بأسنانهم. وسألني عن عملي الذي أعيش منه فأخبرته بأنني كاتب مبتدئ. وسأل عن نوع الكتابة التي أمارسها فقلت القصص. فقال إنه يعرف قصصاً كثيرة بعضها مريع لا يُصدّق أكثر من أي قصة مكتوبة. واقترح أن يروي قصصه لي ثم أتولى كتابتها وإذا ما كسبت مالا من جراء ذلك أعطيته ما أعدّه مبلغا منصفا. والأفضل من ذلك أن نرحل

معاً إلى شمال إفريقيا وسيأخذني إلى بلاد السلطان الأزرق حيث بوسعي الاطلاع على قصص لم يسمع بها إنسان من قبل.

وسألته عن نوع تلك القصص فقال المعارك، والإعدام، والتعذيب، والاغتصاب، والعادات المريعة، والطقوس التي لا تُصدّق، والدعارة، وأي شيء أحتاج إليه. وحان موعد عودتي إلى الفندق والاستفسار عن (سكوت) ثانية، فدفعت حساب المطعم وقلت له إننا لا بُدّ أن نتصادف مرة أخرى. وقال إنه سيتوجّه للعمل في مرسيليا* وقلت إننا سنلتقي في مكان ما عاجلاً أو آجلاً، وإنني سُعدت بتناول الطعام معه. وتركته وهو يعدّل اعوجاج قطع نقدية ويرتبها على الطاولة، وقفلت عائداً إلى الفندق.

لم تكن (ليون) مدينة مرحة في الليل، فهي مدينة كبيرة ثقيلة موسرة، ومن المحتمل أنها لا بأس بها إذا كنت تملك المال وتحب ذلك النوع من المدن. وكنت أسمع لسنوات خلت عن الدجاج اللذيذ في مطاعمها، ولكننا أكلنا لحم الغنم بدلا من الدجاج. وكان لحم الغنم ممتازاً.

لم تكن ثمة رسالة من (سكوت) في الفندق وأويت إلى فراشي في ترف الفندق الذي لم أعتد عليه، وطالعت في نسخة من المجلد الأول من (تخطيطات رجل رياضي)* لتورجنيف*، الذي كنت قد استعرته من مكتبة (سلفيا بيتش). لم أستمتع بترف فندق كبير منذ ثلاث سنوات، وفتحت الشبابيك على مصاريعها، ووضعت الوسائد تحت كتفيّ ورأسي وشعرت بسعادة لكوني مع تورجنيف في روسيا حتى غلبني النعاس وأنا ما زلت أقرأ. وفيما كنت أحلق

ذقني في الصباح استعدادا لتناول الفطور، نادوا عليّ من الاستقبال قائلين إن سيدا هناك يرغب في مقابلتي.

ــ :" دعه يصعد من فضلك." قلت ذلك وأنا أواصل حلاقــة ذقني، وأسمع المدينة وهي تعود ثانية إلى الحيــاة منــذ الــصباح الباكر.

لم يصعد سكوت فالتقيته في صالة الاستقبال.

وبادرني قائلاً:" آسف جداً للارتباك الذي حصل. لــو كنــت أعرف فقط في أي فندق ستنزل لصار الأمر أيسر."

قلت:" لا بأس." كنا سنقوم برحلة طويلة معاً وأردت أن أجنح للسلم. " في أي قطار أتيت؟"

ــ :" في قطار غادر بعد وقت قصير من قطارك. كان قطاراً مريحاً جداً، وكان من الممكن أن نأتي معاً."

ــ :" هل تناولت طعام الفطور؟"

ــ :" لما بعد. كنت أبحث عنك في طول المدينة وعرضها."

قلت :" هذا مؤسف. ألم يخبروك في المنزل أنني هنا."

ــ :" لا، كانت زيلدة مريضة، وربما كان ينبغــي علــيّ ألا آتي. والرحلة كلها بمثابة كارثة حتى الآن."

قلت :" لنتناول فطورنا ونجد السيارة وننطلق."

ــ حسناً، أنتناول فطورنا هنا في الفندق؟"

ــ :" سيكون أسرع في مقهى من المقاهي."

ــ :" ولكن من المؤكد أننا سنحصل على فطور جيّد هنا."

ــ :" طيّب."

وكان فطوراً أمريكياً كبيراً باللحم والبيض وكان جيّداً جـداً. ولكننا في الوقت الذي طلبناه، وانتظرناه، وأكلناه، وانتظرنا دفـع الحساب، أضعنا ساعة تقريباً. وبعد أن وصل النـادل بالحـساب، قرّر سكوت أن نطلب من الفندق أن يعدّ لنا غداء سفرياً. حاولـت أن أقنعه بالتخلي عن هذه الفكرة لأنني كنـت متأكـداً مـن أننـا نستطيع أن نشتري قنينة نبيذ ماكون في ماكون* ونشتري ما يلزم لإعداد شطائر باللحم المجفّف، أو نتوقف عنـد أي مطعـم مـن المطاعم العديدة على الطريق إذا كانت الحوانيت مغلقة. بيد أنـه قال إنني كنت قد أخبرته أن الدجاج رائع في ليون، وينبغي بكـل تأكيد أن نأخذ دجاجة معنا. وهكذا أعدّ الفندق لنا غداء كلفنا أربـع أو خمس مرات أكثر من ثمنه لو اشتريناه بأنفسنا.

من الواضح أن سكوت كان قد شرب قبل أن ألقاه وبدا عليـه كأنه في حاجة إلى شراب آخر، وسألته ما إذا كان يرغـب فـي تناول شراب في البار قبل أن ننطلق، فـأخبرني أنـه لا يتنـاول الصبوح وسألني ما إذا كنت أصطبح. فأخبرته أن ذلك يعتمد كليـاً على مزاجي وما عليّ أن أفعله في ذلك الصباح، فقال لي إذا كنتُ أشعر أنني أحتاج إلى شراب فإنه سينادمني لئلا أشـرب منفـرداً. وهكذا تناولنا شراب ويسكي مع ماء فوار (بربيه) في البار حينما كنا ننتظر إعداد الغداء، وشعرنا كلانا بارتياح.

دفعت حساب غرفتي في الفندق وحساب البار، على الـرغم من أن سكوت أراد أن يدفع كل شيء. لقد كانـت لـي مـشاعر متضاربة بشأن هذه الرحلة منذ بدايتها، وأحسست أن هناك ما هو

أكثر أهمية منها لإنفاق المال عليه. فقد أخذت أصرف ما ادخرته من نقود لرحلة أسبانيا، غير أنني أدركت أن بميسوري أن أقترض من سلفيا بيتش ما أريد لتعويض ما كنت أبذره الآن.

وفي المرأب (الكراج) الذي أودع فيه سكوت السيارة، دُهشت عندما ألفيت أن السيارة الرونو الصغيرة لا سقف لها؛ فقد تضرر السقف عند إنزال السيارة من الباخرة في مرسيليا، أو أنه تضرر بمرسيليا بكيفية ما، وطلبت زيلدة قطعه ورفضت تعويضه بسقف آخر. إذ كانت زوجته تكره سقوف السيارات، كما أخبرني سكوت، وقادا السيارة بدون سقف حتى ليون ثم أوقفتهما الأمطار. وفيما عدا ذلك فالسيّارة في حالة جيّدة. ودفع سكوت الفاتورة بعد أن جادلهم حول تكاليف مختلفة تخص الغسيل والتشحيم ولترَين إضافيين من للزيت. وأخبرني صاحب الكراج أن السيارة بحاجة إلى حلقات (أساور) جديدة لمكبس المحرّك، فمن الواضح أنها كانت تُستعمل بدون زيت ولا ماء كافيين. وأراني كيف تضرّرت صباغة المحرّك بسبب ارتفاع درجة حرارة المحرّك، وحثّني على إقناع السيد بإجراء ما تحتاج من عمل على حلقات المكبس في باريس بحيث يكون في مقدور السيارة، وهي سيارة صغيرة جيدة، تأدية الخدمة التي صُنعت من أجلها.

ـــ :" ألا يسمح لي السيد بتبديل السقف؟

ـــ :" كلا."

ـــ :" إن علينا التزامات تجاه السيارة."

ـــ :" علينا."

ــ :" أليس لدى السيّدين معاطف مطرية مشمعة؟"

قلت :" لا، لم أعرف شيئاً عن السقف."

وقال مستعطفاً:" حاول أن تجعل السيد أكثر جدية على الأقل فيما يخص السيارة."

قلت :" آه."

وأوقفتنا الأمطار على بعد حوالي ساعة شمالي مدينة ليون.

وأوقفتنا الأمطار في ذلك اليوم عشر مرّات تقريباً. وكانت على شكل زخّات عابرة بعضها أطول من بعض. ولو كان لدينا معاطف مشمعة لكان السفر ممتعاً تحت أمطار الربيع. ولكن في وضعنا ذاك كنا نضطر إلى الاحتماء من المطر تحت الأشجار، أو نتوقّف في المقاهي على الطريق. وكان لدينا الغداء الرائع من الفندق في ليون: دجاجة محمّرة بالكمأة مع خبز لذيذ ونبيذ ماكون الأبيض، وكان سكوت سعيداً جداً بشرب نبيذ ماكون في كل مرة توقفنا فيها. وكنت قد اشتريت من ماكون أربع قناني إضافية من النبيذ الجيد عمدت إلى فتحها كلما احتجنا إليها.

لست متأكداً ما إذا كان سكوت قد شرب النبيذ من القنينة مباشرة من قبل، لذا وجد ذلك أمراً مثيراً، كما لو كان يلج حيّاً فقيراً، أو كما تشعر فتاة تسبح بدون ثوب سباحة لأول مرة. ولكن أخذ القلق يساوره على صحته بعد الظهر. وأخبرني عن شخصين توفيا مؤخراً من جراء احتقان الرئتين. وكلاهما مات في إيطاليا وقد تأثّر كثيراً لذلك.

وقلت له إن احتقان الرئتين هو مصطلح قديم لذات الرئـــة أو الالتهاب الرئوي، فقال لي إنني لا أعرف شيئاً عنه وإنني مخطئ تماماً، وإن احتقان الرئتين مرض متأصل في البيئة الأوربية وليس من الممكن أن أعرف شيئاً عنه حتى إذا كنت قـد قـرأت كتـب والدي الطبيّة، لأنها تدور حول الأمراض الأمريكيّة تحديداً. وقلت إن والدي درس في أوربا كذلك. ولكن سكوت شرح لي أن احتقان الرئتين ظهر في أوربا مؤخراً فقط ولم يكن بمقـدور والـدي أن يعرف عنه شيئاً. وشرح لي كذلك أن الأمراض تختلف بـاختلاف المناطق حتى في أمريكا، وإذا كان والدي قد مارس الطـب فـي نيويورك بدلاً من الغرب الأوسط ، فإنه سـيتعرف علـى *طبقـة* مختلفة من الأمراض. واستعمل كلمة *طبقة*.

وقلت له إنه على حق من حيث انتشار أمراض معينـة فـي صقع من الولايات المتحدة واختفائها في أصقاع أخرى، وضربت مثلاً لذلك في مقدار الجذام فـي نيوأورليـانز وحدوثـه النـادر، حينذاك، في شيكاغو. بيد أني أضفت أن للأطباء نظامـاً لتبـادل المعلومات والمعرفة فيما بينهم؛ وقـد تـذكّرت، بعـد أن أثـار الموضوع، أنني كنت قد قرأت مقالاً عن احتقان الرئتين في أوربا في مجلة (الجمعية الطبية الأمريكية) يتتبع المـرض إلـى أيـام أبيقور* نفسه. وهذا أوقفه لهنيهة، فحثثته علـى تنـاول شـراب ماكون آخر، ما دام النبيذ الأبيض الجيد الذي يشتمل علـى نـسبة منخفضة من الكحول علاجاً ضـد المـرض، إذا تناولـه الفـرد باعتدال.

وانتعش سكوت قليلاً بعد ذلك ولكنه سرعان ما انتكس، وسألني إذا كنا سنصل مدينة كبيرة قبل أن تباغته الحمى والهلوسة. وعندها أبلغته أن مرض احتقان الرئتين الأوربي يعلن عن نفسه بأعراض واضحة. وكنت آنئذ أترجم من مقال قد قرأته في مجلة طبية فرنسية عن نفس المرض في صالة الانتظار في المستشفى الأمريكي بضاحية (نيي)*في باريس قبيل إجراء عملية كيّ لبلعومي. ولقيت كلمة كيّ ارتياحاً من قبل سكوت. ولكنه أراد أن يعرف متى سنصل إلى مدينة من المدن. فقلت إننا إذا واصلنا السير فسنبلغ مدينة بعد فترة تتراوح بين خمس وعشرين دقيقة وساعة.

وسألني سكوت ما إذا كنت أخشى الموت، فأجبت بأن ذلك الشعور ينتابني بين الفينة والأخرى.

وأخذت الأمطار تتساقط الآن بغزارة فلجأنا إلى مقهى في قرية قريبة. لا أتذكر تفاصيل بعد ظهر ذلك اليوم، ولكن عندما بلغنا أخيراً مدينة يفترض أنها (شالون على نهر الساون)*، كان الوقت متأخراً وجميع الصيدليات مغلقة. وخلع سكوت ملابسه وأوى إلى فراشه حالما وصلنا إلى الفندق. وقال إنه لا يأبه بالموت من جراء احتقان الرئتين. ولكن المسألة تكمن في مَن سيعتني بزوجته وطفلته الصغيرة سكوتي. ولم أتصور كيف يمكنني أن أعتني بهما في الوقت الذي أعاني فيه كثيراً من إعالة زوجتي هادلي وولدي الصغير بمبي*، ومع ذلك فقد وعدته بأنني سأبذل ما في وسعي لرعايتهما فشكرني سكوت على ذلك. كان

عليّ أن أتأكد من أن زيلدة لا تشرب وأن تكون لسكوتي مربيّة إنجليزيّة.

بعثنا بملابسنا لتُجفّف وبقينا بمنامتينا. وكانت الأمطار ما تزال تهطل في الخارج، ولكن الغرفة بهيجة من الداخل بفضل الأضواء الكهربائية. وظل سكوت مستلقياً على الفراش احتفاظاً بقوّته لمقارعة المرض. وقمت بجسّ نبضه فألفيته ٧٢، وتحسّست جبهته فوجدتها باردة. وأصخت السمع إلى صدره وطلبت منه أن يتنفس بعمق، فبدا لي صدره على ما يرام.

وقلت له :" اسمع، يا سكوت! أنت بخير تماماً. وإذا أردت أن تتحاشى الإصابة بالزكام، فأفضل شيء تفعله هو أن تبقى في فراشك فقط، وسأطلب لكل واحد منا كأساً من عصير الليمون والويسكي وتأخذ حبّة أسبرين مع شرابك، وستشعر كما ينبغي ولن تصاب حتى ببرد في رأسك.

فقال سكوت :" هذه من وصفات الزوجات العجائز."

ـ :" ليس عندك حرارة. فكيف تصاب ـ بحق جهنّم ـ باحتقان الرئتين بدون حرارة؟"

قال سكوت :" لا تجدّف أمامي. كيف تعرف أن لا حرارة عندي؟"

ـ :" نبضك طبيعي ولا وجود للحرارة عندك حين ألمسك."

قال سكوت بمرارة :" حين تلمسني." وأضاف: "إذا كنت صديقاً صدوقاً، آتني بميزان الحرارة."

ـ :" إنني بمنامتي."

ـــ :" أرسل مَن يأتي به."

وضغطت على زر الجرس لاستدعاء النادل. لم يأتِ فضغطت على الزر مرة ثانية، ثم نزلت إلى الرواق للبحث عنه. وكان سكوت مستلقياً على الفراش وعيناه مغمضتان، ويتنفس ببطء وعناية، وتبدّى لي بلونه الشمعيّ وتقاطيع وجهه الكاملة مثل فارس صليبيّ ميت. وأخذت أشعر بالسأم من حياة التفرغ للأدب إذا كانت تلك هي الحياة الأدبية التي أعيشها. وأخذت أفتقد العمل، وأحسست بوحشة الموت التي تغشانا في نهاية كلّ يوم يضيع من حياتنا. ومللت سكوت ومهزلته السخيفة، بَيد أنني عثرت على النادل وأعطيته نقوداً ليشتري بها ميزان حرارة وعلبة أسبرين، وطلبت كأسَي عصير ليمون واثنين من الويسكي. أردت أن أطلب قنينة ويسكي كاملة ولكنهم لا يبيعونه إلا بالكؤوس.

وحينما عدت إلى الغرفة ألفيت سكوت ما زال ممدّداً كما لو كان في لحده، منحوتاً مثل مومياء، وعيناه مغمضتان، وهو يتنفّس بوقار لا مثيل له. وعندما سمعني أدخل الغرفة تكلم :" هل أتيت بالمحرار؟"

دنوت منه ووضعت يدي على جبهته. لم تكن باردة كالقبر، ولكنها كانت باردة وليست رطبة. وقلت :" لا."

ـــ :" ظننت أنك أتيت به."

ـــ :" بعثت في طلبه."

ـــ :" ليس هذا الشيء نفسه."

ـــ :" لا، ليس الشيء نفسه، أليس كذلك؟"

ليس في وسعك أن تغضب على سكوت أكثر مما تغضب على شخص أحمق، ولكنني أمسيت غاضباً على نفسي لتورطي في هذه المهزلة. ولكنه كان على حق في أمر، وأنا أعرف ما هو جيداً. كان معظم السكيرين يموتون في تلك الأيام من التهاب الرئتين، وهو مرض تم استئصاله تقريباً في الوقت الحاضر. ولكن من الصعب أن تعدّه سكيراً، ما دام يتأثر بمثل تلك الكميات القليلة من الكحول.

كنا في أوربا نظنّ آنذاك أن النبيذ شيء صحّيّ وطبيعيّ كالغذاء ونعتبره كذلك مانحاً كبيراً للسعادة والخير والانشراح. لم يكن تناول النبيذ نوعاً من الاستعلاء أو علامة الرقي أو صنفاً من العبادة، بل كان شيئاً طبيعياً كالطعام، وبالنسبة لي ضرورياً كذلك كالطعام، فلم أفكر قطّ في تناول وجبة من الوجبات دون أن أتناول معها إما نبيذاً أو عصير التفاح أو الجعة. وأحببت جميع أصناف النبيذ ما عدا النبيذ الحلو والنبيذ الثقيل جداً. ولم يخطر ببالي أبداً أن منادمة سكوت في شرب بضع قناني من نبيذ ماكون الأبيض الجاف الخفيف نوعاً ما يمكنها أن تُحدث فيه تغيرات كيميائية وتحوّله إلى رجل أحمق. نعم كان هناك الويسكي وماء بيرييه الفوّار في الصباح، ولكن لجهلي بالكحوليّات يومئذ، لم أتصور أن كأساً واحدة من الويسكي سيؤذي أيّ شخص يقود سيارة مكشوفة في المطر. لا بد أن الكحول قد تأكسد بعد فترة وجيزة.

وفي انتظار وصول النادل مع الأشياء المختلفة، جلست أقرأ جريدة وأنهي قنينة نبيذ ماكون لم تفتح أثناء توقّفنا الأخير. ثمة

جرائم رائعة دائماً في الصحف ويمكنك متابعتها يوماً بعد يـوم إذا عشت في فرنسا. وتقرأ تلك الجرائم مثل قصص مسلسلة، ومـن الضروري قراءة الفصول الافتتاحية، وذلك لعدم وجود ملخّصات للفصول السابقة كما هو الحال في القصص المسلسلة الأمريكيـة؛ وعلى كلّ حال، فإنك لا تستمتع بقصة أمريكيّة مسلسلة ما لم تكن قد قرأت الفصل الأول ذا الأهمية القصوى. وعندما تسافر عبـر فرنسا، فالصحف مخيّبة للآمال؛ لأنك تفتقـد الاسـتمراريّة فـي الجرائم، والغراميّات، والفضائح المختلفة، وتفقد كثيراً من المتعـة التي تستقيها منها وأنت تطالعها في مقهى. وهذه الليلة كنت أفضّل كثيراً أن أكون في مقهى حيث يمكنني أن أقرأ الطبعة الـصباحية لصحف باريس وأشاهد المارّة وأشرب شيئاً أقوى من نبيذ ماكون تمهيداً لتناول العشاء. بيد أنني كنت أعتني بسكوت، وهكذا عملت على تسلية نفسي حيث كنت.

وعندما وصل النادل وهو يحمل كأسَي عصير الليمون والثلج والويسكي وقنينة ماء بيرييه الفوّار، أخبرني أن الصيدلية مغلقـة، وإنه لم يستطع الحصول على محرار، وأنه استعار بعض حبـات الأسبرين. ورجوته أن يحاول استعارة محرار. وفتح سكوت عينية وحدج النادل بنظرة إيرلندية مؤذية.

وسألني :" هل أخبرته أن الحالة خطيرة."

ـ :" أظن أنه يفهم."

ـ " أرجو أن تحاول توضيح ذلك له."

وحاولت أن أبيّن ذلك للنادل الذي قال: " سأفعل ما بوسعي."
ــ :" هل أعطيته من البقشيش ما يكفي ليبذل جهده. إنهم يعملون فقط عندما يحصلون على بقشيش."
قلت :" لم أعلم بذلك. ظننت أن الفندق يدفع لهم شيئاً إضافة إلى مرتبهم."
ــ :" أعني أنهم لا يفعلون شيئاً لأجلك ما لم تدفع لهم بقشيشاً كبيراً، فمعظمهم فاسد حتى النخاع."

وفكرت في إيفان شبمان* وتذكّرت النادل في مقهى بستان الليلك الذي أُجبر على حلق شاربه عندما وضعوا باراً أمريكياً في المقهى، وكيف كان شبمان يعمل في حديقة ذلك النادل في ضاحية مونتروج* قبل وقت طويل من تعرفي على سكوت، وكيف كنا جميعاً أصدقاء طيبين في مقهى البستان ردحاً طويلاً من الزمن، وتذكرت جميع ما جرى وتأثيره فينا جميعاً. وعلى الرغم من أنني كنت، على ما يحتمل، قد ذكرت ذلك لسكوت من قبل، فإنني أعلم أنه لا يهتم بالنُدُل ولا بمشاكلهم ولا بلطفهم ومحبتهم. وكان سكوت في ذلك الوقت يكره الفرنسيين، ولما كان الفرنسيون الوحيدين الذين يلتقي بهم سكوت هم النُدُل الذين لم يفهمهم، وسواقي سيارات الأجرة، ومستخدمي الكراجات، وملاكي الشقق، فقد أتيحت له فرص كثيرة لإهانتهم وهضم حقوقهم.

وكان سكوت يكره الإيطاليين أكثر من الفرنسيين ولم يستطع التحدّث عنهم بهدوء حتى عندما كان صاحياً. وغالباً ما كره الإنجليز بيد أنه كان يحتملهم أحياناً ويحترمهم بعض المرات. ولم

أعرف مشاعره تجاه الألمان والنمساويين. ولم أعلم ما إذا التقى أحدهم أو أيّ سويسري قط.

وسررت في تلك الأمسية بالفندق، لأنه كان هادئاً. وخلطت عصير الليمون والويسكي وقدّمته له مع حبّتي أسبرين، وبلع الأسبرين بدون اعتراض وبهدوء يثير الإعجاب وراح يحتسي شرابه. وكانت عيناه مفتوحتين الآن وقد صوّب نظره بعيداً. وكنت أقرأ عن *الجريمة* في الصحيفة وكنت مسروراً، مسروراً أكثر من اللازم على ما يبدو.

وسألني سكوت :" أنت رجل بارد، أليس كذلك؟"

وعندما نظرت إليه رأيت أنني كنت مخطئاً في وصفتي، إن لم أكن مخطئاً في تشخيصي، فقد أخذ الويسكي يفعل فعله ضدنا.

ـــ :" ماذا تعني بذلك، يا سكوت؟"

ـــ :" بميسورك أن تجلس هناك وأنت تقرأ تلك الجريدة الفرنسية القذرة ولا يعني لك شيئاً أنني أموت هنا."

ـــ :" هل تريدني أن أستدعي طبيباً؟"

ـــ :" لا، إنني لا أريد طبيباً فرنسياً ريفياً قذراً."

ـــ :" ماذا تريد، إذن؟

ـــ :" أريد أن تُقاس حرارتي. ثم أريد أن تُجفف ملابسي وأن نستقل قطاراً سريعاً إلى باريس لأذهب إلى المستشفى الأمريكي في نيي."

فقلت :" ملابسنا لا تنشف حتى الصباح ولا توجد قطارات سريعة. لماذا لا تستريح وتتناول طعام العشاء في الفراش؟"

ــ :" أريد أن تُقاس حرارتي."

وبعد ذلك بوقت طويل جلب النادل المحرار. وسألته :" هل هذا المحرار الوحيد الذي استطعت الحصول عليه؟" وأغمض سكوت عينيه عندما دخل النادل وبدا على الأقل كما لو رحل بعيداً مثل كاميليا*. ولم أرَ في حياتي قط رجلاً يهرب الدم من وجهه بمثل تلك السرعة، وتساءلت أين ذهب ذلك الدم.

وقال النادل :" إنهَ المحرار الوحيد الذي في الفندق." وناولني المحرار. لقد كان محرار الحمام وله قاعدة خشبية وعليه من المعدن ما يكفي لجعله يغطس في الحمام. وأخذت بسرعة جرعة من الويسكي وفتحت الشباك لحظة لأطلّ على المطر. وعندما استدرت رأيت سكوت وهو يراقبني.

نفضت المحرار بطريقة مهنية وقلت:" إنك محظوظ لأنه ليس محراراً مستقيماً "

ــ :" أين يوضع هذا النوع؟"

ــ :" تحت الإبط." قلت ذلك ودسسته تحت ذراعي.

وقال سكوت :" لا تربك المحرار." ونفضت المحرار مرة أخرى، بهزّة حادّة واحدة إلى الأسفل، وفككت أزرار منامته ووضعت الآلة تحت إبطه وأنا أتحسس جبهته الباردة بيدي، ثم أخذت نبضه مرة اخرى. كان يحدّق في الفضاء البعيد. وكان نبضه ٧٢. وأبقيت المحرار تحت إبطه أربع دقائق.

وقال سكوت :" ظننت أنهم يضعون المحرار مدة دقيقة واحدة فقط."

"فشرحت له قائلاً :" إنه محرار كبير، ولهذا فأنت تضرب الوقت بمربع حجم المحرار. إنه محرار مئويّ "

وأخيراً أخرجت المحرار وأخذته تحت الضوء لقراءته.

ـ :" ما هي؟"

ـ :" سبع وثلاثون وستة أعشار."

ـ :" وما هي الطبيعيّة؟

ـ :" تلك هي الطبيعيّة."

ـ :" هل أنت متأكّد؟"

ـ :" بالتأكيد."

ـ :" جرّبه عليك. لا بدّ أن أتأكد."

نفضت المحرار وفتحت منامتي ووضعته تحت إبطي وأنا أراقب الساعة. ثم ألقيت نظرة عليه."

ـ :" ما هي؟" ونظرتُ إلى المحرار.

ـ :" نفس الشيء بالضبط.

ـ :" وكيف تشعر؟"

قلت :" رائع." وكنت أحاول أن أتذكّر ما إذا كانت سبعة وثلاثين وستة أعشار هي درجة الحرارة العادية أم لا. ولم يكن ذلك مهما لأن المحرار كان ثابتاً على درجة ثلاثين لم يتغير.

وأخذ الشكّ يساور سكوت قليلاً ولهذا سألته عما إذا كان يريدني أن أعيد التجربة. فقال :" لا، يمكن أن نسعد لأن الغمّة انجلت بسرعة، فأنا أتوفّر دائماً على قوة عظيمة تمكّنني من استرداد عافيتي."

قلت :" أنت بخير. ولكن أظن أن من الأفضل، مع ذلك، أن تبقـــى في فراشك وتتناول عشاء خفيفا، ثـــم بمقـــدورنا أن ننطلـــق فـــي الصباح الباكر."

وكان في نيتي أن أقتني معطفين مطريين لنا، ولكن يتوجـــب عليّ أن أقترض النقود منه ولم أرد أن أبدأ الجدال معه حول ذلك الآن.

لم يشأ سكوت أن يبقى في الفراش. أراد أن ينهض ويرتـــدي ملابسه وينزل ليتصل هاتفياً بزيلدة لتعلم أنه على ما يرام.

ـــ " ولماذا تظنّ زيلدة أنك لست على ما يرام؟"

ـــ :" هذه أول ليلة أبات بعيداً عنها منذ زواجنا ولا بـــد مـــن مكالمتها. ويمكنك أن ترى ما يعنيه ذلك لكلينا، ألا يمكنك ذلك؟"

كان بإمكاني أن أرى ذلك، ولكن لم يكن بإمكـــاني أن أرى كيـــف استطاع هو وزيلدة أن يناما معا الليلة الفائتـــة، بيـــد أن ذلـــك لا يستحق المناقشة. وتناول سكوت الويسكي بسرعة فائقة الآن، ثـــم رجاني أن أطلب كأسا آخرى. وجدت النادل وأعدت المحرار إليه وسألته عما إذا كانت ملابسنا قد جفت، فقال إنها قد تغدو جـــاهزة بعد حوالي الساعة. وقلت له:" اطلب من مـــستخدم التنظيـــف أن يعصر ملابسنا مما يساعد على تجفيفها. وليس من المهم أن تكون جافة كالعظم."

وجلب النادل الشرابَين اللذين طلبناهما للوقاية مـــن الزكـــام. وأخذت أحتسي شرابي وحثثت سكوت على احتساء شرابه بتؤدة. وانتابني القلق الآن من إمكان إصابته بالزكام، وتأكد لي بعد كـــل

ما مرّ بنا من أنه إذا أُصيب بعارض مُحقّق كالزكام فإن دخولــه المستشفى قد يمسي محتّماً. ولكن الشراب جعله يـشعر بارتيــاح برهة من الوقت، وأحسّ بسعادة وهو يتعايش مع مضامين الكارثة المتمثّلة في فراقه مع زيلدة لأولّ ليلة منذ زواجهما. وأخيــراً لــم يحتمل الانتظار أطول من ذلك فَارتدى بُرده ونزل لمكالمة زيلــدة هاتفياً.

واستغرق طلب تسجيل المكالمة الهاتفية بعض الوقت وبعدها بقليل صعد سكوت إلى الغرفة، وظهر النادل خلفه حاملاً كأسـين أخريين من الويسكي. وهكذا شاهدت سكوت يشرب أكبر قدر من الكحول، حتى ذلك الحين، ولكن لم يؤثر فيه سوى أنه جعله أكثــر حيوية وثرثرة، وراح يحدّثني بإيجاز عــن حياتــه مــع زيلــدة. فأخبرني كيف التقاها إبان الحرب ثم فقدها ثــم اسـتعادها، كمــا أخبرني عن زواجهما، وبعدئذ عن كارثة حاقت بهما فــي ســانت رافائيل* قبل عام تقريباً. وكانت تلك الرواية الأولى التي ســردها عليّ حول وقوع زيلدة في غرام ضــابط طيّــار مــن البحريّــة الفرنسيّة قصة حزينة وأعتقد أنها حقيقية. فقد سرد عليّ فيما بعــد روايات أخرى لتلك القصة، كما لو كان يجربها للاســتعمال فــي قصة طويلة يكتبها، ولكن لم تكن أي من تلك الروايات بمثل حزن الرواية التي سردها عليّ أول مرة، علــى الــرغم مــن أن مــن المحتمل أن تكون إحدى تلك الروايات صادقة. وفي كــل روايــة كان السرد أفضل، ولكنها لم تؤلمني كما آلمتني الصيغة الأولى.

كان سكوت فصيحاً ومتمكناً من السرد. ولم يكن مــضطراً

لوضع النقاط على الحروف، ولا يخامرك إحساس بأنك تستمع إلى أميّ وصلك خطابه قبل أن تُصحَح كلماته وعباراته عرفتــه مــدة عامين قبل أن يتمكن من تهجية اسمي بصورة صــحيحة، ولكــن اسمي اسم طويل وربما يصبح أصعب تهجية في كــل محاولــة، وأخيرا اعترفت بمقدرته وهنأته على تمكّنه من كتابة اسمي بشكل صحيح. وتعلّم بعد ذلك كيف يتهجّى أشياء أكثر أهمية، وحاول أن يفكر بشكل مستقيم بشأن أمور كثيرة.

أرادني في تلك الليلة أن أعرف وأفهم وأتفهّم ما حــدث فــي سان رافائيل، ورأيت كلّ شيء بوضوح بحيث أصبح بوســعي أن أشاهد طيّار البحرية وهو يُقبل بسرعة في عوامته، وأشاهد لــون البحر وشكل العوامة والظلّ الذي يلقيانه على بشرة زيلدة وبــشرة سكوت وعلى اللونين الأشقر الغامق والأشقر الخفيف لــشعرهما، وعلى الوجه المسمر للفتى عاشق زيلدة. ولم أتمكن مــن طــرح السؤال الذي ألحّ على ذهني وهو : إذا كانت تلك القصة حقيقيــة وأنها وقعت فعلاً، كيف يستطيع سكوت أن ينام كلّ ليلة في نفــس الفراش مع زيلدة؟ ولكن ربما يكون ذلك هو الذي جعل تلك القصة حزينة أكثر من أي قصة أخرى رويت لي على الإطلاق، وربمــا لم يتذكّر، كما لم يتذكّر الليلة الفائتة.

وصلت ملابسنا قبل أن تــصل مكالمــة ســكوت الهاتفيــة وارتديناها ونزلنا لتناول طعام العشاء. وكان سكوت غير مــستقرّ نوعاً ما وكان ينظر إلى الناس من طرف عينيه مع شــيء مــن العدائيّة. وقدموا لنا قواقع بحريّة جيّدة مع غرّافة نبيذ، وبينما كنــا

في منتصفها وصلت مكالمة سكوت الهاتفية، فذهب لإجرائها وظل حوالي الساعة فأكلت حصته من القواقع في نهاية المطاف، وكنت أتناولها مع كسرات من الخبز أغمسها في الزبدة المخلوطة بالثوم والبقدونس، وشربت غرّافة النبيذ. ولما عاد قلت له إنني سأطلب له قواقع أخرى ولكنّه قال إنه لا يريدها. ورغب في تناول شيء أبسط. لم يرد شريحة لحم، ولا الكبد، ولا القديد، ولا البيض. إنه سيتناول الدجاج. كنا قد أكلنا دجاجة باردة جيدة وقت الغداء، ومع ذلك فإن هذه المنطقة مشهورة بدجاجها، وهكذا تناولنا دجاجة وقنينة نبيذ أبيض طيّب من منتجات تلك المنطقة. وأكل سكوت قليلا واحتسى كأساً من النبيذ. وأغمي عليه على الطاولة ورأسه على يديه. وكان ذلك طبيعياً وليس مشهداً تمثيلياً وبدا كما لو كان حريصاً على عدم إراقة النبيذ أو كسر الصحون. وقمت أنا والنادل بنقله إلى الغرفة ومددناه على فراشه وخلعت ملابسه وعلّقتها، ثم غطيته بملاءة الفراش. وفتحت الشباك ولاح لي الجوّ صحواً في الخارج، وتركت الشباك مفتوحاً.

ونزلت ثانية إلى المطعم لأنهي عشائي ورحت أفكر في سكوت. كان واضحاً أنه من اللازم أن لا يتناول المشروبات، وأنني لم أعتنِ به كما يجب. فكل شيء كان يشربه يثيره كثيراً ويسمّمه، وقرّرت أن أقلّل الشراب إلى الحد الأدنى في اليوم التالي. سأخبره بأننا عائدون إلى باريس ويتوجّب عليّ أن اضبط نفسي وأمتنع عن الشرب لأستأنف الكتابة. وليس ذلك بصحيح، فالانضباط الذي كنت أمارسه هو الامتناع عن الشراب بعد العشاء

وقبل الكتابة وفي أثنائها. صعدت إلى الغرفة وفتحت جميع الشبابيك على مصراعيها وخلعت ملابسي واستغرقت في النوم حالما أويت إلى فراشي.

وفي اليوم التالي سقنا السيارة إلى باريس في نهار مشرق جميل مروراً بشاطئ الذهب*، وكان الهواء منعشاً بعد سقوط المطر، وبدت التلال والسهوب وحقول العنب كلها جديدة، وأصبح سكوت بهيجاً سعيداً وبصحّة جيدة، وأخبرني بعقدة كل رواية من روايات ميخائيل آرلن*. وقال إن ميخائيل آرلن هو الرجل الذي يتوجّب عليّ أن أتابع أعماله، وأنا وهو يمكننا أن نتعلّم منه كثيراً. وقلت إنني لم استطع قراءة تلك الكتب، فقال ليس ذلك ضرورياً، فهو سيتولى شرح عُقد الروايات ووصف شخوصها. وألقى عليّ نوعاً من أطروحة دكتوراه شفوية حول ميخائيل آرلن.

وسألته ما إذا كان اتصاله الهاتفي مع زيلدة واضحاً بلا ضوضاء فقال إنه لا بأس به وأنهما تحدّثا حول أمور كثيرة. وعند تناول الطعام طلبت قنينة من أخف نبيذ استطعت أن أجده في القائمة، وأخبرت سكوت أنه سيتكرّم عليّ كثيراً إذا منعني من طلب المزيد من النبيذ؛ لأنه يتوجّب عليّ الامتناع من الشرب قبل أن أستأنف الكتابة، وأنه لا ينبغي أن أشرب أكثر من نصف القنينة بأي حال من الأحوال. وتجاوب سكوت معي في ذلك بصورة رائعة، وعندما لاحظ توتّري ونحن نقترب من نهاية القنينة، أعطاني بعض حصته.

وبعدما تركته في منزله وعُدت بسيّارة أجرة إلـــى المنـــشرة، خامرني إحساس رائع لدى رؤية زوجتي، وذهبنا معاً إلى مقهـــى بستان الليلك لتناول شراب هناك. وشعرنا بسعادة الأطفال الـــذين يلتقون بعد فراق، وحدّثتها عن الرحلة.

وسألتني :" ولكن ألم تمرح أو تتعلّم شيئاً يا تاتي؟"

ــ :" كنت سأتعلّم عن ميخائيل آرلن، لو أصــختُ الـــسمع، وتعلّمت أشياء لم أصنفها بعد."

ــ :" ألم يكن سكوت سعيداً على الإطلاق؟"

ــ :" ربما."

ــ :" مسكين."

ــ :" تعلمت شيئاً واحداً."

ــ :" ما هو؟"

ــ :" لا تسافر أبدا مع أيّ إنسان لا تحبه."

ــ :" أليس ذلك جميلاً؟"

ــ :" نعم، وسنسافر معاً إلى إسبانيا."

ــ :" نعم، فلم يبقَ على موعد رحلتنا إلا أقل من ستة أسابيع. ولن ندع أحداً يفسدها علينا هذا العام."

ــ :" لا. وبعد بتكبلونا* سنذهب إلى مدريد وبلنسيا."

وقالت بغنج :" م م م م " مثل قطة.

وقلت :" مسكين سكوت."

وقالت هادلي :" مسكين مَن لا يملك المال."

ــ :" إننا محظوظون حقاً."

ـــ :" يجب علينا أن نكون طيّبين ونحافظ على سعادتنا."

ولمس كلانا الخشب على طاولة المقهى. وجاء النادل ليرى ما نريد. ولكن الذي نريده لا يمكن أن يحقّقه لنا النادل أو لمس الخشب أو المرمر، لأن سطح الطاولة في ذلك المقهى كان من المرمر. ولكننا لم نعرف ذلك في تلك الأمسية، وأحسسنا بسعادة غامرة.

وحمل إليّ سكوت كتابه بعد يوم أو يومين من تلك الرحلة. وكان له غلاف ورقي خارجي صارخ الألوان، وأذكر أنني شعرت بنوع من الحرج أمام قلة الذوق الذي أُخرج به غلاف الكتاب، فقد تبدّى لي مثل غلاف رواية بوليسية سيئة. وقال إنه أعجبه الغلاف سابقاً ولم يعُد يعجبه الآن. وخلعت الغلاف الخارجي لكي أقرأ الكتاب.

وعندما انتهيت من قراءة الكتاب تأكّد لي أنّه مهما فعل سكوت وكيفما تصرّف فإن عليّ أن أعلم أن سلوكه نوع من المرض، ومن واجبي أن أقدّم له ما في وسعي من مساعدة وأحاول أن أصبح صديقاً وفياً له. كان له أصدقاء خلّص عديدون أكثر من أي واحد آخر أعرفه. ومع ذلك فإنني اعتبرت نفسي صديقاً إضافياً له سواء استطعت نفعه أم لا. وما دام قد تمكّن من تأليف كتاب رائع مثل (غاتسبي العظيم) فأنا متأكّد أن بوسعه أن يكتب كتاباً آخر أروع منه. لم أكن قد تعرفت على زيلدة بعد ولهذا لم أعرف ما يخبئه له القدر من مصائب. بيد أننا سنكتشف تلك المصائب عما قريب جداً.



١٨

الصقور لا تتقاسم الفريسة

دعانا سكوت فتزجيرالد لتناول طعام الغداء معه وزوجته وابنته الصغيرة في الشقة المؤثثة التي استأجروها في البناية رقم ١٤ شارع تلسيت*. ولا أستطيع أن أتذكّر الشيء الكثير عن الشقة ما عدا كونها كئيبة وسيّئة التهوية ويبدو أن لا شيء فيها تعود ملكيته لهم باستثناء كتب سكوت الأولى المجلّدة بجلد أزرق خفيف ولها عناوين مذهّبة. وأطلعنا سكوت على دفتر حسابات كبير يحتوي على عناوين جميع القصص التي نشرها مرتّبة حسب سني نشرها والمبالغ التي قبضها لقاءها، وكذلك المبالغ التي تلقاها عن كل شريط سينمائيّ، وكذلك مبيعات كتبه وحقوق نشرها. ودُوِّنت تلك المعلومات بعناية تضاهي دقّة دفتر السفينة؛ وعرضها سكوت علينا أنا وزوجتي بصورة موضوعيّة كما لو كان محافظ متحف من المتاحف. وكان سكوت مرتبكاً ومضيافاً وأطلعنا على حساب مدّخراته كما لو كان معرضاً فنياً. وليس ثمة معرض.

وكانت زيلدة تعاني من خمار السكر. فقد ذهبا الليلة الماضية إلى مونمارتر* وتشاجرا هناك لأن سكوت لم يُرد أن يسكر. لقد قرّر، كما أخبرني، أن يعمل بجدّ وألا يشرب في حين تعامله زيلدة

كما لو كان معكّر الصفو أو مكدِّر الأفراح. وقد نَعَتَته بهاتين العبارتين، وراحا يكيلان التهم أحدهما للآخر ثم قالت زيلدة: " لم أقل ذلك. لم أفعل شيئاً من ذلك، هذا غير صحيح، يا سكوت." وبعد ذلك بدا عليها كما لو تذكّرت شيئاً وأخذت تضحك بسعادة.

لم تبدُ زيلدة في أحسن أحوالها ذلك اليوم. فشعرها الأشقر الغامق قد أفسده مؤقّتاً صبغ سيّئ اشترته في ليون يوم اضطرهم المطر لترك سيارتهما هناك، وكانت عيناها متعبتين ووجهها متوتراً ومنقبضاً.

وكانت لطيفة معي ومع هادلي بصورة رسميّة، بَيد أنه تبدّى قسم كبير من كيانها كما لو كان غير حاضر معنا بل ما زال في الحفلة التي عادت منها ذلك الصباح. ويبدو أنها وسكوت كانا يشعران بأننا(أنا وسكوت) قد تمتعنا كثيراً وأمضينا وقتاً رائعاً معاً في رحلتنا إلى ليون، وأصابتها الغيرة بسبب ذلك.

وقالت لسكوت :" عندما تذهبان أنتما وتمضيان وقتاً ممتعاً معاً بكل بساطة، فمن العدل أن أمرح أنا قليلاً مع أصدقائنا الطيّبين هنا في باريس."

كان سكوت يمثّل المُضيف الكامل وتناولنا غداء سيّئاً حسّنه النبيذ بعض الشيء وليس كثيراً. وكانت ابنتهما الصغيرة شقراء، مدوّرة الوجه، ممتلئة الجسم، وتبدو بصحة جيّدة، وتتكلم الإنجليزية بلهجة عامية بريطانية قويّة. وأوضح لنا سكوت أن مربيتها إنجليزية لأنه يريدها أن تتحدث مثل الليدي ديانا مارنرز* عندما تكبر.

وكان لزيلدة عينا صقر، وفم دقيق، وأخلاق ولهجة أمريكية جنوبيّة. وعندما تُمعن النظر في وجهها يمكنك أن تلاحظ أن فكرها يغادر المائدة وينتقل إلى حفلة الليلة البارحة ويعود وعيناها فارغتان مثل عيني قطة، ثم تنشرح ويظهر الانشراح على طول الخطوط الدقيقة لشفتيها ثم يختفي. وكان سكوت مُضيفاً طيباً وبهيجاً، ونظرت إليه زيلدة وابتسمت بسعادة بعينيها وفمها كذلك عندما شرب النبيذ. وتدربتُ على معرفة تلك الابتسامة جيّداً، فهي تعني أن سكوت لن يتمكن من الكتابة.

كانت زيلدة غيورة من عمل سكوت، وعندما عرفناهما جيّداً أصبحت غيرتها أمراً معتاداً. يقرر سكوت عدم الذهاب إلى حفلات الشراب التي تستغرق الليل كله لكي يتمرّن قليلاً كل يوم ويمارس الكتابة بانتظام. ويبدأ العمل وحالما ينهمك فيه تأخذ زيلدة بالتشكّي من ضجرها وعزلتها وتجبره أن يرافقها إلى حفلة شراب أخرى. ويتخاصمان ثم يتصالحان، ويأتي إليّ لنتمشّى مسافة طويلة يتخلص بها من أثر الكحول، ويصمم على أن يعمل بجدّ هذه المرة، ويبدأ بداية حسنة، ثم تدور الدائرة كالمعتاد مرة أخرى.

كان سكوت مغرماً بزيلدة جدّاً، ويغار عليها كثيراً. وقد أخبرني عدة مرات في نزهاتنا كيف أنها وقعت في غرام طيار من البحريّة الفرنسيّة. بيد أنها لم تثِرْ غيرته مع رجل آخر منذ ذلك الحين. وفي هذا الربيع أثارت غيرته مع نساء أخريات، وفي حفلات حيّ المونمارتر كان يخشى من أن يُغمى عليه أو عليها

من شدّة السكْر. وكان الإغماء أثناء الشرب يمثل وقاية لهما من الاستمرار فيه. وكانا يتناولان الشراب أو الشمبانيا لمساعدتهما على النوم ولكن ذلك قليل التأثير في شخص اعتاد على الشراب، ويأويان إلى فراشهما مثل الأطفال. وحدث أن شاهدتهما وقد أُغمي عليهما لا كمن كان تحت تأثير السكْر بل كمن كان تحت التخدير، ويتولى أصدقاؤهما أو، أحيانا، سائق سيارة الأجرة نقلهما إلى فراشهما، وعندما يستفيقان في الصباح يشعران بنشاط وسعادة، لأنهما لم يأخذا من الكحول ما يكفي لتدمير جسديهما قبل أن يُغمى عليهما.

والآن فقدا وقايتهما الطبيعيّة. فقد أصبحت زيلدة في هذا الوقت قادرة على أن تشرب أكثر من سكوت، وصار سكوت يخشى عليها من الإغماء أمام رفاقهما في الأماكن التي كانوا يرتادونها ذلك الربيع. ولم يحب سكوت تلك الأماكن ولا الأشخاص، وكان عليه أن يشرب أكثر مما يطيق ويبقى متماسكاً، ليحتمل تلك الأماكن وأولئك الأشخاص، ثم أخذ يشرب ليبقى صاحياً بعد أن كان يغمى عليه عادة. وفي النهاية لم يتبقَّ لديه إلا فترات يسيرة للعمل.

كان يحاول دائما أن يعمل. ففي كلّ يوم كان يحاول ولكنه يفشل. وعزا سبب فشله إلى باريس، تلك المدينة التي تتوفّر على كلّ ما يساعد الأديب على الكتابة، وكان يعتقد بوجود مكان ما يستطيع هو وزيلدة أن يستمتعا فيه بالحياة الطيّبة معاً مرة أخرى. وفكّر في الريفيرا، كما كانت آنذاك وقبل أن يزحف عليها البناء،

بما لها من مساحات واسعة من زرقة البحر والشواطئ الرمليّة وغابات أشجار الصنوبر وجبال الأستيرال* المطلة على البحر. وكان يتذكّرها كما رآها هو وزيلدة أول مرة قبل أن يذهب الناس هناك لتمضية الصيف.

وحدّثني سكوت عن الريفيرا وكيف يتوجّب عليّ وزوجتي أن نذهب إلى هناك في الصيف الموالي وكيف أنه سيجد لنا مكاناً غير باهظ الثمن وكيف سنعمل كلانا بجد ونسبح ونستلقي على الشاطئ، وتلوّح الشمس بشرتنا، ولا نتناول إلا مشروباً فاتحاً للشهية قبل الغداء وآخر قبل العشاء فقط. وقال إن زيلدة ستسعد هناك، فهي تحبّ السباحة وتجيد الغطس وستسرها تلك الحياة فتحثّه على العمل وسيغدو كل شيء منضبطاً. وكان يتأهب هو وزوجته وابنتهما للذهاب إلى هناك في ذلك الصيف.

حاولت أن أقنعه بكتابة قصصه على أفضل وجه يستطيع دون أن يخضعها لأي وصفة كما كان يفعل. وقلت له : " إنك كتبت رواية جيدة الآن، ولا ينبغي أن تكتب شيئاً رخيصاً بعد اليوم."

فقال :" ولكن تلك الرواية لا تُباع. ويجب أن أكتب قصصاً وأن تُباع هذه القصص."

ـــ :" اكتب أفضل قصّة في مقدورك واكتبها بصورة مباشرة قدر الإمكان."

قال :" سأفعل ذلك."

ولكن نظراً لأن الأمور كانت على ما هي عليــه، فإنــه لــم يواتيه الحظ لفعل أيّ شيء على الإطلاق. لم تشجع زيلدة الرجال الذين كانوا يلاحقونها ولا علاقة لها بهم، هكذا كانت تقول. غيــر أن ذلك يسليها ويجعل سكوت غيوراً ولهذا فإنــه يــضطر إلــى مصاحبتها إلى تلك الأماكن. وقد دمّر ذلك عمله. وكانت تغار من عمله أكثر من أي شيء آخر.

وقد كافح سكوت ليعمل طوال ذلك الربيع وأوائــل الــصيف ولكنه لم يستطع أن يعمل إلا لماماً. وكان بشوشاً كلما التقيت بــه، وأحياناً بشوشاً بصورة يائسة، ويروي نكاتاً جيدة، وكــان رفيقــاً طيباً. وعندما كان يمرّ بأوقات عصيبة، كنت أستمع إليه وأحــاول أن أجعله يعي أنه إذا استطاع أن يتماسك فإنه سيكتب، لأنه يمتلك موهبة الكتابة وأن لا شيء يتعذّر تغييره إلا المــوت. وعنــد ذاك يأخذ بالسخرية من نفسه، وشعرت أنه على ما يرام ما دام يستطيع أن يسخر من نفسه. وطوال ذلك الوقت لم يــستطع أن يكتــب إلا قصة قصيرة جيدة بعنوان (الولد الغني)، وكنــت واثقــاً مــن أن بمقدوره أن يكتب ما هو أفضل منها، كما فعل فيما بعد.

كنا في إسبانيا خلال الصيف، وشرعتُ فــي كتابــة مــسودة رواية أتممتها في باريس في شهر أيلول. وكان سكوت وزيلدة في (راس عنتيبة)*، وعندما رأيته في باريس ذلك الخريف كان قــد تغيّر كثيراً. لم يتمكّن من الكفّ عن الشراب في الرفييرا، وأصبح الآن ثملاً في النهار كما في الليل. ولم يعد يعبأ بي ســواء كنــت أعمل أم لا، وهكذا أخذ يأتي إلى ١١٣ في شــارع نــوتردام دي

شامب وهو سكران في وقت النهار أو في الليل. وأصبح فظاً مع الذين هم أقل منه منزلة أو مع مَن يعدّهم أقل منزلة منه.

ودخل ذات يوم من باب المنشرة مع ابنته ــ وكان يوم العطلة الأسبوعيّة لمربّيتها الإنجليزيّة ويتولى سكوت العناية بها في ذلك اليوم ــ وفي أسفل السلم أخبرته ابنته أنها تحتاج إلى الذهاب إلى دورة المياه. فشرع سكوت في خلع ملابسها في باحة العمارة، وعندما شاهده صاحب العمارة الذي كان يسكن في الطابق تحتنا، نزل إليه وقال له :" سيدي، توجد دورة مياه بالقرب منك إلى يسار السلّم."

فقال له سكوت :" نعم، وسأضع رأسك فيها كذلك إن لم تكن مهذباً."

وكان صعباً جداً طوال ذلك الخريف ولكنه أخذ يعمل في كتابة رواية عندما لا يكون ثملاً. ونادراً ما رأيته صاحياً، ولكنه حين يكون صاحياً يصبح لطيفاً ويروي النكات وأحياناً يسخر من نفسه. بيد أنه عندما يكون سكران، يأتي إليّ عادة ويجد لذة في التدخل في عملي كما تتدخل زيلدة في عمله. وقد استمر هذا الوضع سنوات، ولكن، لسنوات كذلك، لم يكن لدي صديق أكثر إخلاصاً من سكوت حين يكون صاحياً.

كان مستاء مني في خريف ١٩٢٥، لأنني لم أطلعه على المسودة الأولى لروايتي (ولا تزال الشمس تشرق). وشرحت له أنها لا تعني شيئاً حتى أراجعها وأعيد كتابتها وأنني لا أرغب في مناقشتها مع أي شخص آخر ولا أعرضها عليه قبل ذلك. وكنا

سنذهب إلى شرونز* في فورارلبرغ* بالنمسا حالما تسقط أوائل الثلوج.

وأعدت كتابة النصف الأول من مسودّة الرواية هناك وانتهيت منه في كانون الثاني/يناير، على ما أظن. وأخذتها إلى نيويورك وأطلعت ماكس باركنز* من دار سكرايبنرز* للنشر عليها، ثم عدت إلى شرونز وأكملت إعادة كتابة الرواية. ولم يطلع عليها سكوت حتى أتممت إعادة كتابتها. وبعثت بالمسودّة إلى دار سكرايبنرز للنشر في نهاية شهر نيسان. وأذكر أنني كنت أمزح معه حول اهتمامه ورغبته في المساعدة دائماً بعدما ينتهي العمل. ولكنني لم أطلب مساعدته أثناء إعادة كتابة الرواية.

وفيما كنا نعيش في فورارلبرغ* وأنا في سبيل الانتهاء من إعادة كتابة الرواية، غادر سكوت وزوجته وطفلتهما باريس متوجهين إلى الينابيع في جبال البرنيز* السفلى. وكانت زيلدة مريضة بذلك المغص المعوي الشائع الذي ينتج عادة من تناول الكثير من الشمبانيا والذي كانوا يشخصونه آنذاك باسم " التهاب القولون". ولم يواصل سكوت الشراب وأخذ يعمل، وطلب منا أن نوافيهم في (خوان لي بان)* في شهر حزيران. وكانوا سيجدون لنا فيلا بثمن مناسب، وفي هذه المرة سيمتنع عن الشرب وسيغدو الحال كما كان في الأيام الطيّبة الخوالي، وسيزاول السباحة ويصبح صحيح البدن ومسمرّ البشرة، ولا يتناول سوى شراب مُشَه قبل الغداء وآخر قبل العشاء. وأصبحت زيلدة بخير مرة أخرى وكلاهما على ما يرام والعمل في روايته يسير بصورة

رائعة، ووصله المال من جرّاء تحويل روايته (غاتسبي العظيم) إلى مسرحية لقيت إقبالا، كما أنها كانت ستباعٍ إلى السينما ولم تعد الهموم تتملكه. وكانت زيلدة بخير حقيقة وكل شيء كان يسير على ما يرام وبشكل منضبط.

وذهبت إلى مدريد في مايس/مايو للعمل بمفردي، وعدت من (بايون)* إلى (خوان لي بان)* بالدرجة الثالثة بالقطار وأنا جائع تماماً، لأنني أنفقت جميع ما لدي من نقود بغباء، وكانت آخر مرة تناولت فيها طعاماً في (هونداي)* على الحدود الإسبانية الفرنسية. لقد كانت دارنا فيلا جميلة ودار سكوت فاخرة لا تبعد عن فلتنا كثيراً. وكنت سعيداً برؤية زوجتي التي اعتنت بالفيلا جيداً، وسعيدا برؤية أصدقائنا، وكان الشراب المشهي المنفرد قبل الغداء لذيذاً وتناولت منه عدة كؤوس. وفي تلك الليلة أُقيمت حفلة للترحيب بنا في الكازينو، مجرد حفلة صغيرة تضم عائلات مكليش* وميرفي* وفتزجيرالد* وعائلتنا. ولم يشرب أحد شراباً أقوى من الشمبانيا، وكانت حفلة مرحة. وكان المكان فاخراً ملائماً للكتابة، وفيه كلّ شيء يحتاجه الإنسان ليكتب ما عدا الانفراد بنفسه.

وكانت زيلدة جميلة جداً وقد لوّحت الشمس بشرتها بلون ذهبيّ بديع، وكان شعرها بلون ذهبيّ غامق جميل، وهي في غاية اللطف، وعيناها الشبيهتان بعينيّ الصقر هادئتين صافيتين. وأدركت أن كلّ شيء على ما يرام، وأن الأمور تسير سيراً حسناً وستنتهي بخير، وإذا بها تميل نحوي وتخبرني بسرّها العظيم

قائلة:" ألا تظن، يا إرنست، أن آل جولسون* أعظم مــن يـسوع المسيح؟"

لم يتبادر شيء إلى ذهن أيّ منا في ذلك الوقت. إنه سرّ زيلدة الذي باحت به لي، وأشركتني فيه، كما يقتسم صقر ما شـيئاً مـع إنسان. ولكن الصقور لا تقتسم الفريسة. ولم يكتب سـكوت شـيئاً آخر ذا قيمة إلى أن علم بجنونها.

١٩

مسألة مقاييس

ودعاني سكوت فيما بعد لتناول طعام الغداء معه في مطعم (ميشو)* الواقع في زاوية التقاء شارع يعقوب* بشارع دي سان بيريز*، وذلك خلال الفترة التي عانت فيها زيلدة مما أسموه حينذاك بانهيارها العصبي الأول. وقال لي إن لديه أمراً هاماً جداً يريد أن يسألني عنه وإن ذلك الأمر يعني بالنسبة إليه أكثر من أي شيء آخر في العالم، ويجب أن أجيب عنه بمنتهى الصدق. وقلت له إنني سأبذل كلّ ما في وسعي. وكان كلما طلب مني أن أصارحه بالحقيقة، وهو مطلب صعب جداً، وبذلت جهدي، أغضبَه ما أقول ليس في حين الإجابة ذاته، وإنما على الأغلب بعد وقت طويل عندما يطيل التأمّل فيها. وتغدو كلماتي شيئاً ينبغي تحطيمه، وأحياناً، تحطيمي معها، لو كان ذلك ممكناً.

شرب النبيذ مع الغداء ولكن لم يؤثّر فيه، لأنه لم يكن قد مهّد للغداء بشرب سابق. وتحدثنا عن عملنا وعن الناس، وسألني عن أناس لم نرهم مؤخراً. وعلمت أنه بصدد كتابة شيء جيد وأنه يواجه صعوبة في محاولته لعدة أسباب، بيد أن ذلك لم يكن الأمر الذي يريد التحدث عنه. وبقيت أنتظر مجيء ذلك الشيء الذي

يجب عليّ أن أجيب عليه بالحقيقة المطلقة، ولكنه لم يتطرّق إليــه حتى نهاية الوجبة، كما لو كنا نتناول غداء عمل.

وأخيراً وفيما كنا نأكل كعكة الكرز ونشرب آخر غرافة نبيذ، قال لي:

ــ " أنت تعلم أنني لم أضاجع امرأة أخرى سوى زيلدة."

ــ " لا، لا أعرف ذلك."

ــ " ظننت أنني أخبرتك بذلك."

ــ " لا، لقد أخبرتني بأشياء كثيرة ولكن ليس ذلك."

ــ " هذا ما يتعيّن عليّ أن أسألك عنه."

ــ " طيّب، استمر."

ــ " تقول زيلدة إن تكويني البدني لا يـساعدنيْ أبــداً علــى إسعاد أي امرأة، وهذا الذي يكدّرها في الأساس. وتقول إنها مسألة مقاييس. ولم استرجع مشاعري الطبيعية منذ أن أخبرتني بــذلك، ويجب أن أعرف الحقيقة."

قلت: " تعال معي إلى المكتب؟"

ــ " أين المكتب؟"

قلت :" المرحاض."

ورجعنا وجلسنا إلى الطاولة. وقلت له :

ــ " إنك طبيعيّ تماماً. أنت على ما يرام وليس مــن عيــب فيك. انظر إلى نفسك من الأعلى وستبدو قــصيراً. اذهــب إلــى متحف اللوفر وألقِ نظرة على تماثيل الرجال ثم اذهب إلى منزلك وانظر إلى نفسك في المرآة."

ـ " قد لا تكون تلك التماثيل مضبوطة."

ـ " إنها جيدة. ومعظم الناس تتفق عليها."

ـ " ولكن لماذا تقول هي ذلك؟"

ـ " لتعرقل نشاطك. هذه أقدم طريقة لعرقلة نشاط الآخرين. طلبتَ مني ، يا سكوت، أن أخبرك بالحقيقة، وأستطيع أن أخبرك بأكثر من الحقيقة، ولكن هاهي الحقيقة المطلقة وكل ما تحتاج إليه. وبوسعك مراجعة طبيب."

ـ " لم أُرد ذلك. أردتك أن تخبرني أنت بصدق."

ـ " والآن هل تصدقني؟"

قال: " لا أعرف."

قلت: " تعال معي إلى اللوفر. إنه في آخر الشارع عبر النهر."

وذهبنا إلى اللوفر ونظرنا إلى التماثيل، ولكن الشكّ ما زال يساور نفسه.

وقلت: " إن المسألة أساساً لا تكمن في حجمه في حالة الاسترخاء. إنها مسألة الحجم الذي يبلغه في الانتصاب. ومسألة الزاوية كذلك."

وشرحت له كيفية استخدام وسادة وبعض الأشياء الأخرى التي تعود عليه بالفائدة.

وقال لي: " ثمة فتاة لطيفة معي جداً، ولكن بعد الذي قالته زيلدة ـ "

فقاطعته قائلاً: " انسَ ما قالته زيلدة. زيلدة حمقاء. لا عيب فيك مطلقاً. ولتكن لديك ثقة بنفسك، وافعل ما تبتغيه تلك الفتاة. إن زيلدة تريد تحطيمك فقط."

ــ " أنت لا تعرف أي شيء عن زيلدة."

قلت: " حسن. لنتوقّف عند هذا الحد. ولكنك أتيت إليّ لتسألني وحاولتُ أن أجيبك بكل أمانة."

ولكن، مع ذلك، ظل متشككاً.

وسألته: " ألا ينبغي أن نذهب لمشاهدة بعض الأفلام؟ هل شاهدت هنا أي فيلم آخر باستثناء الموناليزا؟"

قال : " لست في حالة نفسية تسمح لي برؤية الأفلام. وقد وعدت أناساً أن ألتقي بهم في بار الريتز*."

وبعد عدة سنوات، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بوقت طويل، سألني جورج، وهو رئيس بار الريتز آنذاك وكان نادلاً عندما عاش سكوت في باريس، سألني في البار قائلاً:

ــ " بابا، من هو السيد فيتزجيرالد حتى يسألني عنه كل واحد؟"

ــ " ألم تعرفه؟"

ــ " لا، إنني أتذكر كل رواد تلك الفترة. ولكن الآن يسألونني عنه فقط."

ــ " وبماذا تجيبهم؟"

ــ " بأي شيء ممتع يرغبون في سماعه. بما يسرّهم. ولكن أخبرني من هو؟"

ـ " كان كاتباً أمريكياً في أوائل العشرينات وما بعدها، وعاش في باريس والخارج بعض الوقت."

ـ " ولكن لماذا لا أتذكّره؟ هل كان كاتباً جيّداً؟"

ـ " ألّف كتابين جيدين وآخر لم يكتمل يقول عنه الذين يعرفون أدبه إنه كان سيصبح كتاباً جيّداً. وكتب كذلك بعض القصص القصيرة الجيّدة."

ـ " وهل كان يرتاد البار كثيراً؟

ـ " أعتقد ذلك."

ـ " ولكنك لم تأتِ إلى البار في أوائل العشرينات. أعرف أنك كنت فقيراً آنذاك وتعيش في حارة أخرى."

ـ " عندما كانت تتوفّر لديّ النقود كنت أذهب إلى الكريون.*"

ـ " وأعرف ذلك أيضاً. وأتذكّر جيّداً أول مرة التقينا فيها."

ـ " وأنا كذلك."

وقال جورج: " من الغريب أنني لا أذكره."

ـ " كلّ هؤلاء الناس متوفّون."

ـ " ومع ذلك فإن الإنسان لا ينسى الآخرين لمجرد كونهم موتى، والناس يظلّون يسألونني عنه. يجب أن تخبرني شيئاً عنه لذكرياتي."

ـ " سأفعل."

وابتسم وقال : " أذكر أنك أتيت يوماً مع البارون فون بلكس* ذات مساء ـ في أي سنة؟"

ــ " وهو ميت كذلك."

ــ " نعم، ولكن لا ينساه أحد. أرأيت ما أعني؟"

وقلت: " زوجته الأولى كانت تكتب بأسلوب جميل جداً. لقد ألّفتْ أفضل كتاب قرأتُه عن أفريقيا باستثناء كتاب السير صموئيل بيكر* عن روافد النيل في الحبشة. أضف ذلك إلى ذكرياتك ما دمت مهتمّاً بالأدباء الآن."

فقال جورج: " طيب. البارون ليس بالرجل الذي تنساه. واسم الكتاب؟"

قلت: " *من إفريقيا*. وكان بليكي* فخوراً جداً بكتاب زوجته الأولى. ولكننا كنا نعرف أحدنا الآخر قبل وقت طويل من تأليفها الكتاب."

ــ " والسيد فتزجيرالد الذي يظلّون يسألونني عنه؟"

ــ " لقد كان هنا في زمن فرانك."

ــ " نعم. ولكنني كنت أنا *النادل*. وأنت تعرف ما معنى *النادل*."

ــ " سأكتب عنه شيئاً في الكتاب الذي سأؤلفه عن أيامي الأولى في باريس. لقد قطعت على نفسي عهداً أن أكتب ذلك الكتاب."

قال جورج: " حسن."

ــ " سأصفه بالضبط كما أتذكره أوّل مرة التقيته."

قال جورج: " طيّب. إذن، إذا كان قد جاء هنا فسأتذكره. ومع ذلك، فإن الإنسان لا ينسى الآخرين بسهولة."

ـــ " والسيّاح؟"

ـــ " طبيعي. ولكنك تقول إنه كان يأتي إلى هنا كثيراً."

ـــ " أعني كثيراً بالنسبة إليه."

" اكتبْ عنه كما تتذكّره، وإذا كان قد أتى إلى هنا فسأتذكّره.

قلت : " سنرى."

٢٠

لا نهاية لباريس مطلقاً

عندما أصبحت عائلتنا تتألف من ثلاثة أفراد بدلاً من اثنين، صار الطقس البارد هو الذي يخرجنا من باريس في فصل الشتاء. لا مشكلة لديّ لو كنت وحدي فقد تعوّدت على البرد. كنت أستطيع دائماً أن أذهب إلى مقهى وأكتب هناك طوال الصباح ولا أتناول سوى قهوة بالحليب فيما يقوم عمّال المقهى بالتنظيف والكنس، وشيئاً فشيئاً أشعر بالدفء. وكان بإمكان زوجتي أن تذهب للتمرّن على البيانو في مكان بارد وهي ترتدي ما يكفي من الكنزات لتظلّ دافئة أثناء العزف ثم تعود إلى المنزل لإرضاع بومبي. ومن الخطأ اصطحاب طفل إلى المقهى في الشتاء، حتى إن كان ذلك الطفل لا يبكي أبداً وإنما يراقب كل ما يدور حوله ولا يشعر بالسأم. لم يكن هنالك في تلك الأيام جليس أو جليسة أطفال وكان بومبي يظل سعيداً في فراشه الطويل المسيّج كالقفص ومعه قطه الكبير الودود المسمى ف. بوس. ثمة مَن كان يقول إن ترك قط مع الطفل شيء خطير. ويقول أشد المتحاملين الذين لا علم لهم بالموضوع إن القط يمص نَفَس الطفل ويقتله. ويقول آخرون إن القط يتمدّد على الطفل ويكتم أنفاسه. ولكن القط ف. بوس كان

يضطجع بجانب بومبي في الفراش القفصيّ الطويل ويراقب الباب بعينيه الكبيرتين الصفراوين ولا يدع أحداً يقترب منه إذا كنا خارج المنزل، وحتى منظّفة العمارة ماري كان عليها أن تبتعد. وهكذا لم تكن هناك حاجة لجلساء الأطفال، فقد كان القط ف. بوس هو جليس طفلنا.

ولكن عندما تكون فقيراً، وقد كنا فقراء حقاً عندما تخليت عن الصحافة بعد رجوعنا من كندا ولم أتمكن من بيع أيّ قصة على الإطلاق، فإن الحياة في باريس أثناء الشتاء تغدو صعبة إذا كان لديك طفل. لقد عبر بومبي المحيط الأطلسي وعمره ثلاثة أشهر في رحلة استغرقت اثني عشر يوماً على متن باخرة صغيرة أبحرت من نيويورك عبر هاليفاكس. ولم يبكِ قطّ خلال الرحلة، بل كان يضحك بسعادة عندما كنا نحصّنه في سرير مثبت في السفينة لئلا يسقط حين يتردّى الطقس كثيراً. ولكن برد باريس شديد الوطء عليه.

ولهذا ذهبنا إلى شرونز في فورارلبرغ* بالنمسا. وبعد المرور في سويسرا وصلنا إلى الحدود النمساوية في فيلدكرش*. واخترق القطار لايختنشتاين* وتوقّف في بولدنز* حيث يوجد خط فرعيّ يتجه إلى شرونز بمحاذاة نهر مليء بالأسماك والحصى ويجري في سهل تغطيه المزارع والغابات حتى شرونز التي كانت بلدة تسوّق تغمرها الشمس، وتتوفّر على منشرة، ودكاكين، ونُزُل، وفندق جيّد مفتوح طوال العام يُسمّى تاوبه*، وفيه أقمنا.

وكانت الغرف في فندق تاوبه واسعة ومريحة وتتوفّر علـى مواقد كبيرة، وشبابيك كبيرة، وسرر كبيرة معها بطانيات وأغطية بالريش. وكانت الوجبات التي يقدّمها الفندق بـسيطة وممتـازة، وغرفة الطعام والبار ذو الجـدران المكـسوة بالخـشب رائقـين ويتوفران على تدفئة جيّدة، والوادي الذي يطل عليه الفندق شاسعاً يسمح بدخول الشمس بكثرة. وكانت تكلفة الإقامة دولاريـن فـي اليوم لثلاثتنا، ولما كانت قيمة الشلن النمساوي في هبـوط بـسبب التضخّم، فإن كلفة غرفتنا وطعامنا كانت فـي انخفـاض طـوال الوقت. لم يكن هناك تضخّم وفقر بالشكل الموجود فـي ألمانيـا، فالشلن النمساوي يرتفع وينخفض ولكنّه كان فـي انخفـاض فـي معظم الأحيان.

لم تكن هناك مصاعد تزلّج ولا عربات معلّقة للانتقـال مـن شرونز، ولكن كانت هناك ممرّات الماشية والممرّات التي تقـود إلى الأكواخ الجبليّة، وهذه الممـرات تـربط الأوديـة المختلفـة بالمرتفعات الجبليّة. وكنتَ تتسلق على جلود الفقمة التي تربطهـا بأسفل المزالج الخشبيّة. وفي أعالي الوديان الجبليّة توجد أكـواخ نادي الألب الكبيرة المعدّة للمتسلقين خلال الصيف حيث تـستطيع أن تنام وتترك لهم في الكوخ ثمن الخشب الذي تستعمله للتدفئـة. وفي بعض هذه الأكواخ يتوجّب عليك جمع الخشب بنفـسك، أو، إذا كنت ذاهباً في جولة طويلة فـي الجبـال العاليـة والأنهـار الجليديّة، فإنك تستأجر شخـصاً يقـوم بجمـع الخـشب ونقـل

المستلزمات إلى المقرّ الذي تختاره. وأشهر تجمعات الأكواخ العالية هي لنداور هوته*، ومادلنر هاوس*، وفاير بادنر هوته*.

وخلف نهر تاربه* كان هناك منحدر للتمرّن حيث تستطيع أن تسير مخترقاً البساتين والحقول، وثمّة منحدر آخر خلف قرية تشاغونز* عبر الوادي حيث يوجد نُزل جميل فيه مجموعة من قرون الوعول الجبليّة معلقة على جدران غرفة تناول المشروبات. وتمتد المتزلّجات الجيّدة وراء قرية تشاغونز المشيّدة من الخشب والواقعة على الطرف البعيد من الوادي، عبر الجبال، وتصل سيلفرتيا* في منطقة كلوسترز*.

وكانت شرونز منتجعاً صحياً مفيداً لبومبي الذي كانت تعتني به فتاة جميلة ذات شعر غامق اللون وتأخذه إلى الشمس في زحّافة جليد، ليتسنى لي ولهادلي أن نستكشف جميع المناطق والقرى الجديدة، وكان أهل قريتنا في غاية اللطف، وقام السيد والتر لنت*، وهو أحد رواد التزلّج في الجبال العاليةِ ـ والذي كان في وقت من الأوقات شريكاً لهانس شنايدر، متزلّج آرلبرغ* العظيم، في تصنيع شمعٍ للتزلج في مختلف أنواع الجليد ـ قام بفتح مدرسة لتعليم التزلّج في جبال الألب وانخرطنا كلانا فيها. ولم يكن التزلّج يومئذ كما هو عليه اليوم، فالشج في أعلى خشبة التزلّج، الذي ينفتح في حالة السقوط، لم يكن معروفاً آنذاك، ولا يستطيع أحد أن يغامر بكسر ساقه. ولم تكن هناك مصاعد التزلّج. وكان عليك أن تتسلّق إلى المرتفع الذي تريد الانحدار منه. وهذا سيعطيك ساقين يصلحان للهبوط بهما.

كان والتر لنت* يعتقد أن متعة التزلّج تكمن في التسلّق إلى أعلى قمة جبليّة ممكنة حيث لا يوجد فرد آخر وحيث يكون الثلج بكراً لم يطرقه أحد، ومن ثم التنقل من كوخ من أكواخ نادي الألب إلى آخر متزلّجاً على الممرّات العالية والأنهار الجليديّة التي تزخر بها جبال الألب. وينبغي أن لا يكون على ساقك أي رباط قد يؤدي إلى كسرها عندما تسقط. ويجب أن ينفصل المزلج الخشبي قبل أن يكسر ساقك. وما كان يحبّه حقاً هو التزلّج على الأنهار الجليديّة بدون حبال، ولكن هذا النوع من التزلّج كان يتطلّب منا الانتظار حتى الربيع عندما تمتلئ الأخاديد بصورة كافية.

لقد أحببنا، أنا وهادلي، التزلّج كثيراً منذ أن جربناه معاً أول مرة في سويسرا وبعد ذلك في كورتينا دامبيزو* في دولميتس* عندما كان بومبي على وشك الولادة، وأعطاها الطبيب في ميلانو الإذن في الاستمرار في التزلج على شرط أن أتعهد أنا بعدم سقوطها. وتطلب ذلك عناية خاصة من حيث اختيار المكان ومسارات التزلج والتحكّم في الانزلاق، ولكن كان لها ساقان جميلتان قويتان بصورة رائعة يساعدانها على التحكمّ بمزلاجيها، فلم تسقط. وكنا نعرف أحوال الثلج المختلفة ونعرف كيف نتزلّج على الثلج الطريّ.

لقد أحببنا فورارلبرغ وأحببنا شرونز. وكنا سنذهب إلى هناك في موسم عيد الشكر ونبقى حتى عيد الفصح. فقد كان هناك دوماً مجال للتزلّج على الرغم من أن شرونز ليست عالية بما يكفي

لتكون منتجع تزلّج ما عدا في الشتاء الذي تتـساقط فيـه الثلـوج بغزارة. وكان التسلّق متعة ولم يعترض عليه أحد في تلك الأيـام. فأنت تحدّد المدى والسرعة التي تريد، وتجد الأمر سهلاً ويحـسّ قلبك بالغبطة وتشعر بالفخر وأنت تحمل حقيبتك علـى ظهـرك. وكان جزء من مسار التسلّق إلى مادلنر هاوس* شديد الانحـدار وصعب جداً. ولكن عندما تتسلق ذلك الجزء في المرة الثانية تجده أسهل، وأخيراً يصبح بإمكانك أن تتسلّق بيسر وأنت تحمل ضِعف ما حملته في المرة الأولى.

كنا دائماً نشعر بالجوع، وكان وقت كل وجبة مناسبة عظيمة. وكنا نشرب الجعة الخفيفة أو الغامقة، وأنواع النبيذ الجديدة وأحياناً النبيذ المعتّق لمدة عام. والنبيذ الأبيض هو الأفضل. أما بالنـسبة للمشروبات الأخرى فقد كان هناك مشروب الكيرش* الذي يُصنع في الوادي، وإنزيان شنابز* المقطَّر من نبات الجنطيانا* الجبليّ. وكانوا يقدّمون لنا أحياناً في العشاء لحم أرنب بريّ مطبوخ علـى نار هادئة مع التوابل وصلصة النبيذ الأحمر القويّ، وأحياناً لحـم الظبي مع صلصة الكستناء. وكنا نتناول النبيذ الأحمر مـع هـذه المأكولات على الرغم من أنه أغلى من النبيذ الأبيض وكان الجيّد منه يكلف عشرين سنتاً للتر الواحـد. والنبيـذ الأحمـر العـادي أرخص بكثير، وكنا نحمله معنا في برميل صغير إلـى مـادلنر هاوس*.

كانت لنا خزانة كتب سمحت لنا بأخذها معنا سـلفيا بيـتش* لتمضية فصل الشتاء، وكنا نلعب لعبة الكرة الخشبيّة مع أهل البلدة

الصغيرة في الممشى المؤدي إلى حديقة الفندق الصيفيّة. وكانت تُنظَّم في غرفة الطعام بالفندق لعبة ورق البوكر مرة أو مرتين في الأسبوع، وحينئذ تُغلَق جميع الشبابيك وتوصد الأبواب. فقد كان القمار ممنوعاً في النمسا في تلك الأيام، وكنت ألعب مع السيد نيلس*، مدير الفندق، والسيد لينت*، صاحب مدرسة تزلّج الألب، وأحد المصرفيين من البلدة، والمدعي العام، ورئيس الشرطة. ولعبة البوكر لعبة صارمة وكان جميع شركائي في اللعب جيّدين ما عدا السيد لنت الذي كان يلعب بعنف لأن مدرسة التزلّج لم تحقّق أيّ دخل مالي يذكر آنذاك. وكان رئيس الشرطة يرفع إصبعه إلى أذنه عندما يسمع الشرطيين يتوقفان خارج الباب عند القيام بجولتهما، فنخلد إلى السكون حتى يذهبا.

وكانت خادمة الفندق تأتي إلى غرفتنا في برودة الصباح حالما ينتشر الضوء، وتشعل النار في الموقد الكبير المزخرف بالخزف، فتصبح الغرفة دافئة عندئذ، وهناك الفطور المؤلّف من الخبز الطازج أو الخبز المحمّص مع عصير فواكه لذيذ وطاسات كبيرة من القهوة، والبيض الطازج، واللحم المقدّد إذا طلبته. وكان معنا كلب يسمى شناوتز* ينام عند أسفل السرير ويحبّ الذهاب في رحلات التزلّج، ويركب على ظهري أو على كتفي عندما أتزلّج منحدراً على التل. وكان هذا الكلب صديق السيد بومبي* أيضاً ويذهب معه ومربّيته في نزهات المشي ويسير بجانب زحّافة الجليد.

وكانت شرونز* مكاناً ملائماً للعمل. وأعرف ذلك لأنني قمت بأصعب عمل هو إعادة كتابة النسخة الأولى من رواية (ولا تزال الشمس تشرق) في شتاء ١٩٢٥ و ١٩٢٦، حيث أتممت إعادة كتابتها في شكل رواية متكاملة دفعة واحدة خلال ستة أسابيع. ولا أتذكّر القصص القصيرة التي كتبتها هناك وأُنجز بعضها بصورة جيدة.

أتذكّر أن الثلج في الطرق كان يصرّ تحت أقدامنا ونحن عائدون ليلاً إلى الفندق في البرد، حاملين المزالج وعصي التزلّج على أكتافنا، ونتطلع إلى الأضواء، وأخيرا نرى البنايات، وكيف يحيّينا كلّ مَن يرانا على الطريق بعبارة(Gruss Gott). كان هنالك دائماً قرويون في (فاين شتوبه)* ينتعلون جزمات مزودة بالمسامير ويرتدون ملابس جبليّة، والهواء مشبعاً بالدخان وعلى الأرضيات الخشبيّة آثار المسامير. وكان كثير من الشباب قد أدى الخدمة العسكريّة في كتائب الألب النمساويّة، وكان أحدهم، اسمه هانس* ويعمل في المنشرة، صياداً شهيراً، وأصبحنا صديقين حميمين لأنه كان أثناء الحرب مثلي في نفس المناطق الجبلية بإيطاليا. كنا نشرب معاً ونغني أغاني جبلية.

أتذكّر الممرات التي تخترق البساتين والحقول المنتشرة على التلال في تلك القرية، والبيوت القروية الدافئة بمواقدها الكبيرة وأكوام الخشب العالية في الثلج. وكانت النساء يعملن في المطابخ وفي ندْف الصوف وغزله في شكل خيوط سوداء ورماديّة. وكانت دواليب الغزل تعمل بالدعس بالقدم على دواسة، ولم يكن

الغزل مصبوغاً بعد. فالغزل الأسود يأتي من صوف النعاج السود. وكان الصوف طبيعياً لم يُخلّص من الشحم، ولهذا فإن ما نسجته هادلي من هذا الصوف على شكل طاقيات وكنزات ومناديل رأس لم يبتل في الثلج مطلقا.

وفي أحد أعياد الميلاد عُرضت إحدى مسرحيّات هانز ساخس* أخرجها مدير المدرسة. وكانت مسرحيّة جيّدة فكتبت عنها مقالاً نقدياً للجريدة المحلية قام مدير الفندق بترجمته. وفي سنة أخرى، حضر ضابط بحريّة ألمانيّ على رأسه الحليق آثار جروح لإلقاء محاضرة عن معركة جوتلاند*. وكانت صور الفانوس السحري التي استعان بها في محاضرته تبيّن تحرّكات الأسطولين المتحاربين. وكان ضابط البحرية يستخدم عصا البليارد للإشارة إلى الصور حينما كان ينبّه إلى جبن جاليكو*، وكان غضبه يشتدّ أحياناً إلى درجة يتهدّج معها صوته، بحيث خشي مدير المدرسة أن يخرق المحاضر الشاشة بعصا البليارد. وأخيرا لم يعد ضابط البحرية السابق قادراً على تهدئة روعه وشعر الجميع بشيء من الحرج في (فاين شتوبه)*. وبعد ذلك، لم يشاركه الشرب سوى المدعي العام والمصرفيّ وكانا في طاولة منفصلة. ولم يحضر المحاضرة الهر لينت*، الذي كان من الراين. واستمع إلى المحاضرة زوجان وصلا من فيينا للتزلّج ولكنهما لم يشاءا أن يذهبا إلى الجبال العالية فتوجها إلى تسورز* حيث قُتلا في انهيار جليدي، كما سمعت. وقال الزوج إن المحاضر من الأوغاد الذين دمّروا ألمانيا وسيعيدون فعلتهم بعد

عشرين عاما. وقالت له المرأة التي معه بالفرنسية أن يسكت مضيفة أن ذلك مكان صغير ولا يدري أحد ما قد يحدث.

وكانت تلك السنة هي التي قُتل فيها كثيرون بسبب الانهيارات الجليديّة. وأول خسارة كبيرة وقعت في الجبال القريبة من وادينا في ليج* في آرلبرغ*، حينما وصلت مجموعة من الألمان للتزلّج مع الهر لينت خلال عطلة عيد الميلاد. وكان تساقط الثلوج متأخراً ذلك العام ومنحدرات التلال والجبال ما زالت دافئة بفعل الشمس عندما انهار جرف جليدي عظيم. فقد كان الجليد عميقاً وهشاً ولم يكن ملتصقاً بالأرض بتاتاً. وكانت ظروف التزلّج على أسوء ما يكون ولهذا فإن الهر لينت أبرق إلى البرلينيين ينصحهم بعدم المجيء. ولكن كانت تلك الفترة عطلتهم وهم على جهل بالأوضاع ولم ينتابهم الخوف من الانهيارات الجليديّة. ووصلوا إلى ليج ورفض الهر لينت أن يخرج معهم. وقد نعته أحدهم بالجبان ثم قالوا إنهم سيتزلجون وحدهم. وأخيرا أخذهم إلى أكثر المنحدرات أماناً استطاع أن يجده. وعبره أمامهم ثم تبعوه وفجأة انهار التل الجليدي وغمرهم كما تغمر موجة مدّ عاتية السابحين في البحر. وأخرجوا منهم ثلاثة عشر، ومات التسعة الآخرون. ولم تكن مدرسة تزلّج الألب مزدهرة قبل الحادثة، أما بعدها فأمسينا نحن الوحيدين فيها تقريباً. وأصبحنا طلاباً متخصصين في الانهيارات الجليديّة، وأنواعها المختلفة، وكيفية تجنّبها، وكيفية التصرّف إذا فاجأك واحد منها، ومعظم ما كتبته في ذلك العام تم في وقت الانهيارات الجليديّة.

الظلام والنجوم قريبة وشديدة اللمعان. وكـــان للحمّـــالين مـــزالج قصيرة ويقومون بالتعامل مع الحمْولات الثقيلـــة. وكنـــا نتنـــافس بعضنا مع بعض حول مَن يستطيع التـــسلق وهـــو ينقـــل أثقـــل الحمولات، ولكن لا أحد يستطيع التنافس مع الحمّالين، الذين كانوا من الفلاحين المربوعي القامة المكفهري الوجوه والذين يتحـــدثون باللهجة المونتافية فقط، وكانوا يتسلّقون بخطوات راسخة ثابتة مثل خيول محملة، وعندما يصلون إلى القمة حيث يوجد كـــوخ نـــادي الألب المبني على منحدر بجانب نهر جليـــدي تغطّيـــه الثلـــوج، يضعون أثقالهم هناك بجانب حائط صخريّ للكـــوخ، ويطـــالبون بمبلغ أكثر من الثمن المتفق عليه، وعندما يحصلون علـــى مبلـــغ وسط ينطلقون منحدرين على مزالجهم مثل أقزام.

وكانت هناك فتاة ألمانية من أصدقائنا تتـــزلّج معنـــا، وهـــي متزلجة رائعة، صغيرة وجميلة القوام، وبإمكانها أن تحمل حقيبـــة لوازم ثقيلة مثلي، ولمسافات أطول. وقالت لـــي ذات مـــرة: " إن هؤلاء الحمّالين ينظرون إلينا دائماً كما لـــو كـــانوا يتوقعـــون أن يحملوننا إلى الأسفل جثثا هامدة. فهم يقررون ثمن التسلّق ولكن لم أرَهم مرةً إلا وهم يطالبون بأكثر من الثمن المقرر.

وكنت في شرونز* أطلق لحيتي أثناء الشتاء اتقـــاء الـــشمس التي أحرقت وجهي بقساوة في أعالي الجليد ذات مرة، ولا أعبـــأ بحلاقتها. وأخبرني الهر لينت ذات مساء وكنا نتزلج عائدين فـــي ممرات الحطّابين أن الفلاحين الذين مررت بهم في تلك الطـــرق في شرونز يدعونني بـــ (المسيح الأسود). وقال إن بعضهم ممن

يأتي إلى (فاين شتوبه)* يسمونني ب (المسيح الأسود الذي يشرب الكيرش). ولكن في نظر الفلاحين القاطنين في النهاية العليا القصوى من مونتافون* حيث نستأجر الحمّالين للذهاب إلى مادلنر هاوس*، كنا جميعاً بمثابة شياطين أجانب تتوجه إلى الجبال العالية في وقت ينبغي أن يبتعد الناس عنها. ولم يكن انطلاقنا المبكر، قبل ضوء النهار لعبور أماكن الانهيارات التي تجعلها الشمس أخطر، ليحسّن صورتنا في نظر أولئك الفلاحين. كان ذلك يبرهن فقط على أننا ماكرون مثل جميع الشياطين الأجانب.

أتذكّر رائحة أشجار الصنوبر، والنوم على فرش من أوراق أشجار الزان في أكواخ الحطّابين، والتزلّج في الغابات على ممرّات الأرانب البريّة والثعالب. وأتذكّر أنني كنت أتعقب ذات مرة ثعلباً في الجبال العالية وراء خط الأشجار حتى استطعت رؤيته وراقبته وهو يقف رافعاً قدمه الأماميّة اليمنى ثم يتحرك بحذر ليقف ثم يقفز، وفجأة ينتفض طائر ترمجان مذعور خارجاً من الثلج ويحلّق بعيداً فوق قمم الجبال.

أتذكّر جميع أنواع الجليد التي تستطيع الريح صنعها ومخاطرها المختلفة عندما يكون المرء على المزالج. ثم هناك العواصف الثلجيّة التي كانت تهبّ ونحن في أكواخ الألب العالي، وتنشئ عالماً غريباً فيتوجّب علينا العودة بعناية وحذر كما لو كنا لم نعرف الطريق من قبل. والحقيقة هي أننا لم نكن نعرفه لأنه جديد كل الجدّة. وأخيراً هنالك التزلّج على الأنهار الجليديّة

العظيمة المتجمّدة قبيل الربيع التي كانت تنحدر باستقامة ونعومة، استقامة متواصلة إذا كان بإمكان سيقاننا التماسك، ولما كانت كواحلنا مثبتة فإننا نتزلّج منحنين إلى الأسفل لزيادة السرعة، ونحن نهبط أكثر فأكثر وفحيح المسحوق الثلجي الهش يطرق أسماعنا. كان التزلّج أفضل من أيّ طيران ومن أيّ شيء آخر، ونمّينا قدرتنا على التزلّج وعلى التمتع به مع رحلات التسلق الطويلة ونحن محملون بالحقائب الثقيلة. فلم يكن بوسعنا أن ندفع لقاء رحلة إلى الأعالي ولا أن نشتري تذكرة إلى القمة. لقد عملنا من أجل هذه الغاية طوال الشتاء وقد أثمر عملنا.

وخلال سنتنا الأخيرة في الجبال حلّ أناس جدد في أعماق حيّاتنا ولم يعد هناك أي شيء كما كان عليه. فقد كان شتاء الانهيارات الجليديّة بمثابة شتاء برئ سعيد من أيام الطفولة إذا ما قورن بالشتاء الذي تلاه، فهو شتاء حزين كابوسي متنكّر في ثياب المرح الطافح، وأعقبه صيف قاتل، إذ صادف وصول الأغنياء إلى المنطقة ذلك العام.

ويبعث الأغنياء بنوع من الطُعْم قبل وصولهم، ويكون هذا الطُعْم أحياناً شخصاً أصم نوعاً ما أو أعمى شيئاً ما. ويتكلم الطُعْم هكذا: " حسن، إنني لا أعرف. لا طبعاً ليس حقيقة. ولكنني أحبّهما. أحبّ كليهما. نعم، والله، يا هام. فأنا أحبّهما. أرى ما تعني ولكنني أحبّهما حقيقة، ولها جاذبية خاصة (وينطق اسمها بطريقة محبّبة) لا، يا هام، لا تمزح ولا تكن صعباً. فأنا أحبّهما

حقيقة. أقسم أنني أحبّ كليهما. وستحبه (ويستعمل صيغة التصغير لاسمه) عندما تعرفه. وأنا أحبّهما حقيقة."

وعندما يصل الأغنياء لا يبقى أيّ شيء كما كان. ويختفي الطُعْم طبعاً. فهو يذهب دائماً إلى مكانٍ ما أو يأتي من مكان ما، ولا يبقى في أيّ مكان وقتاً طويلاً أبداً. وهو يلج السياسة أو المسرح ويغادر بنفس الطريقة التي كان يدخل فيها البلدان أو حياة الناس ويغادرها في شبابه. فهو لا يُقبض عليه أبداً ولا يقبض عليه الأغنياء. لا شيء يمسكه، فقط أولئك الذين يثقون به يُقبض عليهم ويُقتلون. وله مران النغل وحب دفين للمال ينكره دائماً. ويصبح هو نفسه غنياً في آخر الأمر، فهو يتحرك بمقدار دولار إلى اليمين بعد كل دولار يربحه.

وهؤلاء الأغنياء كانوا يحبونه ويثقون به لأنه خجول، ومضحك، ومراوغ، ومجرّب ، ولأنه طعم لا يخيب..

عندما يوجد شخصان يحبّ أحدهما الآخر، ويشعران بالسعادة، ويتمتعان بالمرح، ويعمل أحدهما أو كلاهما عملاً جيداً، فإن الناس ينجذبون إليهما كما تنجذب الطيور المهاجرة ليلاً إلى فنار قويّ. فإذا كان الزوجان متراصَّين بقوة كالفنار فلا ضرر هناك إلا ما يصيب الطيور. وأولئك الذين يجذبون الناس بسعادتهم ومنجزاتهم غالباً ما تعوزهم التجربة، فهم لا يعرفون كيف يتجاوزون العقبات وكيف يفلتون. وهم لا يعرفون حقيقة الغنيّ المتفهّم، الكريم، المحبوب، الطريف، الجذاب، الطيّب، الذي لا تشوبه شائبة والذي يجعل من كل يوم مهرجاناً، والذي بعد أن

يأخذ ما يريد، يترك كلّ شيء هشيماً أكثر من أيّ عشب داسته حوافر خيول عطيل*.

وصل الأغنياء يتقدمهم الطُعْم. ولم يكن بوسعهم المجيء قبل عام، فلم يكن هناك شيء مؤكّد آنذاك. فالعمل كان جيّداً والسعادة طافحة ولكن لم تُكتب رواية بعد، ولهذا لم يكن بإمكانهم التأكّد. وهم لا يهدرون وقتهم أو يبدّدون لطفهم على شيء ليس مؤكداً. ولماذا؟ بيكاسو كان مؤكداً، وحقّق نجاحه طبعاً حتى قبل أن يسمعوا بالرسم. كانوا متأكدين من رسام آخر، ومن عدد من الرسامين الآخرين. ولكنهم هذا العام كانوا متأكدين، وقد وصلهم الخبر من الطُعْم الذي جاء معهم كذلك لئلا نشعر بأنهم غرباء، ولكيلا أكون صعباً. وكان الطُعْم صديقنا.

وكنت في تلك الأيام أثق بالطُعْم كما أثق بدائرة البحار وتخطيطاتها* فيما يخص الاتجاهات الصحيحة للإبحار في البحر الأبيض المتوسط، أو كما أثق في جداول روزنامة براون للملاحة*. وقد وثقت بكل غباء بهؤلاء الأغنياء كما يفعل كلب صيد يريد الخروج مع أي رجل يحمل بندقية، أو كما يفعل خنزير مدرّب في السيرك وقد وجد أخيراً شخصاً يحبّه ويقدّره لذاته فقط. وعندما صار كل يوم كالمهرجان ظننت أنني اكتشفت شيئاً رائعاً، لدرجة أنني قرأت بصوت عال جزءا من الرواية التي كتبتها، وهذا أسوأ شيء يمكن أن يفعله الكاتب وأكثر خطراً عليه من التزلّج على الأنهار الجليديّة بدون حبل قبل أن تغطي تساقطات الثلوج الشتائيّة شقوق تلك الأنهار وتصدعاتها.

وعندما قالوا: " إنها شيء عظيم، يا إرنست، عظيم حقاً. لا تستطيع أن تقف على ما فيها من روعة." كنت أحرّك ذيلي فرحاً وأنغمس في مفهوم الحياة المهرجان، آملاً استخلاص شيء منها بدلاً من أن أفكر: " إذا كان هؤلاء الأوغاد يحبّون روايتي؛ فما الذي ينقصها؟" هذا ما كان يجب عليّ أن أفكر فيه لو كنت أتصرّف بطريقة مهنيّة، على الرغم من أنني لو كنت أتصرّف بصورة مهنيّة لما قرأت الرواية عليهم بتاتاً.

وقبل مجيء هؤلاء الأغنياء، كان قد تسلّل إلينا شخص غنيّ آخر مستخدما أقدم حيلة معروفة. لقد كان ذلك الشخص الغني في صورة امرأة شابّة غير متزوّجة أصبحت بصورة مؤقتة صديقة حميمة لامرأة شابّة أخرى متزوّجة، وأخذت تعيش مع الزوج والزوجة، ثم وبصورة عفوية بريئة عملت بلا هوادة للاقتران بالزوج. وعندما يكون الزوج كاتباً ويقوم بعمل صعب يستغرق جلّ وقته ولا يستطيع أن يكون رفيقاً أو شريكاً جيداً لزوجته معظم اليوم، فإن ذلك الترتيب له فوائده حتى تدرك الغرض منه. فالزوج تحيط به فتاتان جذابتان عندما ينتهي من عمله، وإحداهما غريبة وجديدة، وإذا كان سيّئ الحظّ فإنه سيحبّهما معاً.

وبدلاً من أن تتألف العائلة من زوجين وطفلهما، فإنها تتألف من ثلاثة. يبدو الأمر في البداية مثيراً وممتعاً، ويستمر على هذا المنوال لمدة من الزمن. إن جميع الأمور الشرّيرة حقاً تبدأ من البراءة. وهكذا فأنت تعيش حياتك يوماً بعد آخر وتستمتع بما لديك ولا يساورك القلق. وتأخذ في الكذب، وتكره ما تفعل، ويدمّرك

ذلك الوضع، ويمسي كلّ يوم أخطر من سابقه، ولكنك تعيش من يوم لآخر كما في الحرب.

كان من الضروريّ أن أغادر شرونز* متوجّهاً إلى نيويورك لأمر يتعلّق بالناشرين. وبعد أن أنهيت مهمّتي في نيويورك وعدت إلى باريس كان من الواجب عليّ أن أستقلّ أول قطار من محطة الشرق ليأخذني إلى النمسا. ولكن الفتاة التي أحبّها كانت في باريس آنذاك، فلم أستقلّ أول قطار ولا الثاني ولا الثالث.

وعندما رأيت زوجتي مرة ثانية واقفة على الرصيف عندما توقّف القطار بجانب كومة من الأخشاب في المحطة، تمنيت لو كنت ميّتا قبل أن أحبّ امرأة غيرها. كانت تقف باسمة، وقد غمرت الشمس وجهها الذي لوّحته الثلوج وأشعة الشمس، وبرز قوامها الجميل، وشعرها الذي بدا أحمر ذهبيّاً قد طال خلال الشتاء وتبعثر بصورة جميلة، وكان السيد بومبي يقف معها أشقر ممتلئاً، وله خدان متوردان فتبدّى مثل ولد من أولاد فورارلبرغ* الطيّبين.

وقالت عندما ضممتها بين ذراعيّ : " آه، يا تاتي، لقد عدتَ بعد أن قمت برحلة ناجحة. أحبّك وقد افتقدناك كثيراً."

كنت أحبّها ولم أحبّ أيّ امرأة أخرى وقد أمضينا وقتاً جميلاً كلّه السحر عندما كنا وحيدين. فقد عملتُ جيّداً وقمنا برحلات رائعة، وظننت أنه سيصعب التفريق بيننا مرةً أخرى، وبقينا متّحدين حتى غادرنا الجبال في أواخر الربيع وعدنا إلى باريس، فبدأ الشيء الآخر ثانية.

هذه نهاية الفصل الأول من باريس. وباريس لن تكون المدينة نفسها مرة أخرى على الرغم من أنها دائما باريس، ونحن تغيّرنا كما تغيّرت. ولم نعد أبداً إلى فورارلبرغ كما أن الأغنياء لم يعودوا إليها.

ليس ثمة نهاية لباريس، وتختلف ذكريات كلّ شخص عاش فيها عن ذكريات الآخرين عنها. وكنا نعود دائماً إليها مهما كنا وكيفما تغيّرت وبأيّ صعوبة أو سهولة نصلها. فباريس تستحق ذلك دائماً، وهي تمنحك مقابلاً لما تأتي به إليها. ولكن هكذا كانت باريس في الأيام الأولى عندما كنا فقراء جداً وسعداء جداً.



Hemingway's A Moveable Feast	الوليمة المتنقلة لهمنجواى
<u>**Proper Nouns**</u>	<u>مسرد الأعلام</u>
<u>**Chapter 1**</u>	<u>الفصل الأول</u>
١. Place St.-Michel	١. ميدان سان ميتشيل
2.Place Contrescrape	٢. ساحة كونتر إسكارب
3. Café des Amateurs 4. Rue	٣. مقهى الهواة
Mouffetard	٤. شارع موفتار
5. Rue Cardinal Lemoine	٥. شارع الكاردنال لوموان
6. Braque	٦. الرسام براك
7.Verlaine	٧. الشاعر فرلين
8. Lycée Henri Quatre	٨. مدرسة هنري كواترية الثانوية
9. Michigan	٩. ميتشغان
10. Place du Pantheon	١٠. ساحة البانتيون
<u>**Chapter 2**</u>	<u>الفصل الثاني</u>
1. Miss Stein	١. الآنسة شتاين
2. Jardin du Luxembourg	٢. حدائق لكسمبورغ

3. Louvre	٣. متحف اللوفر
4. Jeu de Paume	٤. جي دي بوم
5. Cezannes	٥. سيزان
6. Manets	٦. مانيه
7. Monets	٧. مونيه
8. Rue Fleurus	٨. شارع فليروس
9. Fruulano	٩. فريولانو
10. Joan of Arc	١٠. جان دارك
11. Boutte de Monvel	١١. بوته دي مونتفل
12. Atlantic Monthly	١٢. مجلة أتلنتيك الشهرية
13. The Saturday Evening Post	١٣. جريدة ستردي إيفننغ بوست
14. Picassos	١٤. بيكاسو
15. Melanctha	١٥. ملانكثا
16. Ford Madox Ford	١٦. فورد مادوكس فورد
17. The Transatlantic Review	١٧. ذي ترانس أتلانتك رفيو
18. Kansas City	١٨. مدينة كنساس
19. Marsala	١٩. قنينة مارسالا
20. Campari	٢٠. كمباري
21. Milan	٢١. ميلانو
22. Rue Vaugirard	٢٢. شارع فوجيرار

Chapter 3	الفصل الثالث
1. Aldous Huxley	١. الدوس هكسلي
2. D.H. Lawrence	٢. د.هـ . لورنس
3. Sylvia Beach	٣. سيلفيا بيتش
4. Marie Belloc Lowndes	٤. ماري بيلوك لاوندس
5. Jack the Ripper	٥. جاك السفّاح
6. Enghien les Bains	٦. إنغاين لي بان
7. Simenon	٧. سيمنون
8. Janet Flammer	٨. جانيت فلانر
9. Ronald Firband	٩. رونالد فيربانك
10. Scott Fitzgerald	١٠. سكوت فيتزجيرالد
11. Sherwood Anderson	١١. شيروود أندرسون
12. Ezra Pound	١٢. عزرا باوند
13. Notre-Dame-des-Champs	١٣. شارع نوتردام دي شامب
14. Model T Ford	١٤. سيارة فورد تي
15. Marshal Ney	١٥. مارشال نيي
16. Gaulaincourt	١٦. الجنرال كولنكور
17. Apollinaire	١٧. الشاعر أبولينير
18. Guillaume	١٨. غيوم

Chapter 4	الفصل الرابع
1. Shakespeare and Company	١. شركة شكسبير
2. Rue de L Odeon	٢. شارع الأوديون
3. Turgenev	٣. ترجنيف
4. Constance Garnett	٤. كنستاس غرنيت
5. Dostoyevsky	٥. دستيوفسكي
6. Michaud	٦. مطعم ميتشود
7. Larbaud	٧. لاربود
8. Joyce	٨. جويس
9. Rue de Seine	٩. شارع السين
10. Beaune	١٠. نبيذ البون
Chapter 5	**الفصل الخامس**
1. Ile St.-Louis	١. جزيرة سان لوي
2. Notre- Dame	٢. كاتدرائية نوتردام
3. Ile de la Cite	٣. جزيرة المدينة
4. Tour D Argent	٤. مطعم البرج الفضي
5. Quai des Grands Augustins	٥. رصيف غراند أوغستان
6. Hotel Voltaire	٦. فندق فولتير
7. Pont Neuf	٧. الجسر الجديد

8. Goujom	٨. الغجوم
9. Bas Meudon	٩. با مودون
10. La Peche Miraculeuse	١٠. مطعم الصيد العجيب
11. Muscadet	١١.الموسكاديت
12. Maupassant	١٢. موباسان
13. Sisle	١٣. سيسلي
14. Place du Verte Galentre	١٤. ساحة فيرت غالانت
15. Charenton	١٥. تشارنتون
16. Marne	١٦. نهر المارن
Chapter 6	**الفصل السادس**
1. Rue Descartes	١. شارع ديكارت
2. Auteuil	٢. حلبة أوتي
3. Chevre d Or	٣. العنز الذهبي
4. Toronto paper	٤. جريدة تورنتو
5. San Siro	٥. سان سيرو
6. Pruniers	٦. مطعم برونيير
7. Tuileries	٧. حدائق التويلري.
8. Place de Concorde	٨. ميدان الكونكورد
9. Arc de Triomphe	٩. قوس النصر
10. Arc du Carrousel	١٠. قوس الكاروسل

11. Sermione	١١. السرميون
12. St. Bernard	١٢. سانت برنارد
13 Aosta	١٣. أوستا
14. Chink	١٤. تشنك
15. Biffi's in the Galleria	١٥. مطعم بيفي في الكلاريا
16. Stockalper	١٦. الستوكالبر
17. Rhone	١٧. الرون
18. Wisteria vine	١٨. كرمة الوستاريا
19. Mrs Gangeswisch	١٩. السيدة غانجسويش
20.Dent du Midi	٢٠. الدنت دي ميدي
21. Mons	٢١. مونز
22. Sandhurst	٢٢. ساندهيرست
23. Cologne	٢٣. كولونيا
24. Michaud s	٢٤. مطعم ميتشو
25. Joyce	٢٥. جويس
26. Nora	٢٦. نورا
27. Georgio	٢٧. جورجيو
28. Lucia	٢٨. لوسيا
<u>Chapter 7</u>	<u>الفصل السابع</u>
1. Mike Ward	١. مايك وارد

2. Rue des Italiens	٢. شارع الإيطاليين
3. Boulevard des Italiens	٣. جادة الإيطاليين
4. Square Louvois	٤. ساحة لوفوا
5. Stade Buffalo	٥. ملعب بوفالو
6. Montrougue	٦. مونتروغ
7. The Sioux	٧. السيوكس
8. Parc du Prince	٨. منتزه الأمير
9. Ganay	٩. غاناي
<u>Chapter 8</u>	<u>الفصل الثامن</u>
1. Luxembourg museum	١. متحف اللكسمبورغ
2. Cézanne	٢. سيزان
3. Place St.-Sulpice	٣. ساحة سان سلبيس
4. Rue de l Odeon	٤. شارع الأوديون
5. Adrienne	٥. أدريان
6. Larbaud	٦. لاربود
7. Wedderkop	٧. ودركوب
8. Der Querschnitt	٨. در كيرشنت
9. Frankfurter Zeitung	٩. جريدة الأوقات الفرانكفورتية
10.The Transatlantic	١٠. ترانس أتلنتك

11. Lipp s	١١. مطعم ليبس
12. Distingué	١٢. الكأس المميز
13. Edward O Brien	١٣. أدورد براين
14. Lincoln Steffens	١٤. لنكولن ستيفنس
15. Rapallo	١٥. رابالو
16. Cortina d Ampezzo	١٦. كورتينا أمبازو
17. Deux – Magots	١٧. مقهى القردين
18. Rue de Guynemer	١٨. شارع غنيمير
19. Rue d Assas	١٩. شارع آساس
20. Closerie des Lilas	٢٠. بستان النيلك
Chapter 9	**الفصل التاسع**
1. Marshal Ney	١. المارشال نيي
2. Dome	٢. مقهى للقبة
3. Rotonde	٣. مقهى الطارمة
4. Boulevard Montparnass	٤. شارع مونبرناس
5. Boulvard Raspail	٥. شارع رسباي
6. Paul Fort	٦. بول فور
7. Blasie Cendrars	٧. بليز سندرار
8. Ford Madox Ford	٨. فورد مادوكس فورد
9. Bal Musette	٩. مرقص المزمار

10. Ezra Pound	١٠. عزرا باوند.
11. Ouida	١١. أويدا
12. Tauchnitz	١٢. طبعات توشنتس
13. John Quinn	١٣. جون كوين
14. Myron Herrick	١٤. ميرون هيريك
15. Harry Hotspur	١٥. هاري هوتسبور
16. Trollope	١٦. ترولويه
17. Fielding	١٧. فيلدنغ
18. Marlowe	١٨. مارلو
19. John Donne	١٩. جون دون
20. Paris- Sport complet	٢٠. البذلة الرياضية الباريسية
21. Aleister Crowley	٢١. أليستر كراولي
Chapter 10	**الفصل العاشر**
1. Petite Chaumiere	١. مقهى الكوخ الصغير
2. Hal	٢. هال
3. Mr. Bumby	٣. السيد بومبي
4. F. Puss	٤. القط ف. بوس

Chapter 11	الفصل الحادي عشر
1. Pascin	١. باسكين
2. Boulevard Montparnasse	٢. شارع مونبرناس
3. Negre de Toulouse	٣. مطعم زنجي تولوز
4. Mr. Lavigne	٤. السيد لافين
5. Cahors	٥. نبيذ كاهور
6. The Select	٦. مقهى للنخبة
7. Harold Stearns	٧. هارولد ستيرنز
8. Rue Delambre	٨. شارع دلامبر
9. Chez Les Vikings	٩. مطعم الفايكنغ
10. Broadway	١٠. برودواي
Chapter 12	**الفصل الثاني عشر**
1. Dorothy	١. دورثي
2. Gaidoer-Brzeska	٢. غوديير- برزيسكا
3. Picabia	٣. بكابيا
4. T.S. Eliot	٤. ت. س. إليوت
5. Natalie Barney	٥. ناتالي بارني
6. The Dial Award	٦. جائزة الدايل
7. The Criterion	٧. المعيار

Chapter 13	الفصل الثالث عشر
1. Juan Gris	١. جوان غريس
Chapter 14	الفصل الرابع عشر
1. Ernest Walsh	١. إرنست والش
2. Harriet Monroe	٢. هاريت مونرو
3. Eddie Guest	٣. أدي غيست
4. Kipling	٤. كبلنغ
5. Scofield Thayer	٥. سكوفيلد ثاير
6. Marennes	٦. المارين
7. Portugaises	٧. البرتغالية
8. Pouilly Fuise	٨. بويلي فويزة
9. Tournedo	٩. شرائح التورنيدو
10. Chatreauneuf du Pape	١٠. شاتو نف دي باب
11. Dry Sherry	١١. الشيري الجاف
Chapter 15	الفصل الخامس عشر
1. Evan Shipman	١. إيفان شيمان
2. Turgenev	٢. تورجنيف

3. Gogol	٣. غوغول
4. Tolstoi	٤. تولستوي
5. Chekov	٥. تشيخوف
6. Katherine Mansfield	٦. كاثرين مانسفيلد
7. Dostoyevsky	٧. ديستوفيسكي
8. Brady	٨. برادي
9. Stephen Crane	٩. ستيفن كرين
10. Chartreuse de Parme by Stendhal	١٠. راهبة بارم لستندال
11. Boulvard Arago	١١. شارع أراغو
12. Bal Bullier	١٢. مرقص بولبير
13. Maseppa	١٣. المازبا
14. Porte d Orleans	١٤. باب أورليان
15. Schruns	١٥. شرونز
16. Trollope	١٦. ترولبه
17. Tauchnitz	١٧. تاوشنتس
Chapter 16	**الفصل السادس عشر**
1. Ralph Cheever Dunning	١. رالف شيفر دوننغ
2. Hole in the Wall bar	٢. حانة الثقب العتيق في الحائط

3. Terza riruce	٣. ترزا ريروسة
4. Dante	٤. دانتي
Chapter 17	**الفصل السابع عشر**
1. Scott Fitzgerald	١. سكوت فتزجيرالد
2. Dunc Chaplin	٢. دونك شابلان
3. Princeton	٣. برنستون
4. Dingo	٤. حانة دونغو
5.Zelda	٥. زيلدة
6. Renault	٦. الرونو
7. George Horace Lorimer	٧. جورج هوراس لوريمر
8. Maxwell Perkins	٨. ماكسويل باركنز
9. Rue de Tilsitt	٩. شارع تيلسيت
10. L'Etoile	١٠. ساحة النجمة
11. Dijon	١١. مدينة ديجون
12. Henry James	١٢. هنري جيمس
13. Great Gatsby	١٣. غاتسبي البعظيم
14. Saturday Evening Post	١٤. بريد السبت المسائية
15. Boni and Liveright	١٥. بوني ولفرايت
16. Der Querschnitt	١٦. در كرشنت
17. This Quarter	١٧. مجلة هذا الفصل

18. Chalon-sur-Saone	١٨. شالون على نهر الساون
19. St.-Emilion	١٩. سان أميلون
20. A Sportsmans Sketches	٢٠. خطيطات رجل رياضي
21. Marseilles	٢١. مرسيليا
<u>Chapter 18</u>	<u>الفصل الثامن عشر</u>
1. Rue Tilsitt	١. شارع تلسيت
2. Montmartre	٢. مونمارتر
3. Lady Dina Marners	٣. ديانا مارنرز
4. Esterel	٤. جبال الأسترال
5. Cap d'Antibes	٥. راس عنتيبة
6. Schruns in the Vorarlberg	٦. شرونز في فورارلبرغ
7. Max Parkins	٧. ماكس باركنز
8. Scribners	٨. دار سكرايبنرز
9. Juan-les-Pins	٩. خوان لي بان
10. Hendaye	١٠. هونداي
11. MacLeishe	١١. مكليش
12. Murphy	١٢. ميرفي
13. Al Jolson	١٣. آل جولسون

Chapter 19	الفصل التاسع عشر
1. Rue Jacob	١. شارع يعقوب
2. Rue des Saints-Peres	٢. شارع دي سان بيريز
3. Crillon	٣. الكريون
4.Baron von Blixen	٤. البارون فون بلكس
5. Sir Samuel Baker	٥. صموئيل بيكر
6. Blickie	٦. بليكي
Chapter 20	**الفصل العشرون**
1. Feldkirch	١. فيلدكرش
2. Liechtenstein	٢. لايختنشتاين
3. Bludenz	٣. بولدنز
4. Taube	٤. تاوبه
5. Lindauer-Hutte	٥. لنداور –هته
6. Madlener-haus	٦. مادلنر–هاوس
7. Tchagguns	٧. قرية تشاغونز
8. Silvretta	٨. سيلفترتيا
9. Klosters	٩. كلوسترز
10. Walther Lent	١٠. والتر لنت
11. Cortina d'Ampezzo	١١ كورتينا دامبيزو

12. Enzian Schmapps	١٢. إنزيان شنابز
13. Gentian	١٣. الجنطانيا
14. Herr Nels	١٤. السيد نيلس
15. Herr Lent	١٥. السيد لينت
16. Schnautz	١٦. الكلب شناوتز
17. Schruns	١٧. شرونز
18. Hans Sachs	١٨. هانز ساخس
19. Battle of Jutland	١٩. معركة جوتلاند
20. Jellicoe	٢٠. جاليكو
21. Zurs	٢١. تسورز
22. Weinstube	٢٢. فاين شتوبه
23. Montafon	٢٣. مونتافون
24. Attila	٢٤. عطيل

الفهرس

علي القاسمي

ـ كاتب عراقي يقيم ويعمل في الرباط ـ المغرب
ـ تلقى تعليمه في جامعات في العراق (جامعة بغداد)، ولبنان (الجامعة الأمريكية في بيروت وجامعة بيروت العربية)، وفرنسا (جامعة السوربون)، وبريطانيا (جامعة أكسفورد)، والولايات المتحدة الأمريكية (جامعة تكساس في أوستن).
ـ حاز على شهادة البكالوريوس (مرتبة الشرف) في الآداب، وليسانس في الحقوق، وماجستير في التربية، ودكتوراه الفلسفة في علم اللغة التطبيقي.
ـ عضو مراسل عن العراق في مجمع اللغة العربية بالقاهرة.
ـ مارس التعليم الجامعي وعمل مديراً في المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة بالرباط، ومديراً للأمانة العامة لاتحاد جامعات العالم الإسلامي.
ـ يعمل حاليا مستشاراً في مكتب تنسيق التعريب بالرباط ومحررا في مجلة المكتب " اللسان العربي ".
ـ **له مؤلفات بالعربية والإنجليزية منها:**

* **عصفورة الأمير** – قصة للفتيات والفتيان – (بيروت: مكتبة لبنان، ٢٠٠٥)
* **دوائر الأحزان** – قصص قصيرة – (القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠٥)
* **العراق في القلب: دراسات في حضارة العراق** (بيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٤)
* **مفاهيم العقل العربي** (الدار البيضاء: دار الثقافة، ٢٠٠٤)
* **مرافئ على الشاطئ الآخر** ـ ترجمة ـ (بيروت: إفريقيا الشرق، ٢٠٠٣)
* **رسالة إلى حبيبتي** ـ قصص قصيرة (الدار البيضاء: دار الثقافة،٢٠٠٣)
* **صمت البحر** ـ قصص قصيرة ـ (الدار البيضاء: دار الثقافة، ٢٠٠٣)
* **المعجمية العربية بين النظرية والتطبيق** (بيروت: مكتبة لبنان، ٢٠٠٣)
* **معجم الاستشهادات** (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون ، ٢٠٠١)

منافذ بيع مكتبة الأسرة

الهيئة المصرية العامة للكتاب

مكتبة المعرض الدائم

١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق

مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب

القاهرة - ت : ٢٥٧٧٥٣٦٧

مكتبة ساقية

عبد المنعم الصاوى

الزمالك - نهاية ش ٢٦ يوليو

من أبو الفدا - القاهرة

مكتبة مركز الكتاب الدولى

٣٠ ش ٢٦ يوليو - القاهرة

ت : ٢٥٧٨٧٥٤٨

مكتبة المبتديان

١٣ش المبتديان - السيدة زينب

أمام دار الهلال - القاهرة

مكتبة ٢٦ يوليو

١٩ ش ٢٦ يوليو - القاهرة

ت : ٢٥٧٨٨٤٣١

مكتبة ١٥ مايو

مدينة ١٥ مايو - حلوان خلف مبنى الجهاز

ت : ٢٥٥٠٦٨٨٨

مكتبة شريف

٣٦ ش شريف - القاهرة

ت : ٢٣٩٣٩٦١٢

مكتبة الجيزة

١ ش مراد - ميدان الجيزة - الجيزة

ت : ٣٥٧٢١٣١١

مكتبة عرابى

٥ ميدان عرابى - التوفيقية - القاهرة

ت : ٢٥٧٤٠٠٧٥

مكتبة جامعة القاهرة

بجوار كلية الإعلام - بالحرم الجامعى -

الجيزة

مكتبة الحسين

مدخل ٢ الباب الأخضر - الحسين - القاهرة

ت : ٢٥٩١٣٤٤٧

مكتبة رادوبيس

ش الهرم - محطة المساحة - الجيزة

مبنى سينما رادوبيس

مكتبة أكاديمية الفنون

ش جمال الدين الأفغانى من شارع

محطة المساحة - الهرم

مبنى أكاديمية الفنون - الجيزة

ت : ٣٥٨٥٠٢٩١

مكتبة الإسكندرية

٤٩ ش سعد زغلول - الإسكندرية

ت : ٠٣/٤٨٦٢٩٢٥

مكتبة الإسماعيلية

التمليك - المرحلة الخامسة - عمارة ٦

مدخل (أ) - الإسماعيلية

ت : ٠٦٤/٣٢١٤٠٧٨

مكتبة جامعة قناة السويس

مبنى الملحق الإدارى - بكلية الزراعة -

الجامعة الجديدة - الإسماعيلية

ت : ٠٦٤/٣٣٨٢٠٧٨

مكتبة بورفؤاد

بجوار مدخل الجامعة

ناصية ش ١١، ١٤ - بورسعيد

مكتبة أسوان

السوق السياحى - أسوان

ت : ٠٩٧/٢٣٠٢٩٣٠

مكتبة أسيوط

٦٠ ش الجمهورية - أسيوط

ت : ٠٨٨/٢٣٢٢٠٣٢

مكتبة المنيا

١٦ ش بن خصيب - المنيا

ت : ٠٨٦/٢٣٦٤٤٥٤

مكتبة المنيا (فرع الجامعة)

مبنى كلية الآداب -جامعة المنيا - المنيا

مكتبة طنطا

ميدان الساعة - عمارة سينما أمير - طنطا

ت : ٠٤٠/٣٣٣٢٥٩٤

مكتبة المحلة الكبرى

ميدان محطة السكة الحديد

عمارة الضرائب سابقاً

مكتبة دمنهور

ش عبدالسلام الشاذلى - دمنهور

مكتبة المنصورة

٥ ش الثورة - المنصورة

ت : ٠٥٠/٢٢٤٦٧١٩

مكتبة منوف

مبنى كلية الهندسة الإلكترونية

جامعة منوف



استوقفتني صورة منشورة في كتاب يتناول دراسة أهمية إحياء ممارسة القراءة
التقطت الصورة بعد قصف بالقنابل لأهم مكتبة، حيث تظهر بقايا المكتبة
التي أصابها القصف وقد انهارت، فسقطت أعمدتها الخشبية وتراكمت
وتحطمت قطع الأثاث وتناثرت، لكن رفوفها المثبتة على الجدران بقيت في
مكانها، تصطف داخلها الكتب في حالة جيدة. المثير للتأمل أنه في وسط
الدمار والفوضى تقف ثلاث شخصيات، الشخصية الأولى تتفحص الكتب مترددة
والثانية تمد يدها لالتقاط أحد الكتب، والثالثة تقرأ في كتاب مفتوح
لا شك أن معنى الصورة تؤكد أن القراءة، بوصفها أهم ممارسات الوجود
الإنساني، هي التي تعزز طاقة مواجهة كل صور معاداة الحياة، وتمنح
الحياة إمكانية التواصل، فالقراءة تصوب فهمنا للماضي، وتعمق
إدراكنا للحاضر، وتشحذ استشرافنا للمستقبل، لذا ستظل
دومًا دعوتي أن نقرأ لجودة الحياة.

سوزان مبارك





